

نظرة علمية فى أهل التبليغ والدعوة



تأليف الشيخ

أيمن أبو شادى



الإجازة العالية من كلية الشريعة - جامعة الأزهر الشريف
الإجازة بالأسانيد فى الحديث والأصول و الفقه والعقيدة



وبآخره ملحق لفتاوى كبار العلماء
فى العالم الإسلامى





الجزء الخامس

نظـرة علمية

الجزء الخامس

مفهوم تغيير المنكر

في

أهل التبليغ والدعوة

وبآخره ملحق لفتاوى ورسائل كبار العلماء

في العالم الإسلامي

في أهل التبليغ والدعوة

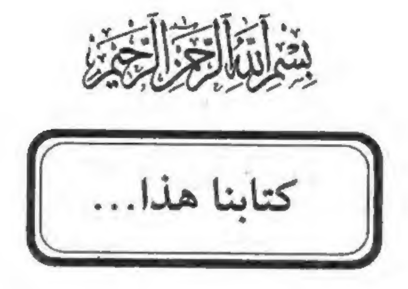
تأليف

الشيخ أيمن أبو شادي

الإجازة العالية من كلية الشريعة ـ جامعة الأزهر الشريف

الإجازة بالأسانيد في الحديث والأصول والفقه والعقيدة

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م
الجزء الخامس
رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٥/٩٠٢٧



كتابنا هذا...

«إن الله لا يمحو الشر بالشر
ولكن يمحو الشر بالخير»
والدعوة إلى الله تعالى هي الأمر بكل معروف
والنهي عن كل منكر
فالداعي لا يأخذ الناس من أول وهلة بما هو منتهى الأمر
«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».
والأصل هو السير على طريق الصلاح والإصلاح
فالنفس تميل إلى النقد وهذا ليس بمحمود
النقد عادة يأتي على القصور
والداعي الصادق في دعوته يطلب المحاسن
فعمل الدعوة هو مناولة بالمحاسن
ندفع في كل ذلك المحبوب بالمحبوب
ويأتي الشتاء يعيد البعيد
لبرد الأماني وضوء الجليد
وأبسط وجهي لأحمي الرزاز
وأمضي أحاور قلبي الوحيد
تمهل أمام رجائي ويأسي
عساني أحرك صمتي القعيد
وأسرع لعلي أسابق نفسي
وأنفض عني خيوط الجليد...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المجيد بعزه، الوحيد بخلقه وأمره..

الذي أرشد العباد لمعرفته بما أودع من صور،

ووضح من دلالات..

واسع الرحمة، كثير المغفرة، عظيم الآيات..

والصلاة والسلام على أفضل الكائنات، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه الأعلام السادات..

وبعد...

فقد مرت فترة من الزمن حتى غادر قرص الشمس المضيء عرشه الساحر في أعالي السماء، وظهرت من ورائه ظلال أقدام الليل، وهى تتقدم لتحيط ذلك الكون الفسيح..

وجاءت أمة الرسالة درة للزمان، وحسنة للسنين ..

وذكرى للعابدين..

فنحن أمة المعروف نُعرف به، وندعو إليه..

وأمة الخير للناس وللعالمين، خرجنا حتى يتغير بنا وجه الدهر..

من الظلمات إلى النور ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

سرنا بالناس إلى المجد، من سرور إلى سرور، ففوز الدنيا معنا، وراحة الآخرة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾.

أقدامنا في الطرقات تمحو المنكرات، وتبعث المعروف في النفوس الحائرة..

قبل أن تعرف البشرية أسس الإنسانية، قامت أمتنا تنشر الروحانية، ليدب في الكون نفس الإيمان وروح الهداية ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾.

فيأيها الكون الذي اختنقت فيه الهداية..

وسادت عليه طرق الغواية ..

إليك روح قرآننا، وحياة سنتنا، وضياء حكمتنا..

فتدثر بالهدى، والتحف بالتقوى، واعلم حقيقتنا،

وقدس شريعتنا، واعرف معروف ملتنا، واسلك دربنا..

ويأيتها الدنيا إلى قرآننا، ورحمة ديننا أقبلي..

وخذي منا أوثق العهود، لحقوق الإنسان، التي يسعى لها الساعون، ظاهرا لا باطنا، وصورة لا حقيقة، والحقيقة معنا..

والأصل لنا، وإن أخطأ في فهم ذلك الخاطئون، وعجز عن بيان هذا العالمون ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

تكلم يا راعى المكان العتيد

عن طول الليالى وجهد الجهيد

وأرفع بصرى وراء السدود

فتعوي أمامى ذئاب الحديد

تمزق وجهى ومجدى التليد

وأدعو رايات الهدى والخلود

أظلى حمانا وعودى نعود..

يا دعوة النبوة..

سأبعث قلبي ذهابا إليك

وأنتِ وحيدة

وأبحث في التيه عن معطفي

وعود السواك ودين الحنيفة

رويدا كفاك لا ترجفي

يا نظرة الدهشة البعيدة

عودي لضوئك وترقبي حملة السفن الغريبة..

سأحمل فوق جناحي الصغير رمالي العنيدة

وأوقف رحلي أمام الرياح تحيط المدينة

وأهتف ذعرا لراعي السفينة

حذار أمامك مراسي حزينة

وموج الأفاعي يهز أمامي القلاع الحصينة..

حذار أمامك بحار مهينة

وشطآن قبح وسور الرهينة

حذار لئلا تراك الظعينة تفر أمَام الوجوه الكريهة

وتلقى وراءك مجد المعالي وترفع يأسا قيودا ذليلة

حذار فإن صراخ الأيامى يحيل الظلام رؤى مستنيرة

تراك تندد بالفاجعات وتبقى الفجيعة تعيد الفجيعة

أيمن أبو شادي



الشبهة الخامسة:

أهل الدعوة

لا يبالون بالنهى عن المنكر

ولا يعدونه من واجبات الإسلام

يقولون: أهل الدعوة لا يُبالون بالنهي عن المنكر، ولا يعدونه من واجبات الإسلام، وعطَّلوا جميع النصوص الواردة في الكتاب والسنة فيه، هذا ما قالوه وما يقولونه. .

ولقد قال الإمام الغزالي في الإحياء ج٢ ص ٢٤٠: «قال الشافعي ليونس بن عبدالأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله. .

ولذلك قيل:

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له: اعمل كذا، وكذا لشيء أمره به. فقال: يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس. فالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه وإن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه، وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالى بأي حال يرونه.

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: ليس من أحد إلا وله محب ومبغض، فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله.

وقيل للحسن يا أبا سعيد، إن قوما يحضرون مجلسك ليس إلا تتبع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال. فتبسم وقال للقائل: هوّن علي نفسك فإني حدّثت نفسى بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدّثت نفسى بالسلامة من الناس؛ لأني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم.

ونقول مجيبين على ذلك.. أهل الدعوة لا يبدأون في دعوتهم أولاً بالكلام عن المنكرات والتركيز على ذلك، لأنهم يبدأون أولا بما بدأ به الوحي، وبما بدأ به الله ـ تعالى ـ في كتابه ورسوله ﷺ في سنته، جلبا لأمثل المصالح فأمثلها، ودفعا لأرذل المفاسد فأرذلها..

فلا يخفى ما وصل إليه الآن حال المسلمين من ضياع لأركان الديانة، وفساد في العبادات والمعاملات والأخلاق، بل وطروء بعض أفعال وأقوال غير المسلمين على عقائد بعض المسلمين..

لا يخفى ذلك كله ولكن كيف نبدأ، وأكثر المبتلين بهذه الأمراض أو معظمهم يعرفون حكم الإسلام فيها، ومع ذلك هم مبتلون بها، لضعف واعظ الإيمان في القلوب ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فالمسلمون الآن قد تحققوا بأن التبرج حرام والرشوة والسرقة والزنى، هم يعرفون ذلك كله، ولكنهم في أشد الحاجة إلى من يوقظ فيهم واعظ الإيمان، الذي يكون به كمال الامتثال والتطبيق وعدم النفرة من الأوامر..

والله ـ تعالى ـ قبل أن يأمر أمة النبي ﷺ بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمرها أولا بالدعوة إلى الخير، أي الدعوة إلى الإيمان ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة آية: ٩٣.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

كذلك لقمان عليه السلام قال لولده وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾[1] فأمره أولا بإقامة الصلاة التي بها إقامة الإيمان، فإذا ما جاء الإيمان جاء الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وبعد ذلك يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عندما تتأهل القلوب لاستقبال الأوامر والنواهي.

---

(١) سورة لقمان آية: ١٧.

فى تغيير المنكر
نبدأ بما بدأ به الوحى

فأصل السعي في تغيير المنكر لما بدأ به الوحي، وهو الإيمان الذي به تقوية المعروف في القلب، وتقوية بغض المنكر في القلب، والذين بدأوا سعيهم بالأحكام رأسا، بدأوا بما انتهى به الوحي فخالفوا، فالوحي بدأ بتعظيم الله ـ تعالى ـ وحقائق الإيمان والعرفان.

وهو ما أورده الإمام البخاري (كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن).

عن عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[2].

قال الحافظ ابن حجر ج٨ ص٦٥٦ في شرح الحديث: (نزل الحلال والحرام) أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أُنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها» وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف» انتهى كلام الحافظ.

---

(١) سورة القمر آية: ٤٦.

(٢) أخرجه الإمام البخاري كتاب بدء الوحي باب تاليف القرآن، وأخرجه الإمام النسائي في السنن الكبرى ٥/ ٥ وأخرجه الإمام عبدالرزاق في المصنف ٣/ ٣٥٢ وأخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٣٢.

فالوحي بدأ بالكلام على الإيمان والتوحيد والغيب والموعود وتعظيم الله ـ تعالى ـ وتكبيره، وفي أول التنزيل المكي للقرآن تواتر نزول السور على بناء هذا الإيمان في القلوب، وعندما غُرس فيها هذا الإيمان رَقَّت وصدَّقت، وتأهلت لاستقبال الأحكام، وتطبيق الامتثال الكامل لها، وعندما ثاب الناس واطمأنوا إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، أما قبل ذلك، فلو نزل من الحلال والحرام شيء، لكان الرد والدفع والنفرة من الأحكام، فالاستفادة تكون كاملة مع صلاح النفس، مثل الثوب لا يصبغ إلا بعد التنظيف..

لذلك الذين يبدأون الآن بما انتهى به الوحي، فيبدأون بالأحكام والكلام على تطبيقها وامتثالها، هم يعرضون هذه الأحكام للاصطدام بواقع المسلمين، من خلال عموم الأمة التي لم ينشأ بعد فيها الإيمان، الذي يدفعها للخضوع والطاعة..

الآن الذين يريدون أن يبدأوا بالأمة، رأسا عن طريق الأحكام، لتبديل وتغيير المنكرات المنتشرة فيها، نقول لهم: هل أمة النبي ﷺ الآن قلوبها عامرة بالإيمان رقيقة، أم مع البعد عن إشاعة الإيمان في الأمة، غلظت القلوب وقلَّت التقوى، وإذا كانت قلوب المسلمين الآن مع ندرة الإيمان، والبعد عن إشاعته فيها غلظت وقست، وشردت وبعدت، فكيف لها في استقبال الأحكام، وعائشة رضي الله عنها تقول: «**ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا**».

فهذه القلوب التي عصت وطغت للبعد عن الإيمان، إذا طُولبت بالأحكام رأسا دون أن تتهيأ لذلك، فسوف يكون منها الصدود والهجران لها، أما إذا استعدت القلوب للأوامر، فستكون مثل الأرض المهيئة إذا ألقيت فيها البذرة أثمرت..

لذا كان أول ما بدأ به الوحي، هو بناء الإيمان كاملا في قلوب الصحابة ﷺ، حتى تَجهَّزت هذه القلوب لاستقبال الأوامر، بعد أن تطهرت وزكت، بسماعها للغيب والموعود والجنة والنار، فهم مستعدون للامتثال، لأن طاعتهم أصبحت كاملة لله تعالى ولسنة رسوله ﷺ، ورقَّت أفئدتهم حتى أصبحوا لا يقنعون بتطبيق الأوامر فقط، بل يسألون عن غيرها التي لم تنزل بعد تلهفا على أحكامها، فيقول عمر ﷺ أما آن لنا أن نسمع بيانا شافيا في الخمر، ويحكي القرآن عنهم أنهم هم الذين يتساءلون عن الأحكام ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ**﴾[1] ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**﴾[2]﴿**يسألونك عن الأنفَالِ**﴾[3].

لذلك الذين يريدون الآن للأمة الاستقامة على أوامر الله تعالى، ويبدأون بما انتهى به التنزيل، لا بما بدأ به الوحي، هم يرتكبون أخطاءً كثيرة، لأنهم يبدأون بالأمة من حيث كان واجبا لهم أن ينتهوا بها، ويصطدموا بواقعها..

ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فأول الأمة صلح عن طريق آيات الوعد والوعيد، والغيب والموعود، وقدرة الله وتعظيمها، والجنة والنار، وبناء الإيمان والتوحيد والعرفان في القلوب، وعندما اكتمل فيهم هذا الإيمان قاموا لتنفيذ كل الأوامر، بل سألوا عن غيرها مما لم ينزل بعد..

---

(١) سورة البقرة آية: ٢١٩.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنفال آية: ١.

لذلك نص أئمة الإسلام على أهمية وجود هذا الإيمان في الأمة، الذي هو الأساس في صلاح النفوس، والمؤدي إلى الانقياد وامتثال الأوامر، قبل القيام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه لا يتصور وجود الأوامر والنواهي قبل وجود هذا الإيمان، فهو سابق لها وجودا ورتبة، ومتقدم عليها لا متأخر عنها، حتى لا تخطئ الأمة في آخر عهدها، فتقدم الأوامر والنواهي على الإيمان، فتسقط الأحكام فيها وتُدفع الأوامر، ويحصل الصدود والهجران من أمة النبي ﷺ لكتابها المعظم، وسنة نبيها ﷺ المشرفة..

وانظر إلى ما قرره الإمام العلامة البيضاوي الشافعي عند كلامه عن الإيمان في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] حيث بين رحمه الله ـ تعالى ـ أن هذا الإيمان تأخر في الآية، عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشأنه أن يكون متقدما عليهما، وفسره بأنهم ما أمروا بالمعروف وما قاموا للنهي عن المنكر، إلا إيمانا بالله، وتصديقا له، وإظهارا لدينه، فقال رحمه الله ـ تعالى ـ: «﴿كنتم خير أمة﴾ **دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طرأ كقوله ـ تعالى ـ ﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾ وقيل: ﴿كنتم﴾ في علم الله أو في اللوح المحفوظ أو فيهما بين الأمم المتقدمين ﴿أخرجت للناس﴾ أي أظهرت لهم ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ استئناف بين به كونهم خير أمة أو خبر ثان لكنتم و﴿تؤمنون بالله﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به لأن الإيمان به إنما يحق ويعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيمانا بالله وتصديقا به وإظهارا لدينه واستدل بهذه الآية على أن الإجماع حجة لأنها تقتضي كونهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر» انتهى.**

---

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

أقـول: وها هو الإمام الألوسي في تفسيره روح المعاني يؤكد ما سبق عن الإمام البيضاوي من كون الإيمـان متقدمًا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجودا ورتبة، وإن ذُكر متأخرا عنهما. .

بمعنى كل القائمين لنشر المعـروف ولاجتناب المنكر، ألا يغفلوا عن ضرورة إيجاد هذا الإيمان قـبل الأمر والـنهي، والمرور بهذه المرتبـة، حتى الدرجة التي يغـمر فيهـا هذا الإيمان القلوب، فتشع بالتـقوى، وتلتمس الهـدى، وتتأهـل وتستـعد للقـيـام بالواجبـات، والانتهـاء والاجتناب للمـحـرمـات، فالإيمـان الراسخ في القلوب هو أسـاس الخضوع والطاعة، والامتثال والتطبيق. .

لذا كانت وظيفـة كل الأنبياء صلوات الله وسلامـه عليهم، إيجاد وترسيخ هذا الإيمان والدلالة عـليه، وهي نفس وظيفـة كل الدعاة من بعدهم وإلى يوم القـيامة، إن أرادوا للناس حقـيقة الاستقـامة وتعظيم الأوامر. .

وفي هذا يقول الإمام الآلوسي رحمه الله ج٤ ص٢٨:

«وإنما أخر الإيمان عن الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهـما وجـودا ورتبة كمـا هو الظاهر لأن الإيمان مشـترك بين جـميع الأمم دون الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر فـهمـا أظهـر في الدلالة على الخيرية ويجوز أن يقال قدَّمهما عليه للاهتمام وكون سوق الكلام لأجلهما وأما ما ذكره فكالتتـميم ويجوز أيضًا أن يكون للتنبيه على أن جدوى الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر في الدين أظهـر مما اشتـمل عليه الإيمان بالله تعـالى لأنه من وظيفة الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام من قبل قـدما وأخر للاهتـمام وليرتبط بقـوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾[1] لم يبعد أي لو آمنوا إيمانا كـما ينبغي لكان ذلك الإيمان خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة في الدنيا» انتهى.

---

(1) سورة آل عمران آية: ١١٠.

أقــول: ولفضل هذا الإيمان بدأ به الوحي، وتأخر البـيان لبعض الأحكام والواجبات عند بداية الإسلام، حثًا عليه وترغيبا فيه، فإنها لو تعيَّنت في أول الأمر لتعذر تطبيقها، وهو ما قرره سلطان العلماء العز بن عـبدالسـلام في قواعـد الأحكام ج١ ص٦٣ حيث قـال رحمـه الله تعـــالى: «وإنما تأخــر الإيمان بالكتب والرسل، إذ لا يمـكن أن يؤمن بالرسول والرسـالة من لا يعرف المُرسل، فـقد تأخر لقـصور رتبـته عن رتبة الإيمان والعرفان لكونه تعلق بمخلوق، ولتعذر تحصيله قبل تحصيل الاعـتقـاد والإيمان والعرفـان، ولفضل الإيمان تأخـرت الواجبـات عند ابتداء الإسلام ترغيبا فيه، فإنها لو وجبت في الابتداء لنفروا من الإيمان لثقل تكاليـفه ولذلك أمثلـة أحدها أن الله أخَّر إيجـاب الصلاة إلى ليلة الإسراء لأنه لو أوجبها في ابتداء الإسلام لنفروا من ثقلها عليهم.

المثـال الثـاني: الصـيـام لو وجـب في ابتـداء الإسـلام لنفـروا من الدخول في الإسلام.

المثال الثـالث: تأخيـر وجوب الزكـاة إلى ما بعـد الهجرة لأنــها لو وجبت في الابتداء لكان إيجابها أشد تنفيرا لغلبة الفتنة بالأموال.

المثال الرابع: الجهاد لو وجب في الابتداء لأباد الكفرة أهل الإسلام لقلة المؤمنين وكثرة الكافرين.

المثال الخامس: القـتال في الشهر الحـرام لو أُحل في ابتداء الإسلام لنفروا منه لشدة استعظامهم لذلك، وكذلك القتال في البلد الحرام.

المثال السادس: القصـر على أربع نسوة، لو ثبت في ابتداء الإسلام لنفرت الـكفار من الدّخول فـيه، وكـذلك القصر على ثـلاث طلقات، فتـأخرت هذه الواجـبات تأليـفا على الإسلام الذي هو أفـضل من كل واجب، ومصلحته تربو على جميع المصالح.

ولمثل هذا قر الشرع من أسلم منهم على الأنكحة المعقودة على خلاف شرائط الإسلام، وكذلك أسقط عن المجانين ما يتلفونه من أنفس المؤمنين وأموالهم لأنه لو ألزمهم بذلك لنفروا من الدخول في الإسلام. وكذلك بني على الإسلام غفران جميع الذنوب لأن عهدها لو بقيت بعد الإسلام لنفروا، وكذلك قال جماعة قد زنوا فأكثروا من الزنا ومن غيره من الكبائر لرسول الله ﷺ إن ما تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾[1] الآية، وقال في غيرهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[2]، وإنما أمرهم في ابتداء الإسلام بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام، والصدق والعفاف، لأن ذلك كان ملائما لطباعهم، حاثا على الدخول في الإسلام، وكذلك ألّف ﷺ جماعة على الإسلام بما دفعه لهم من الأموال، وامتنع من قتل جماعة من المنافقين قد عرف بنفاقهم خوفا أن يتحدث الناس بأنه أخذ في قتل أصحابه فينفروا من الدخول في الإسلام، فهذه كلها مصالح أخرت، لما في تقديمها من المفاسد المذكورة» انتهى.

أقول: قد يقول قائل هذا في أول الإسلام فما بالنا الآن؟

نقول: سنن الهداية وإقامة للدين طرقها واحدة، وكما بدأت في أول الإسلام ونزول الوحي بالإيمان والعرفان، وتعظيم الله تعالى وتوحيده ومعرفته، حتى تتأهل القلوب للقيام بالواجبات، كذلك تكون عند غربة الأحكام، ودفعها من عموم الأنام، والقاسم في الحالين هو ما ذكره الإمام العز بن عبدالسلام في النص السابق عنه بقوله: «وإنما

---

(1) سورة الزمر آية: ٥٣.

(2) سورة الأنفال: ٣٨.

تأخر الإيمان بالكتب والرسل، إذ لا يمكن أن يؤمن بالرسول والرسالة من لا يعرف المُرسل، فقد تأخر لقصور رتبته عن رتبة الإيمان والعرفان لكونه تعلق بمخلوق، ولتعذر تحصيله قبل تحصيل الاعتقاد والإيمان والعرفان».

ففي هذا النص السابق يقرر الإمام العز بن عبدالسلام أن الإيمان بالكتب وما فيها من أوامر، وبالرسل وما أتوا به من شرائع قد تأخر في بدأ الأمر، إذ لا يمكن أن يؤمن الناس بالرسل وبالكتب وبالشرائع قبل أن يتعرفوا على مرسلهم وهو الله سبحانه وتعالى، فمعرفة الباعث وهو الله سبحانه وتعالى قبل معرفة المبعوث، ومعرفة المرسل عز وجل قبل معرفة الرسل، فتأخرت المعرفة بالرسل وبالرسالة لأنها متعلقة بالمخلوق، بخلاف معرفة المرسل عز وجل والإيمان به لأنها متعلقة بالخالق سبحانه وتعالى..

لذلك حرص أهل الدعوة في دعوتهم على إشاعة هذا الإيمان بالخالق والمُرسل سبحانه وتعالى، وتعظيمه والكلام عليه، وإنشاء اليقين الصحيح على قدرته وقيوميته ووحدانيته وعظمته، في عموم أمة النبي ﷺ، قبل الكلام على الواجبات والكتب والأوامر، والناظر في عملهم يتسائل لم لا يتكلمون على الأوامر؟..

نقول الكلام على الآمر سبحانه ومعرفته والإيمان به أولى في التقدم من الكلام على أوامره، لأننا لو عظمنا الآمر - سبحانه -، والمُرسل - عز وجل - في أنفسنا وفي الناس، لتعظمت بتعظيمه أوامره وكتبه ورسله ورسالته..

فأهل الدعوة يبدأون في الكلام في دعوتهم عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتعظيمه قبل أوامره، لأن في تعظيمه ـ سبحانه ـ تعظيم لأوامره، ولأنه لا يمكن للواجبات والأوامر أن تُعظم في قلوب الأمة قبل تعظيم الآمر بها ـ سبحانه وتعالى ـ، فتحصيلها متعذر قبل تحصيل الاعتقاد في الله ـ عز وجل ـ والإيمان به والعرفان لصفاته وقدرته . .

وانظر أخي الفاضل إلى قول سلطان العلماء أيضًا في النص السابق «**ولفضل الإيمان تأخرت الواجبات عند ابتداء الإسلام ترغيبا فيه. فإنها لو وجبت في الابتداء لنفروا من الإيمان لثقل تكاليفه**» انتهى.

أقول: فما صلح به قيام الواجبات في الأولين، من إشاعة الإيمان إلا والوعد والوعيد، هو الصالح لإقامة هذه الواجبات في الآخرين، عند فقد هذا الإيمان الذي بدأ به الوحي، ودفع السابقين من هذه الأمة حتى قاموا بتكاليف الأحكام . .

فعند فقد الإيمان والواجبات في الأمة، نبدأ باشاعة الإيمان والكلام عن قدرة الله وعظمته، والغيب والموعود والجنة والنار، حتى تطمئن القلوب بوعد الله ووعيده، حينئذ تسابق هذه القلوب بعد إحياء إيمانها فتقيم بكل الواجبات، والانتهاء عن كل المنهيات . .

فالوحي بدأ أول ما بدأ بتعظيم الله ـ تعالى ـ وحقائق الإيمان والعرفان، ثم بناء الفرائض، ثم المعاملات، ثم المعاشرات، وبعد كمال الدرجات السابقة، نتحصل على الثمرات والنتائج، أما من يكسر كل الدرجات السابقة، ويطلب نتائجها من الامتثال التام للأوامر، وانتهاء وتراجع المنكرات، فلا يتحصل إلا على السراب، ومن يطلب النتائج دون مسبباتها فقد خالف العقل، ولابد له من الابتلاء . .

أنت ترى المعصيات، وشيوع الفـواحش والمخالفات، ولم تر كسر تقوية المعروف في قلبك، وتقـوية بغض المنكر ونشر الإيمان في نفسك وأهلك والعالم أجمع، والذي هو الأساس لرفع المنكرات..

وهذا الأساس القائم على تقوية الإيمان والعـرفان، وصولا لكمال الامتثال والتطبيق، هو الذي عكف عليه النبي ﷺ في المرحلة المكية لمدة ثلاثة عشر عامًا، يبني فيهم الإيمان الكامل، حتى إذا بدأت المرحلة المدنية، بما فيها من أحكام، كانت القلوب مهيأة، ومستعدة للقيام بكل المطلوب منها..

أمـا من يريدون قـيـام المرحلة المدنيـة، بأحكامـهـا الكاملة، في العبادات والمعـاملات والمعاشرات وغيـر ذلك، رأسا دون المرور بمرحلة الإيمان المكية، التي كـان فيها غـرس الإيمان في عموم الأمة، فـسوف يصطدمـون بواقع المسلمين، ناقـصي الإيمان وضعـيفي اليـقين، الذين سوف يدفعـون الأوامر ويردونها، وينكرونها ولا يقبلونها، كـما قالت الصديقة (عائشة) رضي الله عنها **«ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخـمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا»**.

فالـدين جاء من الإيمان، ويخـرج الدين وينتشـر المنكر بفقـد هذا الإيمان، والله ربط الهداية والإيمان بجهـد رسول الله ﷺ في الدعوة والرسالة، فإذا قامت الأمة على جهد نبيها، ومقاصد رسالتها، فالله - سـبـحانـه وتعالـى - ينُزل على قـدر هذا الجـهد، إيمـانًا في القلوب **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[1].. **﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾**[2]. **﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾**[3].

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٩.
(٢) سورة يونس آية: ٩. (٣) سورة الحجرات آية: ١٨.

فإذا زاد جهـد الدعوة والإيمان في الأرض، على ترتيب سنة النبي ﷺ، تنزل الهداية من السماء على قدر هذا الجهد ومع نزول الهداية تحصل الإيمان في القلوب ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾.

ثم إذا زاد الجـهـد للدعـوة والإيمان والرسـالة، تنزل الهـداية من السماء، فبعد تحصـيل الإيمان في القلوب، تبدأ تتحصل العبادات، ثم إذا زاد الجهد تنزل الهـداية من السماء، وبعد وجـود الإيمان والعبادات يمن الله تعالى بقيام المعامـلات، ثم يزيد الجهد للدعوة والإيمان، فتنزل الهداية من السماء، والله ـ تعالى ـ يمن بقيام المعاشرات والأخلاق، ثم يزيد الجـهد فـتنزل الهداية من السـماء، ويمن الله تعـالى على عـباده بوجود القضاء والحكم..

فبـقدر الجهد للدعـوة والإيمان والرسالة تنزل الهداية من السـماء، وبقـدر الهـداية من السمـاء يأتي الدين في حـيـاتنا، فـإذا ما حـدث العكس، وقل الجـهد للدعوة والإيمان والـرسالة، ارتفعت الـهداية من الأرض، ويخرج الحـكم والقضاء، ثم يـنقص الجهد للـدعوة والإيمان والرسالة، فتـرتفع الهداية من الأرض وتخرب المعـاشرات والأخلاق، فتقـطع الأرحام وتضيع الحقـوق، ثم ينقص الجهد فتـرتفع الهداية من الأرض، ونفـقـد المعامـلات، فـينتـشر الحـرام، وأكل أمـوال الناس بالباطل، ويعم الربا، ثم ينقص الجهد للدعوة والإيمان ومقاصد النبوة، فترتفع الهداية من الأرض، وتخرب العبادات، فتترك الصلوات، وتمنع الزكـوات، ويندر الصـوم، ويضـيع الحج، وتعظم الفـواحش وفـعل المنكرات، وارتكاب المنهيـات، ثم ينقص ويقل الجهد للدعـوة واليقين والإيمان وحياة النبـوة ومقاصدها، فترتفع الهـداية من الأرض، ونفقد أصل كل هذه الأركـان وهو الإيمان، فـيـشرأب النفـاق في أوسـاط المسلمين، ويُسلب الإيمان من أيديهم، وتتـسرب صفات غـير المسلمين إليهـم، في التوجه والـطلب والقصـد للمولى ـ عـز وجل ـ وحده لا شريك له، ويفقد الناس حلاوة وطعم الإيمان..

فالدين لا يأتي جملة واحدة في يوم واحد، ولا يذهب جملة واحدة في يوم واحد، بل درجة درجة، ومرتبة مرتبة، مثل الشجرة تخرج بالهدوء، وليس بدفعة واحدة، وهكذا الدين بالهدوء وليس بالعجلة..

فأغلى شيء الإيمان، وحقيقة هذا الإيمان المطلوب هو أساس قيام كل الأحكام، ورفع كل المنكرات، هذه سنة الله - سبحانه وتعالى - في نزول الهداية، وقيام ونشر الدين، وهو ما يقوم عليه أهل الدعوة ليلهم ونهارهم، لإيجاد هذا الأساس الإيماني في الأمة، الذي بدأ به الوحي في أول التنزيل والذي به ينشر الله - تعالى - هدايته على الأمة، ويبعث فيها تعظيم الأوامر والعبادات، ثم يمن عليها بعد قيامها على المطلوب منها من الدعوة إليه وحده سبحانه والدلالة عليه، بقيام المعاملات..

فإذا ما عرفت الأمة مقصد وجودها، وحقيقة مسئوليتها، ونيابتها عن سيد المرسلين ﷺ، يُنزل الله - تعالى - عليهم رحمته، ويقيم فيهم معاشرات الإسلام وأخلاق النبوة، فإذا ما اكتملت وتضافرت الجهود، على عمل النبوة والرسالة، منَّ الله تعالى آخرا بالقضاء، فيتحاكمون على أمره، ووفق كتابه وسنة حبيبه ﷺ..

نسأل الله - تعالى - أن يرزق أمة حبيبه ومصطفاه، حقيقة إتباعه، وإحياء جهده وسنته، في مشارق الأرض ومغاربها، حتى تأتمر البشرية كلها بأمره - سبحانه -، وحتى ترتفع المنكرات، وتخبو الفواحش والموبقات، وتطهر وتزكو الأرواح والأوقات، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

كل المنكرات فى أمة النبى ﷺ سببها نقص الإيمان

لقد كان حرص أهل الدعوة في القيام لهذه الشعيرة من الدين، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يكون هذا القيام على بابه ومقاصده، ولتحقيق ما شُرع من أجله، فأعلى غايات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُقرب الإنسان من الدين، لا أن يبعده عنه، وينفره فيه، فالأصل هو تقوية المعروف في القلوب، وتقوية بغض المنكر في القلب..

الأنبياء - صلوات الله وتسليماته عليهم - جاءوا لبيان السبيل، وتوضيح الجادة، وكان أول ما يُثبتون في قلوب الناس الإيمان بالله - تعالى -، وعلى قدر جهد الإنسان لتحقيق الدين في حياته يتقوى إيمانه، وبقدر إيمانه ينال استعدادا للقيام بأوامر الله - تعالى -، فالقلوب عندما تستعد للأوامر تصير مثل الأرض المهيئة، إذا ألقيت بها البذرة أنبتت وأثمرت..

هناك ألفاظ الكلمة وإخلاص الكلمة، وألفاظ الإيمان وإخلاص الإيمان، ألفاظ الكلمة «لا إله إلا الله»، وإخلاص الكلمة يمنع الناس عن محارم الله - تعالى -، قال ﷺ : **«من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة»**[1].

وقد علق على ذلك الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول ١/ ٩١ بقوله: (**الأصل الثالث عشر والمائتان: في أن العبد يُسأل عن صدق لا إله إلا الله والفرق بين أهل الكلمة وأهل القول بالكلمة**) وأورد الإمام القرطبي في تفسيره عن الترمذي الحكيم قال: «حدثنا الجارود بن معاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نهيك عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ في قوله - تعالى -

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٣٦ وقال الإمام المنذري في مجمع الزوائد رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله رجال الصحيح.

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين (٩٢) عمّا كانوا يعملون﴾[1] قال: عن قول لا إله إلا الله. قال أبو عبدالله معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها وذلك أن الله ذكر في تنزيله العمل فقال ﴿عمّا كانوا يعملون﴾ ولم يقل عما كانوا يقولون». انتهى كلام الإمام القرطبي.

فلفظ الإيمان «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره» هذه الألفاظ يستطيع الطفل أن يتلفظ بها، ولكن عندما يقول الطفل آمنت بالله هل يخاف من الله وعظمته؟..

كذلك المنافق يستطيع أن يتلفظ بألفاظ الإيمان، ولكن بالألفاظ فقط لا يكون الإيمان حقيقيًا كاملاً تامًا، وعندما جاءت الأعراب لرسول الله ﷺ وقالوا ﴿آمنا﴾، أجابهم الله - عز وجل -: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ لأن حقيقته لم تستقر في قلوبهم ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[2].

كذلك كمال الإيمان ليس عملا بالجوارح فقط، بدون الإخلاص والتصديق واليقين الجازم، فما أكثر المرائين وقلوبهم هواء، وقد كان هذا شأن المنافقين: ﴿إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[3]، فكمال الإيمان يشمل التصديق أساسًا مع القول والعمل، لقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله، شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من الغنائم»[4].

---

(١) سورة الحجر الآية: ٩١، ٩٢. (٢) سورة الحجرات الآية: ١٤.

(٣) سورة النساء الآية: ١٤٢.

(٤) رواه الإمام البخاري في كتاب التوحيد باب «قول الله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾» ح٧٠٠١، ورواه الإمام النسائي كتاب الأشربة ح٥٥٩٧.

فلابد من ترسيخ هذا الإيمان في القلوب، وهذا يحتاج إلى المجاهدة والصبر والطاعة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] فالذي جاء عنده الإيمان الكامل، يكون عنده يقين على الجنة والنار، فيبتعد عن المعاصى أملاً في دخول الجنة، وحذرًا وخوفًا من الله - عز وجل - ومن الوقوع في النار، ويترك الكسب الحرام بأنواعه، ولا يجمع المال وينفقه على طريقة غير المسلمين..

والذي تحصَّل على الإيمان وإخلاص الكلمة وفعل سيئة، يأتي ويظهر ذنبه، ويطلب أن يتطهر من خطيئته، وبسبب إيمانه فالله يزكيه ويطهره..

إذا تلفظت بكلمة العبودية «لا إله إلا الله» فأنا أتعهد بأن أمتثل كل المعروفات في حدود الاستطاعة، وأنتهى عن كل المُنكرات قال ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»[2].

والذي يعرف الله تعالى بالحقيقة يلتزم بالعبودية له، ما أمره الله تعالى يأكل، وما نهاه عنه ينتهي، لا يقرب الحرام بكل أنواعه، ولا يكون منه المنكر على أي حال.

فالأصل موافقة العبد في حبه وكرهه لحب الله تعالى للمعروف وكراهته للمنكر، كل ذلك بحسب قوته وقدرته، **وهو ما أورده الإمام**

---

(1) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

(2) رواه الإمام مسلم في صحيحه ٤/ ١٨٣٠ كتاب الفضائل «باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك» ح١٣٣٧، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٤٧، وأخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه ١/ ٢٠٠ وأخرجه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢١٥، وأخرجه الإمام الطبراني في المعجم الأوسط ٨/ ٣٢٩.

... تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص١٣١ حيث قال ـ رحمه الله ـ:
... هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه للمنكر، وإرادته
... وكراهته لهذا: موافقة لحب الله وبغضه وإرادته وكراهته
... عيين. وأن يكون فعله للمحبوب ودفعه للمكروه بحسب قوته
... فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقد قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1] فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون
... جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان. وأما فعل البدن
... بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل
... معها بحسب قدرته: فإنه يعطي ثواب الفاعل الكامل، كما قد
... في غير هذا الموضع، فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته
... كراهته بحسب محبة نفسه وبغضها: لا بحسب محبة الله ورسوله
... الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع
... ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[2] فإن أصل الهوى
محبة النفس، ويتبع ذلك بغضها ونفس الهوى وهو الحب والبغض
... في النفس لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على
... عه، كما قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ
... بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال النبي ﷺ: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضا، وثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[4] انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

---

(١) سورة التغابن آية: ١٦. (٢) سورة القصص آية: ٥٠. (٣) سورة ص آية: ٢٦.

(٤) رواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٤٥٢، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢٧١٢.

نقول: لمعرفة الحقوق لابد من الدين، وبدون الدين تصبح الدنيا على الناس ضيقة لاتباع الهوى، فالله ـ تعالى ـ جعل حقوقه علينا قليلة، أما الحقوق بيننا فكثيرة..

وبدون الإيمان والتقوى كل إنسان يتبع الهوى، فجهد الدين لحصول الإيمان والتقوى، وإلا لا يستقيم الإنسان على الأوامر، لذلك بُعث الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بجهد الدين، الذي بدونه يكون الدين غريبا مطرودا، فالاستفادة في الدين تظهر مع الاجتهاد في إقامته..

جهد الأسباب في الأسواق وجهد الإيمان في المساجد، الأولى وهي الأسواق شر البقاع والثانية وهي المساجد خير البقاع، هم يُصدرون الباطل عن طريق الأسواق، وأهل الدين يصدرون الحق عن طريق المساجد، فالذي يتبع الحق يزول عنه المرض مع مرارة الدواء، فأوامر الله تعالى معها الكراهة وحفت بالمكاره، ولكن معها تنزل علينا السكينة ويثمر في قلوبنا الإيمان..

أما إذا كنا في معاملاتنا ومعاشراتنا، وأخذنا وعطائنا ولباسنا على خلاف أمر الله ـ تعالى ـ، فمعنى هذا أن كلمة العبودية ليست بالحقيقة في قلوبنا، وإذا أقررنا بلا إله إلا الله ولم نمتنع عن الحرام، فمعنى ذلك أن هذه الكلمة ليست بالإخلاص التام..

لذا نقول: كل المنكرات في أمة النبي ﷺ سببها نقص الإيمان، فكل أمراض الأمة، والمنكرات التي وقعت فيها، هي عرض وليست أصل الداء، **أما أصل الداء فهو نقص وضعف الإيمان..**

إذا ظهرت السخونة في الجسم، فهي ليست أصل الداء، وليست هي المرض بل هي عرض، وأصل الداء وأصل المرض هو الحمى، فالذي يبدأ بعلاج العرض قبل أصل الداء فهو متطبب وليس بطبيب،

... هو علاج أصل المرض، أما علاج العرض فهو خطأ في ...

... الذي يركز على المنكرات أولا، ويكتفي بذلك، دون النظر ... النفس، الذي هو الدافع للامتثال والتطبيق، إنما يعالج ... ولا يعالج أصل الداء الذي هو نقص الإيمان، فإذا ما عالجنا ... في أمتنا، وهو ضعف الإيمان الذي تنشأ معه كل ... ت، واستطعنا إشاعة الإيمان وتقويته عن طريق الوعظ ... بالقسم الثاني من مراتب تغيير المنكر، وهو التغيير باللسان ... قال ﷺ: **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع ... ه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**[1].

... غيرنا المنكر في أمة النبي ﷺ، عن طريق اللسان بنشر ... وحقائقه، واجتهدنا على تقوية وزيادة منسوب هذا الإيمان في مجموع الأمة، هنالك تزول كل المنكرات بغير الحاجة إلى اليد التي ... وتزيلها، بل بكل السهولة واليسر تستقيم الأمة على الأعمال، ... الأوامر، لقوة واعظ الإيمان، وتتنكر للمنكرات، لقوة دافع البر ... الذنوب قال ﷺ: **«البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه**

---

(1) رواه الإمام مسلم ١/ ٦٩ كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ح ٤٩)، ورواه الإمام الترمذي ٤/ ٤٦٩ باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو اللسان أو بالقلب ح(٢١٧٢)، ورواه الإمام أبو داود ٤/ ١٢٣ باب الأمر والنهي ح (٤٣٤٠)، ورواه الإمام النسائي في المجتبى ٨/ ١١١ باب تفاضل الإيمان ح (٥٠٠٨)، ورواه الإمام ابن ماجه في سننه ١/ ٤٠٦ ح (١٢٧٥)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ١٠.

القلب، والإثم ما تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب»[1]

والنبي ﷺ لم يكن كلما رأى المنكر غيره بيده، بل أن هنالك حالات ما غيرها النبي ﷺ إلا بلسانه وهي المرتبة الثانية في تغيير المنكر، وهذا حدث مع الأعرابي الذي بال في ناحية المسجد، وقام الصحابة ليغيروا منكره بأيديهم ويقعوا فيه، ولكن النبي ﷺ نهرهم ونهاهم، وقال لهم: «**لا تزرموه دعوه، فتركوه حتى بال**»[2] وهي نجاسة، تلقى في المسجد، ومنكر بالاتفاق، ثم أقبل عليه ﷺ باللين والرحمة وعلّمه ليجتنب بعد ذلك هذا المنكر الذي وقع فيه، ورغبه ﷺ في أعمال الإيمان، ولم يستعمل معه ﷺ المرتبة الأولى وهي التغيير باليد.

كذلك في قصة الشاب الذي جاء ليرخص له في الزنى، والصحابة رضي الله عنهم قاموا ليسكتوه ويبعدوه بقولهم «مه مه» ولكن النبي ﷺ ما سلك معه المرتبة الأولى في تغيير المنكر، وهي التغيير باليد، بل غير معه باللسان بالمرتبة الثانية، بعد أن قربه وأدناه، وقال له: «**أتحب أن يفعل هذا بأختك؟ قال: لا. فقال: فبابنتك؟ قال: لا. فلم يزل يقول بكذا وكذا كل ذلك يقول: لا. فقال له النبي ﷺ: «فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحبه لنفسك. قال: يا رسول الله، فادع الله أن يبغض إلي النساء قال النبي ﷺ: اللهم بغض إليه النساء. قال**

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٢٨، وأورده الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٥ وقال رواه أحمد والطبراني وفي الصحيح طرفه من أوله ورجاله ثقات.

(٢) رواه الإمام مسلم ١/ ٣٩٧ «باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها».

... رجل ثم رجع إليه بعد ليال فقال: يا رسول الله، ما من شيء ... عن النساء فائذن لي بالسياحة فقال النبي ﷺ: إن سياحة ... الجهاد في سبيل الله»[1]، وفي رواية دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه»[2].

... هذا الشاب، ولم يكن شيء أبغض على قلبه من الزنا، ... في نقض الكعبة، وبنائها على قواعد إبراهيم، ما غير ﷺ ... الأولى وهي اليد، بل قال لعائشة ﵂: «لولا حداثة قومك بكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم»[3].

وقد أورده الإمام البخاري تحت ترجمة (باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه).

وقال الإمام النووي في شرحه للحديث في صحيح مسلم: «وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام منها إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة ولكنه تعارضه مفسدة أعظم منه وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبا وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيما فتركها ﷺ» انتهى.

(١) رواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٦١.

(٢) رواه الإمام الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٨٣.

(٣) رواه الإمام البخاري ١/ ٥٩ باب فضل مكة وبنيانها، ورواه الإمام مسلم في صحيحه ٢/ ٩٦٨ واللفظ له كتاب الحج باب نقض الكعبة وبنائها ح (١٣٣٣).

فكان التغيير بالمرتبة الأولى وهي اليد، مع حدثان العهد بالكفر، ينتج عنه اتساع دائرة الشر، ولا تؤمن عواقبه، فلم يغيره ﷺ، وكان ترك تغييره هو المصلحة.

فلا يتعين التغيير باليد في كل الحالات، بحيث إذا لم يغير بهذه المرتبة لم يكن مغيرا للمنكر، حتى وإن قام بالتغيير بالمراتب الأخرى، وهي اللسان والقلب، كذلك قد لا يتعين التغيير باليد على كل الأشخاص، وفي كل الأوقات، بل على حسب المصلحة المترتبة على ذلك، جلبا لأمثل المصالح، ودفعا لأرزل المفاسد.

لذا قال النبي ﷺ: **«لا يزني الزاني وهو يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو يسرق وهو مؤمن»**[1] أي كامل الإيمان، حيث نقص إيمانه فزنى ونقص إيمانه فسرق، فهذا ماذا نفعل معه..؟.

نقول له السرقة حرام، والزنى حرام، هذا ليس بكاف وهو لا يسمع، وكم من الزناة سمعوا ذلك ولم ينتهوا، كما أنه قبل أن يقع في هذه المعاصي، يعلم كل هذه الأحكام، فهو لا يأتي هذه الفاحشة إلا وإثمها يحيك في صدره أنه يفعل فاحشة، وأبى الله تعالى للمعصية إلا أن يكون لها ضيقا في الصدر، وظلمة في الوجه، وبغضا في قلوب الخلق، كما إنه لا يغصب الأموال من أصحابها إلا وهو يعلم أنه يرتكب بذلك محرما، فكيف العلاج..؟.

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الحدود «باب السارق حين يسرق»، ورواه الإمام مسلم في صحيحه ١/ ٧٦ «باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله» ح (٥٧)، ورواه الإمام الترمذي في سننه ٢/ ١٢٩٨ «باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن» ح (٢٦٢٥).

نقول: هذا يحتاج منا إلى العلاج الأول، علاج الإيمان الذي هو السبب في إزالة كل المخالفات الموجودة في أمة النبي ﷺ، وهذا منهج النبي ﷺ في ذلك، وهو معالجة أصل الداء لا معالجة العرض. فالمنكرات كلها في الأمة عرض، فمن يقوم على التركيز عليها فقط إنما يعالج العرض ولا يعالج أصل الداء، فلو عالجنا نقص الإيمان لدفع هذا الإيمان المنكرات، وصلحت الأوقات، وانتهى المرض من الأمة..

نحن تعلمنا صنع الأشياء، وما تعلمنا هذا الإيمان، وحتى نتعلمه نحتاج إلى الوقت، تماما كما نحتاجه في تعلم كل الأشياء التي ننتفع بها. إذا أردنا السير على أحكام الإسلام، فأولا نتعلم حقيقة هذا الإيمان. الذي تعلمه النبي ﷺ، وعلمه لاصحابه في مكة، والذي دعا الناس إليه بقوله: «**يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**».

وقد قال النبي ﷺ وهو يعلمنا هذا الإيمان ومعناه: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان**»[1]. **أخرجه الإمام البخاري كتاب الإيمان «باب أمور الإيمان»، وأخرجه الإمام مسلم كتاب الإيمان «باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها».**

فجميع شعب وصفات الإيمان نحن نحتاج إلى معرفتها وتعلمها، وكيف نتخلق بها ونحيا على نشرها، وقال النبي ﷺ معلما لنا الإيمان: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**»[2]،

---

(١) رواه الإمام البخاري كتاب الإيمان «باب أمور الإيمان» ح٨، ورواه الإمام مسلم كتاب الإيمان «باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها» واللفظ لمسلم.

(٢) متفق عليه.

أخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان تحت ترجمة جليلة «باب حب الرسول ﷺ من الإيمان» وقال النبي ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[1]، فأين تذهب بنا أهوائنا؟، وكيف هى رغباتنا؟ تابعة أم متبوعة، موصولة بالنبي ﷺ أم مقطوعة؟

فلا يكمل الإيمان ويحصل تمامه، وتأتي في حياتنا الإستقامة، حتى يكون مرادنا ورغباتنا ما جاء به الرسول ﷺ ، وقال صلوات ربي وتسليماته عليه: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2]، وقد أخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان «باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وأخرجه مسلم كتاب الإيمان «باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير» . ومن تتبع على هذا المعنى أحاديث النبي ﷺ المعبرة عن صور الإيمان المختلفة، استخلص من مجموعها حقائق الإيمان، الذي هو مطلوب الله ـ عز وجل ـ منا، وهو الأساس والأصل لزوال كل المنكرات . .

وطريقة تحقق هذا الإيمان فينا، يكون ببذل الأنفس والأموال في سبيل الله، والتضحية بالشهوات واللذات، لأن الدنيا ليست مكان قضاء هذه الشهوات، فإذا بذلنا أنفسنا وأموالنا في سبيل الله، عند ذلك يهب الله لنا حقيقة الإيمان، وقد بين الله ـ عز وجل ـ علامة الإيمان في القرآن العظيم فقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[3] .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين.

(٢) متفق عليه.

(٣) سورة الحجرات الآية: ١٥.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[1]، أي الذين استوى في الإيمان ظاهرهم وباطنهم، فوصف الله ـ عز وجل ـ المؤمنين في هذه الآيات بالخوف منه، والوَجَل عند ذكره، ولكل حق حقيقة، فحتى تتحقق فينا حقيقة الإيمان، علينا أن نقرأ الآيات الزكيَّات، ونلوذ بالصلاة، وننفق في سبيل الله، حتى توجل القلوب، ويزيد الإيمان وبعدها يأتي التوكل..

أما الكلام عن العرض فقط مثل السرقة، وانكار العرض فقط والاكتفاء بذلك، فهذا خطأ في العلاج وفي المعالج، ومع الكلام عن السرقة وحدها لا ينتهي السارقون، أما لو تكلمنا في إشاعة الإيمان، فكمال الإيمان يعصم السارق من السرقة، والزاني من الزنى..

وفي نشرنا للإيمان فقد عالجنا أصل الداء الذي به ترتفع كل المنكرات في الأمة، لذلك أهل الدعوة لا يتكلمون في أمراض الأمة، لأنهم يخافون أن يكونوا وعموم المسلمين سببًا في هذه الأمراض، بسبب التقصير والضعف، في بذل الجهد والتضحية لإشاعة وزيادة هذا الإيمان، ولا يذكرون المثالب والمعايب بل يذكرون الكمال، ومع ذكرهم لهذا الكمال، فالجميع يشعرون بالنقص، دون أن يتوجه الكلام إلى أحد بخصوصه..

المؤمن الضعيف في إيمانه، عنده إيمان وعنده معصية، لكن إيمانه لا يقوى على أن يُجنِّبه المعاصي ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] فالحل هو في تقوية هذا الإيمان، وزيادة منسوبه في القلوب الذي هو الأساس في الامتثال والتطبيق، وعدم الوقوع في المخالفات والمنكرات...

---

(١) سورة التوبة الآيات: (٢، ٣، ٤).　　(٢) سورة البقرة آية ٩٣.

شجرة التفاح إذا اعتنى بهـا، يكون لها الثمار والأوراق والرائحة، والعكس صـحيح إذا أهملـت، فلا ثمـار لها ولا أوراق، بل خـشب عار، فإذا ما أردنا لها أن تثمر، نبدأ في سقيها من الجذر، مع أنه غير ظاهر، ولا نلقى بالماء على الأغصان، أو الأوراق الذابلة.

كذلك المسلـم مثل شجـرة التفاح، إذا مـا سقط في المخـالفات، وتلوث بالمنكرات، وذبلت ثمـرة الإيمان في قلبه، وعصت جـوارحه، نقوم بالاجتهاد على إحياء قلبه، مع أنه غير ظاهر، بزيادة الإيمان فيه، رغم أن جوارحه هي التي فيها المخالفة، ولكن انكفافها عن المنكرات، هو بحياة الإيمان في هذا القلب..

شجـرة التفاح بعـد سقيـها، وظهور ثمـرتها، يصبح الجـميع من حولهـا يهتمـون بها، فيـجعلون من حـولها السيـاج الذي يحميـها، ويمنعون الأطفال عنها، ويحرسونها بالليل والنهار.

كذلك المسلم بعد تغيره من المعصية إلى الإيمان، يكون محبوبا ممن حـوله بعد تغـيـره، ويحاط بالعناية والـرعاية، فكل واحـد يحب أن يخدمه وينفعه..

أما لو تركت شجرة التفاح على حالها السابق، بغير سقي وعناية، وهي ذابلة الأغصان والأشجار، وأتى رجل يقطعها ويقول هذا خشب للوقـود، ثم يلقي به في الفـرن والنار، فهـذا يكون من غبـاوته وقله نظره..

كذلك وضع المسلم، الذي ينظر إليه في حال مخالفته، ويقول هذا يذهب إلى النار، ويُلقى فيهـا، هذا وقود النار، فهذا أيضا من ضـيقه وقلة إدراكه، لأن ذلك ليس صـحيحـا، فالمسلم شجـرة تفاح، وليس شجرة زقوم تخرج في أصل الجحيم وطلعها كأنه رؤوس الشياطين..

فالمسلم كلمة التقوى على لسانه، وحقيقة التوحيد في فؤاده وجذر الإيمان في قلبه، فإذا ما سُقي أثمر ونفع بخلاف غيره..

إذا ظهرت القروح والدمامل على الجلد في الساعد، فمعها تبرز الآلام والأحزان، حتى إذا بلغت الغاية، وتجاوزت النهاية، سارع صاحبها إلى المعالج ليسعفه..

فلو كانت نظرته قاصرة، وخبرته ضئيلة، انخدع بظاهرها، وتأثر بحالها، وقام لينزعها، فيصرخ المريض منه، وينفر عنه، ويدفعه من أمامه، وهو يحاول أن يزيلها، وما زال المعالج به حتى يُقنعه، أنه لن يتمكن من الشفاء، إلا بقطع تلك الدمامل، وإزاله هذه القروح وإن أصابته مع ذلك الآلام، وإن تشوه مع هذا ساعده، وإن سالت منه الدماء، فلابد من هذا لمقصد الشفاء..

ويُزعن المريض، ويبدأ المعالج مع هذه القروح بمشرطه، والمريض يصرخ ويتألم ويعاني، وهو متواصل في عمله، حتى فرغ مما يظن أنه قد نجح فيه، ألا وهو علاج هذه الدمامل والقروح وإزالتها، مع تعب المريض وصياحه وتألمه وهنا يخبره المعالج بأن جروحه قد انتهت، ومعاناته قد ولت، وما هي إلا ثلاثة أيام وتجف هذه الجراحات، التي أحدثها في ذراعه لعلاجها، ولإخراج ما فيها من الصديد والأذى..

ويشكره المريض ويمضي، وهو يُأمِّل نفسه بأن قد انتهى من ألمه، وزالت عنه المعاناه، ويمضي يوم واثنان وثلاثة، والجروح لا تجف بل تمتلئ صديدا، والمعاناة لا تنتهي بل يلتهب عليه ذراعه مرة أخرى، لتكوّن نفس هذه الدمامل والقروح، أكبر مما كانت، بل الأسوأ من ذلك، أنها قد بدأت تنتشر في صدره..

ويسرع المريض ليسأل ماذا يفعل، فيخبره أهل الخبرة، أنه لابد له من أن يذهب إلى الطبيب المتخصص، ليعرض حالته عليه، فعندما ينظر الطبيب إلى ذراعه وما صنع المشرط فيها، من جروح وتقطيع وتشويه، يقول له متعجبا ومستغربا: من صنع بك ذلك؟.

قال له المريض معالج كان يعالج ذراعي، فقال الطبيب هذا جزار وليس معالجا، لقد ارتكب معك خطأ كبيرا!..

قال له المريض: وكيف ذلك؟..

فقال الطبيب: هذا المعالج نظر إلى الدمامل على أنها أصل الداء وبدأ في تقطيعها بالمشرط، وليست كذلك بل هي عرض..

هي ليست أصل المرض بل أثر من آثاره، وعلامة على وجوده، أما أصل المرض وحقيقة الداء، ففي بطنك ومعدتك، وليس في ذراعك، ويكفيك أن تتناول هذا الدواء، عن طريق الفم، فتبرأ جراحك، وتجف هذه القروح في ذراعك، دون أن نلمسها أو نقترب منها، ودون أن تتألم أو تصيح، كما فعلت في المرة الأولى..

وعندما يأخذ المريض الدواء من الطبيب المتخصص، ويشرع في تناوله عن طريق الفم، دون ملامسة جروحه، أو الاقتراب منها، يفاجأ بأن ما قاله الطبيب صحيح، وأن ذراعه قد بدأت جروحه تجف فيها وتبرأ، وما ظهر منها في صدره يجف، وإذا كل ما قاله له الطبيب صحيح، من أن كل ما حدث معه هو خطأ في المعالج والعلاج، لأن المعالج نظر إلى آثار المرض ولم ينظر إلى سببه وأصله، فعالج العرض ولم يعالج أصل الداء..

كذلك الناظر في كل المنكرات في أمة النبي ﷺ، والقائم لإزالتها فقط دون الالتفات إلى أساسها وأصلها، إنما هو يعالج العرض

يعالج أصل الداء، حيث إن أصل الداء في كل هذه المنكرات هو نقص إيمان أصحابها..

... يرغب في تغييرها، لابد له أن يتعامل مع هذا الإيمان ... فإذا ما تم ذلك له، قام هذا الإيمان ليحمل أقدام صاحبه، ... طريق الامتثال والتطبيق، وتعظيم الأوامر بدلا من كسرها، ... المخالفة بدلا من الوقوع فيها، فترتفع المنكرات، وتتوقف الفواحش والمخالفات..

عندما تتبع الأمة طبيبها ﷺ، الذي أرشدها في حديثه عن ... المفهوم إلى أن نقص هذا الإيمان، هو المؤثر في وجود هذه ... أو زوالها، فلو كان هذا الإيمان ضعيفا هزيلا، فإن المنكرات ... وتتوالى في الأمة، خاصها وعامها، قال ﷺ: **«لا يزني ... وهو يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو يسرق وهو مؤمن»**[1].

... كامل الإيمان، فالعبرة إذا في التعامل مع المنكرات في الأمة، ... زنى وسرقة وغير ذلك، أن نعالج أصل الداء وهو ضعف الإيمان، ... نتكلم عليها فقط، فإذا ما قوى الإيمان اختفى العرض، وزالت ... المنكرات، وصلحت الأوقات، دون مصادمات ومواجهات وألم وجراحات..

فالله تعالى رحيم ويحب من عباده التخلق بالرحمة، وهناك ... لا يحب الله - تعالى - أن يتشبه بها عباده، كالكبرياء والعزة، ... الإنسان قد يغضب على المسلمين ويقسو عليهم غضبا لله - تعالى -، ... لا أحد يصبر على الخلق ويحب لهم الرجوع المرة بعد المرة مثل الله - عز وجل - فإذا كنت تغضب لعصيان العبد فانظر إلى ربك - عز وجل - كم يعطي من الفرص حتى يرجع ويعود إلى الإيمان..

---

(1) سبق تخريجه.

وهو ما يقوم به أهل الدعوة، في تحركهم على العصاة والشاردين، من أمة النبي ﷺ، ينشرون فيهم الإيمان والدين، حتى يُقبلوا على الطاعات، ويجتنبوا الفواحش والمنكرات، بالسهولة والرحمة واللين، فإذا ما جاء الإيمان سهل عليهم تغيير منكراتهم ونهيهم عن غيهم، باليد تارة بأخذه من بيئة المعاصي إلى المساجد وبيئات الإيمان والتقوى، وباللسان تارة بإشاعة الإيمان والوعظ والتذكير، وبالقلب تارة عند العجز وعدم القدرة عن المرتبة الأولى أو الثانية..

نسأل المولى - عز وجل - أن يطهر أمة حبيبه ﷺ، ويمن عليها بالإيمان الكامل، ويُزينه في قلوبها، ويُكرِّه إليها الكفر والفسوق والعصيان، ويجعلها من الراشدين. آمين..

الفرق بين الداعى المتطوع والمحتسب صاحب الولايات

نحن لو تفحصنا دعوى هذا القائل، بأن أهل الدعوة لا يبالون بتغيير المنكر، ويعطلون الآيات والأحاديث الواردة في الكتاب والسنة بخصوصه، وسرنا مع اتهامه، وتوقفنا أمام حروفه وكلامه..

فنقول له: صاحبنا أقوال الأئمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على خلاف قولك، فهم لم يتهموا المتطوعين، بل فرقوا بينهم وبين أهل الولايات والحسبة!..

حيث إن أهل الدعوة متطوعون دعاة، فالأمر معهم سيما مع عدم القدرة والتعذر، ووجود الكراهة منهم في القلب للمنكر، لا ذم فيه ولا مؤاخذة بخلاف من انتصب لهذه الولاية، ولاية الحسبة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

فقيام الداعي المتطوع بها من نوافل عمله، الذي يجوز له أن يتشاغل عنه بغيره أو تأخيره عند عدم القدرة أو لتعذر التغيير، أو للقيام لما هو أوجب وأولى منه من مصالح الدين، والتي يتحقق بقيامها نشر المعروف وزوال المنكر مآلا..

في حين أنه لو قام لإنكار المنكر حالا لتعطلت هذه المصالح ولما زال المنكر ولأن تغيير المنكر فرض كفاية في حقه غير متعين، فإذا قامت به مجموعة سقط عن الآخرين، بخلاف فرض العين، الذي لا تغني عين عن عين في أدائه..

كما أن الداعي ليس منصوبا كمتطوع للاستعداء إليه فيما يجب إنكاره، وليس له بحث ولا فحص، عما ترك من المعروف الظاهر ليقيمه، أو المنكر الظاهر فيزيله، إذ كل ذلك واجب على أهل الولايات، مطلوب منهم بالطلب الأول، وإليك قول الإمام الفقيه الأصولي النَّظار العلامة الماوردي صاحب المرجع الذي لم يصنف مثله

في بابه، وهو كتابه «الأحكـام السلطانية» فقد قال رحـمه الله تعالى:

«الحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وقال الله تعـالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1]».

وهذا وإن صح من كل مـسلم فالفـرق بين المتطوع والمحتـسب من تسعة أوجه.

أحدها: أن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية وفرضه على غيره داخل في فروض الكفاية.

والثاني: أن قيـام المحتسب به من حقوق تصـرفه الذي لا يجوز أن يتشاغل عنه، وقـيام المتطوع به من نوافل عمله الذي يجـوز أن يتشاغل عنه بغيره.

والثالـث: أنـه منصوب للأستـعداء إليـه فيمـا يجب إنكاره، وليس المتطوع منصوبا للاستعداء.

الرابع: أن على المحـتسب إجـابة من اسـتعـداه وليس على المتطوع إجابته.

والخـامس: أن عليـه أن يبـحث عن المنكـرات الظاهرة ليـصل إلى إنكارها ويفـحص عما ترك من المعـروف الظاهر ليأمر بإقامـته وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

والسـادس: أن له أن يتـخـذ على إنكـاره أعـوانا لأنه عـمل هو له منصوب وإليـه مندوب ليكون له أقهر وعليه أقـدر وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعوانا.

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

والسابع: أن له أن يُعزر في المنكرات الظاهرة لا يتجاوز إلى الحدود وليس للمتطوع أن يعزر على منكر.

والثامن: أن له أن يرتزق على حسبته من بيت المال ولا يجوز للمتطوع أن يرتزق على إنكار منكر.

والتاسع: أن له اجتهاد رأيه فيما تعلق بالعرف دون الشرع كالمقاعد في الأسواق وإخراج الأجنحة فيه فيقر وينكر من ذلك ما أداه اجتهاده إليه وليس هذا للمتطوع، فيكون الفرق بين وإلى الحسبة وإن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وبين غيره من المتطوعين وإن جاز أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من هذه الوجوه التسعة» انتهى كلام الإمام الماوردي رحمه الله تعالى.

فما رأيك الآن يا لائم الدعاة المتطوعين على تشاغلهم بزعمك عن إنكار المنكر، أأصبت أم جانبك الصواب، وهل ترى ما نرى من البون الشاسع البعيد، بين كلامك وكلام أئمة الدين ﷺ أجمعين، حيث قرروا أن الدعاة المتطوعين وظيفتهم أخص من وظيفة المحتسبين، وأن الأمر في ذلك على تفصيل، وأنت قد أغفلت هذا التفصيل..

هل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر داخل فى الدعوة أم لا؟

الدعوة إلى الله - تعالى - من ألزم واجبات الدين، وهي واجبة على مجموع المسلمين، كل بحسبه، وعلى وفق قدرته، فالأمة كلها مخاطبة بوجوب الدعوة مع رسولها ﷺ، فإذا قام بهذا الواجب طائفة سقط عن الباقين، وإذا لم يقم به أحد أثموا جميعا وهو المعروف بفرض الكفاية، وكما أمر الله - تعالى - أتباع النبي ﷺ بالدعوة إلى الله، أمرهم عز وجل بأن يأمروا بكل معروف، وأن ينهوا عن كل منكر كما أمر بذلك رسولهم ﷺ..

ولقد كانت دعوة هذه الأمة الخاتمة إلى الله تعالى بعد رسولها متضمنة الأمر بكل المعروفات، والنهي عن كل المنكرات، حيث إن الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يشمل الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر، وهو موزع على مجموع الأمة، فما قام به هذا فقد أسقط به العذر عن ذاك، وتنوع المأمورات والواجبات يُقسِّمها على عموم المكلفين، فكل فرد من الأمة يجب عليه أن يقوم من هذه الدعوة بما يقدر عليه، إذا لم يقم به غيره، والدعوة في نفسها أمر بمعروف ونهي عن منكر، أنا إذا دعوتك إلى الصلاة، فقد أمرتك بمعروف فعلها في نفس اللحظة، ونهيتك عن منكر تركها في ذات الوقت..

وهؤلاء الذين عابوا على أهل الدعوة أنهم لا ينهون عن المنكر، وعطَّلوا آيات وأحاديث النهي عن المنكر الواردة في الكتاب والسنة، لم يلحظوا شمول الدعوة للمعروفات ونهيها في نفسها عن المنكرات، ولو تدبروا كلام أئمة الإسلام في هذا، ما طعنوا في المصلحين، الدعاة المتطوعين، ولعلموا أنهم فرقوا ما لا يفترق، وقسَّموا ما لا يقبل التقسيم..

وليت ما قرره الإمام ابن تيمية في ذلك في مجموع الفتاوى ج١٥ ص١٦٠ حيث قال رحمه الله تعالى: «إذا تبين ذلك، فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله. وتتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهي عنه، وإخبارهم بما أخبر به. إذ الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

وقد وصف أمته بذلك في غير موضع، كما وصفه بذلك فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2] الآية وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره. فما قام به غيره سقط عنه. وما عجز لم يطالب به.

---

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٢) سورة التوبة آية: ٧١.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

«وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرى وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتضي لما دعى إليه، وذلك هو الأمر به، إذا الأمر هو طلب الفعل المأمور به، واستدعاء له ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله وسبيله تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر.

وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين، وجوب فرض الكفاية، لا وجوب فرض الأعيان، كالصلوات الخمس، بل كوجوب الجهاد» انتهى كلام ابن تيمية.

أقول: فأهل الدعوة لم يعطلوا آيات وأحاديث النهي عن المنكر، بل هم من أكثر الناس إعمالا لها، فما من أحد من الأمة، يحرص على الآيات والأحاديث في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر منهم، تلاوة واستحضارًا، وتطبيقا وعلما، ومن هذه الآيات ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[1] فهم الليل والنهار يحثون الأمة على القيام لتطبيق هذه الآية،

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

وإعمال مقتضاها، كذلك الآية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

هم في أغلبهم أصحابها، والقائمون في الأمة بها ولها، يتلونها على الأسماع، ويطبقونها في شتى البقاع، بأنفسهم وأموالهم سعيا وراء الفلاح، ونشرا للخير في أمة النبي ﷺ، ودعوتهم لهذا الخير هي متضمنة في نفسها، للأمر بالمعروف وللنهي عن المنكر..

كما قرر ذلك الإمام ابن تيمية في النص السابق وذلك عند قوله: «إذا تبين ذلك، فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهى عنه، واخبارهم بما أخبر به إذ الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر وقد وصف أمته بذلك في غير موضع، كما وصفه بذلك فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ انتهى.

أقول: أما بالنسبة للأحاديث، فما أكثر ما يستدلون بأحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طالبين من السامعين العمل بمقتضاها وتطبيقها، لئلا يقعوا في محذورها، وعقوبة تركها، كحديث: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**»[2].

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٤.

(٢) رواه الإمام البخاري ٢/ ٨٨٢ «باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه» ح(٢٣٦١)، ورواه الإمام الترمذي ٤/ ١٧٠ ح (٢١٧٣)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٧٠، ورواه الإمام ابن حبان ١/ ٥٣٣.

فهم يسيرون بأمثال هذه الأحاديث في الأمة، طلبا للقيام بأوامر الله - تعالى -، والدعوة إليها وإلى دينه، وعدم مخالفة هذه الأوامر حتى تسلم سفينة البشرية، وليأخذوا على أيدي الشاردين، والعصاة والحائرين، الذين يوشكون بمنكرهم ومخالفتهم، أن يخرقوا في قلبها خرقا، يؤدي إلى هلاكهم، وهلاك الصالحين الذين معهم، في سفينة الحياة الدنيا، وسفر الآخرة..

فكيف بعد ذلك يقال أنهم يعطلون النصوص الواردة في النهي عن المنكر، وواقعهم وعملهم بخلاف ذلك، بل هم الذين يطبقون هذه النصوص عملا، الداعين لها قولا، ولكنهم لهم حكمة في تطبيقها، والوصول إلى المقصود منها، وتحصيل مصالحها، وهم في هذا لا يخرجون، عما قرره الأئمة من أصول، في من تصدى لهذا الباب من العلم، ليكون صلاحه غالبا على إفساده، ولتؤدي هذه الشعيرة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفق المقاصد التي شرعها الله - تعالى - لها، وبينها رسوله ﷺ، وقررها أئمة الشرع والدين..

وانظر إلى الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وهو يؤكد في النص السابق أيضًا أن الدعوة في نفسها أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وأن الدعاء إلى الله تعالى دعاء إلى سبيله، فهو أمر بالدعوة إلى سبيله، حيث قال رحمه الله - تعالى -: **«وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتضى لما دعي إليه، وذلك هو الأمر به، إذا الأمر هو طلب الفعل المأمور به، واستدعاء له ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله وسبيله تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر»** انتهى.

أقـول: ومن المعلوم أن الداعي في كل دعوة يدعـو إلى المقصود وإلى الوسيلة إليـه، ومن هذا الوجه عمل أهل الدعـوة، في دعوتهم للخروج في سبيل الله، وتفريغ الأوقات لتـكميل الفضائل في أنفسهم وفي الغيـر، ودعوة الخلق إلى الحق، فدعوتهم إلى الخـروج دعوة إلى الوسـيلة، التي بها الوصـول إلى المقـصود المراد وهو الله ـ سـبحـانه وتعالى ـ. .

والله ـ عز وجل ـ قـد أمر النبي ﷺ تارة بالدعـوة إليه، وذلك بقوله ﴿**وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾[1] وتارة بالدعوة إلى الوسائل المؤدية للدعوة إليـه، وهو قـوله تعـالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[2] وهذا الأمر من الأمور المتعدية، فهو أمر له ﷺ ولأمته من بعده، فأمته مأمورة بالدعوة إلى الله تعالى، ومأمورة بالدعوة إلى الوسائل المؤدية إلى الـدعوة إليه عـز وجل، ومنها الخروج في سـبيل الله. .

وفي هذا يقـول الإمـام ابن تيـمـيـة ج١٥ ص١٦٢: «ومما يبين مـا ذكرناه: أنه سبـحانه يذكر أنه أمره بالدعـوة إلى الله تارة، وتارة بالدعوة إلى سبـيله، كما قـال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غـيره إلى أمر لابد فيما يدعو إليه من أمرين:

«أحدهما» المقصود المراد.

«والثـاني» الوسـيلة والطريق الموصل إلى المقـصود، فـلهذا يذكـر الدعـوة تارة إلى الله وتارة إلى سبـيله، فـإنه سبـحـانه هو المعبـود المراد المقصود بالدعوة.

---

(١) سورة الحج آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل آية: ١٢٥.

وقال رحمه الله ـ تعالى ـ أيضًا في مجموع الفتاوى ج١٥ ص١٦٠ مؤكدا ومقررا ما ذهب إليه، أن الدعوة إلى الله تعالى شاملة للأمر بكل ما أمر الله به، والنهي عن كل ما نهى الله عنه، وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر فقال رحمه الله: «والدعوة بالاسم الخاص لا تنافي الدعوة بالاسم العام، فالمؤمنون داخلون في الخطاب بـ (يأيها الناس)، وفي الخطاب بـ (يأيها الذين آمنوا)، فالدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به، والنهي عن كل ما نهى الله عنه، وهذا هو الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه، أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[1]. انتهى

أقول: وها هو الإمام في زاد المسير يقرر ويؤكد ـ رحمه الله ـ تعالى، على أن الآمر بالمعروف، في حال أمره، هو ناه عن المنكر في ذات الوقت، كما أن الأمر بالمعروف، لا ينفرد دون النهي عن المنكر، وعلى هذا فالداعي إلى الله تعالى، عند أمره بالمعروف حال دعوته، أمره هذا بالمعروف، لا ينفرد دون النهي عن المنكر، فالآمر بالمعروف هو ناه عن المنكر في نفس اللحظة..

(١) سورة الأعراف آية: ١٥٦، ١٥٧.

ورأيت كلامه رحمه الله في ذلك حيث قال:

«ولا يمتنع عطف النعوت على النعوت بحروف العطف والموصوف واحد فقد قال تعالى التائبون العابدون بالتوبة ثم قال الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فلم يقتضى دخول الواو وقوع خلاف بين الآمرين والناهين وقد قيل الآمر بالمعروف ناه عن المنكر في حال أمره وكان دخول الواو دلالة على الأمر بالمعروف لأن الأمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر كما ينفرد الحامدون بالحمد دون السائحين والسائحون بالسياحة دون الحامدين ويدل أيضًا على أن العرب تنسق النعت على النعت والمنعوت واحد كقول الشاعر يخاطب سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان:

يظن سعيد وابن عمرو بأنني ... إذا سامني ذلا أكون به أرضي

فنسق ابن عمرو على سعيد وهو سعيد» انتهى.

أقول: فالدعوة إلى الله - تعالى - هي سبيل إصلاح أعمالنا، وإذا صلحت أعمالنا أصلح الله - تعالى - بها أحوالنا، وقل الفساد بيننا، وهذه الأمة سيدة الأمم، فليس عليها فقط أن تؤمن وتعمل صالحًا، ولكن الله تعالى حمّلها مسئولية العالم، أن تعمل صالحًا وتتفكر لإصلاح العالم..

فالدعوة إلى الله تعالى أساس بقاء هذه الأمة، وإذا سعت البشرية الإنسانية في طرق الغواية، فهذه مسئولية الأمة أن ترشدها إلى الهداية، ومع الهداية تنصلح الأوقات وتقل المنكرات..

للآن ما جاء هذا الفكر في رؤسنا، نحن نريد أن تنزل رجال من السماء ليقوموا بهذا الجهد لنشر الهداية، ثم بعد ذلك نمشي معهم، ولكن كل الأنبياء بعثوا بمفردهم، ولم يكن معهم أحد..

فهناك ثلاثة أنواع لجهد الهداية:

أولها: جهد الصالحين وميـدانه: نفسي - صلاتي - زكاتي - حجي - صيامي.

وثانيهـا :جهد الأنبـياء عليهم الـسلام قبل بعـثة النبي ﷺ وهذا الجهد في قومهم خاصة وميدانه: أهلي - عشيرتي - قومي.

وثالثهـا: جهد خاتم الأنبـياء وسيـد المرسلين سيدنا محـمد ﷺ وميـدانه: عموم العـالمين وإلى قيام السـاعة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] ومحله للناس كـافة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[2] وأمته ﷺ مثله في ذلك التكـليف وتلك المسئولية ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[3]. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4].

(١) سورة الأنبياء آية: ١٠٧.

(٢) سورة سبأ آية: ٢٨.

(٣) سورة يوسف آية: ١٠٨.

(٤) سورة آل عمران آية: ١١٠.

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب وهو فرض كفاية

الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أكد فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن العظيم، وصادقت على ذلك ووضحته وبينته أحاديث رسوله الكريم ﷺ ، وقد أجمع الأئمة واتفقوا عل وجوبه عند الاستطاعة والقدرة وقيام شروطه وأركانه، فأما وجوبه بالكتاب فالآيات في ذلك كثيرة مشهورة منها قوله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المعلومة.

أما وجوبه بالسنة فالأحاديث كثيرة في ذلك منها: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[4].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**»[5].

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٤.
(٢) سورة المائدة الآية: ٧٨، ٧٩.
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

عن أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية حذيفة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع، قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة**»[1].

قال الإمام النووي معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكارا بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم وأدى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية، ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي»انتهى.

وعن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها: «**أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث**»[2].

والأدلة من السنة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ذلك كثيرة مشهورة معلومة، أما الإجماع فقد أجمعت الأمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(1) رواه الإمام مسلم ٣/ ١٤٨١ «باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك» ح (١٨٥٤)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٣٠٥، وأورده الإمام ابن عبدالبر في التمهيد ٤/ ٢٣٤.

(2) متفق عليه، رواه الإمام البخاري «باب قصة يأجوج ومأجوج ح (٣١٦٨)، ورواه الإمام مسلم ٤/ ٢٢٠٧ «باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج» ح (٢٨٨٠)، ورواه الإمام الترمذي ٤/ ٤٨٠ «باب ما جاء في خروج يأجوج ومأجوج» ح (٢١٨٧) ورواه الإمام ابن ماجه ٢/ ١٣٠٥، ورواه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٤٢٨.

قال شيخ الإسلام الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ج٢ ص٢٢:

«وأما قوله ﷺ فليغيره فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو أيضًا من النصيحة التي هي الدين ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة ولا يعتد بخلافهم كما قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: لا يكترث بخلافهم في هذا فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء ووجوبه بالشرع لا بالعقل خلافًا للمعتزلة وأما قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1]. فليس مخالفا لما ذكرناه لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] وإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول والله أعلم. ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف ثم إنه قد يتعين كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف قال العلماء ﭭ: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول وكما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ ومثل العلماء هذا بمن يرى إنسانا في الحمام أو غيره مكشوف بعض العورة ونحو ذلك والله أعلم.

(١) سورة المائدة الآية: ١٠٥.　　(٢) سورة الأنعام الآية: ١٦٤.

قال العلماء ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال ممتثلا ما يأمر به مجتنبا ما ينهي عنه بل عليه الأمر وإن كان مخلا بما يأمر به والنهي وإن كان متلبسا بما ينهي عنه فإنه يجب عليه شيئان أن يأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهاه فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات بل ذلك جائز لآحاد المسلمين.

قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذي يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية والله أعلم.

ثم إنه يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأن على أحد المذهبين كل مجتهد مصيب وهذا هو المختار عند كثيرين من المحققين أو أكثرهم وعلى المذهب الآخر المصيب واحد والمخطئ غير متعين لنا والإثم مرفوع عنه لكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع في خلاف آخر وذكر أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي في كتابه الأحكام السلطانية خلافًا بين العلماء في أن من قلده السلطان

الحسبة هل له أن يحمل الناس على مذهبه فيما اختلف فيه الفقهاء إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد أم لا يغير ما كان على مذهب غيره والأصح أنه لا يغير لما ذكرناه ولم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم ﷺ أجمعين ولا ينكر محتسب ولا غيره على غيره وكذلك قالوا ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصًا أو إجماعًا أو قياسًا جليا والله أعلم.

واعلم أن هذا الباب أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًا وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله - تعالى - بعقابه ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله - عز وجل - أن يعتني بهذا الباب فإن نفعه عظيم لاسيما وقد ذهب معظمه» انتهى كلام الإمام النووي.

قلت: وهذا الذي قرره الإمام النووي - رحمه الله تعالى - من عموم العقاب للصالح والطالح إذا عم الخبث، مثاله الأرض إذا لم تستصلح، وتركها من حولها، قائلا إنها ليست لي، فسرعان ما يظهر بها الشر، وينتقل من هذه الأرض التي لم تستصلح وتنظف إلى الأخرى المزروعة، فيبدأ الفساد بها، ولو قال: أنا اهتمت ببستاني وما قصرت، قيل له هذه الأرض بجوارك أنت كنت تراها مع سوئها، والآن ينالك من فسادها وشرها..

---

(١) سورة النور الآية: ٦٣.

أقـــول: وهذا الإمـام الغزالي في الإحـياء، ينص على وجـوبه بالكتاب والسنة والإجـماع، وأنه فرض كفـاية إذا قامت به مجمـوعة سـقط عن البـاقين فقـال ـ رحمـه الله تعالى ـ : «**يدل على ذلـك بعد إجمـاع الأمة عليـه وإشارات العـقول السـليمة إلـيه الآيات والأخـبار والآثار. أما الآيات: فقـوله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ففي الآيـة بيان الإيجـاب فإن قولـه ـ تعالى ـ ﴿ولتكن﴾ أمـر وظاهر الأمر الإيجاب وفيـها بيـان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال ﴿وأولئك هم المفلحـون﴾ وفيها بيان أنه فـرض كـفـاية لا فـرض عين وأنه إذا قـام بـه أمـة سـقط الفـرض عن الآخرين إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال ﴿ولتكن منكم أمـة﴾ فإذا مـهمـا قام به واحـد أو جمـاعة سـقط الحرج عن الآخـرين واختص الفلاح بالقـائمين به المباشرين وإن تقاعد عنه الخلق أجـمعون عمَّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة**» انتهى.

وقد قرر الإمام ابن تيمية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه فرض كفاية، أي إن فعل البعض كاف في الإتيان به، وإذا لم يقم به أحد أثم الجـميع كل بحسب قـدرته فقال ـ رحمـه الله تعالى ـ في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص١٢٥ :

«والله تعالى كـما أخبر بأنهـا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فـقد أوجب ذلك على الكفـاية منها بقـوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

وإذا أخبـر بوقوع الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر منهـا لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الآمر ونهي الناهي منها إلى كل مكلف في العالم، إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة: فكيف يشـترط فيما هو من توابعها؟ بل الشرط أن يتـمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم. ثم إذا فرطوا فلم يسعـوا في وصوله إليهم مع قيام فـاعله بما يجب عليه: كان

التفريط منهم لا منه.

وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية، كما دل عليه القرآن، ولَمَّا كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضًا كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته، إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته، كما قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

«ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة؛ لأن الله ـ تعالى ـ أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر، فلو اتفقوا على إباحة محرم أو إسقاط واجب، أو تحريم حلال أو إخبار عن الله ـ تعالى ـ أو خلقه بباطل؛ لكانوا متصفين بالأمر بمنكر والنهي عن معروف، من الكلم الطيب والعمل الصالح، بل الآية تقتضي أن ما لم تأمر به الأمة فليس من المعروف، وما لم تنه عنه فليس من المنكر. وإذا كانت آمرة بكل معروف ناهية عن كل منكر، فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر أو تنهى كلها عن معروف»انتهى.

وقال الإمام القرطبي مبينا حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تفسيره ج٢ ص١٢٨٩: وفي التنزيل: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾[2].

ثم قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3].

فجعل ـ تعالى ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه»انتهى.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة التوبة الآية: ٦٧.

(٣) سورة التوبة الآية: ٧١.

قلت: وبسبب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورأسهما وهو الدعـوة إلى الإسلام، جـاء الضعف على اليـقين على موعـودات الله فالأعـمال تثقل على الإنسان، أعـمال الإيمان والطاعة وأولهـا الصلاة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1] فعندما لا يـكون الإيمان موجودا كاملا لا يستطيع الإنسان أن يصبر على الدين إلا قليلا، والله ما وعدنا النصر مع نصف الدين أو ثلثه، بل وعدنا النصرة على الدين الكامل.

قال الإمام السفاريني في شرح منظومـة الآداب مبينا مقاصد الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر والدوافع الحاملة عليـه فقال ـ رحـمه الله ـ ج١ (تنبـيهـات): (الأول): اعلم أن الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر تارة يُحـمل عليـه رجـاء ثوابه وتارة خـوف العـقـاب في تركـه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يُحمل عليه إجـلال الله وإعظامه ومحبته وأنه أهل أن يطاع فـلا يُعـصى، ويُذكر فـلا يُنسى، ويُشكـر فلا يُكفـر، وأن يُفتدى من انتـهاك محارمه بالنفوس والأموال كـما قال بعض السلف: وددت أن الخلق كلهم أطاعـوا الله وأن لحمي قُـرض بالمقاريض وتـقدَّم فمـن لحظ هذا المقام، هان عليـه ما يلقى من الآلام، وربما دعـا لمن آذاه، لكون ذلك في الله، كمـا [دعا النبي ﷺ لما ضربه قومه فـجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفـر لقومي فإنهم لا يعلمون»][2] انتـهى كلام الإمام السفاريني.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٥.

(٢) رواه الإمام البخاري ٣/ ١٢٨٢ ح (٣٢٩٠) ورواه الإمام مسلم ٣/ ١٤١٧ «باب غزوة أحد» ح (١٧٩٢)، ورواه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٨٠.

قلت: فهذه الدوافع التي تحرك القائمين لهذه الشعيرة، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا تراها لائحة وواضحة في عمل أهل الدعوة، في تحركهم على أمة النبي ﷺ نصيحة للمؤمنين، ورحمة بهم طلبا لتوبتهم وإنابتهم، ورجاء نفعهم وفوزهم وفلاحهم، ونجاتهم من غضب الله تعالى والتعرض لعذابه، وعقوبته في الدنيا والآخرة وهو ما قرره العلامة السفاريني في النص السابق عند قوله رحمه الله تعالى: «**اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة**» فكيف بعد ذلك يقال عنهم، أنهم لا ينهون عن المنكر، ودوافعهم ومقاصدهم في تحركهم وعملهم، هي نفس دوافع القائمين لهذه الشعيرة، من النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم، ورجاء إنقاذهم من التعرض لغضب الله وعقوبته، وإذا كان الحامل والدافع للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، هي نفسها المحامل والمقاصد التي يتحرك بها أهل الدعوة، في جهدهم على أمة النبي ﷺ، فكيف بعد ذلك يكون الاتهام بترك النهي عن المنكر، وهجر هذه الشعيرة، والمقاصد بين عمل أهل الدعوة، والقائمين لهذه الشعيرة، في الحالين واحدة، كذلك أهل الدعوة في أغلب كلامهم مع الناس، إنما الحامل فيه هو إجلال المولى - عز وجل -، وتعظيمه ومحبته، والتأكيد على ترسيخ هذه المحبة، والإعظام والإكبار في قلوبهم وقلوب الناس، فهم يتكلمون عن قدرة الله - تعالى -، وكيف استخراج اليقين الفاسد على قدرة المخلوق، وإدخال اليقين الصحيح على قدرة الخالق - سبحانه وتعالى -.

يتكنمون عن حقيقة التصديق بأنه لا فاعل ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا خالق إلا هو - سبحانه -، ومن أجل ذلك، لا مطلوب ولا معبود، ولا محبوب ولا مقصود، في كل أنواع العبادة إلا هو وحده - سبحانه وتعالى -، فالأستغاثة به، والتوكل عليه، والدعاء له، والخوف منه، والرجاء فيه، والقصد إليه، والأنس به، إلى آخر كلامهم في هذه المعاني..

فدوافعهم في إجلال الله - تعالى -، وتعظيمه في دعوتهم وكلامهم، معلوم مشاهد، وهي نفس الدوافع التي قررها الإمام السفاريني للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بقوله «**وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته وأنه أهل أن يطاع فلا يعص ويذكر فلا ينسى ويُشكر فلا يُكفر**».

فهل ترى بين الدافعين في الحالين اختلافًا، وهل تشعر ببون ومسافة، بين تعظيم الله - تعالى - وإجلاله، القائم به أهل الدعوة في دعوتهم، وبين إجلال الله وإعظامه عند الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وإن كانت الدوافع في الحالين سواء فلم الهمز واللمز؟..

ورمى البُرآء بالعظائم، أنهم لا يبالون بتغيير المنكر ومقاصده، ولا يعدونه من واجبات الإسلام، ويغفلون عن هذه الشعيرة، رغم ما فيها من مصالح..

وهل ترى أن مصالح تغيير المنكر ودوافعه محققة مع عمل أهل الدعوة، أم أن مصالحه ضائعة غائبة؟، وهل المنكر يتغير معهم نتيجة نصحهم وشفقتهم، وحرصهم على الأمة، وإجلالهم وتعظيمهم لله تعالى أمام الناس؟، أم أن المنكرات تشيع وتتزايد معهم، وهل يتحول العصاة بعملهم، وتوفيق الله تعالى لهم، من المنكرات إلى الطاعات؟، أم أن هذا من الأكاذيب والافتراءات!

نسأل الله - تعالى - أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه فلا يلتبس علينا فنضل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أقول: وبعد أن تبين لنا حُكم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من كلام أئمة الإسلام، وفقهاء الأمة، ها نحن نشرع في بيان حدودهما، **وفقا لتعريفات العلماء ففي التعريفات ج١ ص٥٤:**

«الأمر بالمعروف الإرشاد إلى المراشد المنجية والنهي عن المنكر الزجر عما لا يلائم في الشريعة وقيل الأمر بالمعروف الدلالة على الخير والنهي عن المنكر المنع عن الشر وقيل الأمر بالمعروف أمر بما يوافق الكتاب والسنة والنهي عن المنكر نهي عما تميل إليه النفس والشهوة وقيل الأمر بالمعروف إشارة إلى ما يرضي الله - تعالى - من أفعال العباد وأقواله والنهي عن المنكر تقبيح ما تنفر عنه الشريعة والعفة وهو ما لا يجوز في دين الله تعالى» انتهى.

فالمعروف ما عَرفه المؤمنون من طاعة الله وسعوا إليه، والمنكر ما أنكره المولى عز وجل ورآه المؤمنون مذموما قبيحا في فعله والوقوع فيه، **قال الإمام الطبري في تفسيره ج٤ ص٤٥:**

«وإنما سميت طاعة الله معروفا لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر ما أنكره الله ورأوه قبيحا فعله ولذلك سميت معصية الله منكرا لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها» انتهى.

فالمعروف كل محبوب مُتقرب به إلى الله - عز وجل -، والمنكر كل مكروه مُتباعد به عن طاعته، **قال الإمام ابن تيمية في تعريفهما ج١٥ ص٣٤٨: «فإذا عرف هذا فاسم «المنكر» يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه وهو المبغض واسم «المعروف» يعم كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به، فحيث أفردا بالذكر فإنهما يعمان كل محبوب في الدين ومكروه».**

وقال في لسان العرب: «التّنكُّر: التغير زاد التهذيب: عن حال تسُرُّك إلى حال تكرهها منه. والنَّكير: اسم الإنكار الذي معناه التغيير. وفي التنزيل العزيز: فكيف كأن نكيري أي إنكاري وقد نكَّره فتنكر أي غيَّره فتغير إلى مجهول. والنكَّير والإنكار تغيير المنكر. والنكرة: ما يخرج من الحُولاء والخراج من دم أو قيح كالصديد وكذلك من الزَّحير»انتهى.

قلت: فكل هذه المعاني السابقة،تحيط بحدود هذه الشعيرة، وهي من مقاصدها، فأعمال الدعوة إن تضمنت نشر هذه المعاني والمقاصد، كانت الدعوة في ذاتها، إحياءً لهذه الشعيرة، وتزكية وتعضيدا لها، لا تعطيلاً وإهمالاً وتركًا، كما ادعى ذلك المدعون على الدعاة، الباذلين من أنفسهم وأموالهم وأوقاتهم وجهودهم لنشر هذه المعاني.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من الداعين إلى المراشد المنجية، الزاجرين عما لا يلائم الشريعة، الدالين على الخير، المانعين من الشر، إنه ولي ذلك والموفق إليه آمين.

مراتب إنكار المُنكر

وبعد أن تقرر لنا من كلام أئمة الإسلام، ونصوص السنة والقرآن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنهما من آكد الواجبات في الدين، ومن أعظم شعائر المسلمين، نبدأ في بيان المراتب التي قسم بها العلماء مراحل إنكار المنكر، بداية من اليد عند القدرة والاستطاعة، فإن لم يستطع انتقل إلى المرتبة الثانية، وهي الإنكار قولا باللسان، فإن لم يستطع ذلك فهو على المرتبة الثالثة، وهي القلب، وقد بين الإمام القرافي في الفروق، أنه قد يعجز عن الإنكار، أعظم الناس إيمانا، وعدم قدرته وعجزه وفق هذا الحال، لا ينافي تعظيمه لله ـ تعالى ـ وقوة إيمانه، وأكد ـ رحمه الله تعالى ـ أنه لا يلزم من العجز عن القربه نقص الإيمان، في كل الأحوال، فقال ـ رحمه الله ـ في الفروق ج٤: **«مراتب الإنكار ثلاثة أقواها أن يغيره بيده، وهو واجب عينا مع القدرة فإن لم يقدر على ذلك انتقل للتغيير بالقول، وهي المرتبة الثانية وليكن القول برفق لقوله عليه السلام: «من أمر مسلما بمعروف فليكن أمره كذلك»**[١] قال الله عز وجل: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾[٢] وقال عز وجل: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٣].

فإن عجز عن القول انتقل للمرتبة الثالثة، وهي الإنكار بالقلب وهي أضعفها قال رسول الله ﷺ: **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه**[٤] **وليس وراء ذلك شيء من الإيمان»، ويروي «وذلك أضعف الإيمان»**[٤] **خرجه أبو داود، وفي الصحيح نحوه.**

---

(١) رواه الإمام الديلمي في مسند الفردوس ٣/ ٥٨٥.

(٢) سورة طه الآية: ٤٤. (٣) سورة العنكبوت الآية: ٤٦.

(٤) سبق تخريجه.

(سؤال) قد نجد أعظم الناس إيمانا يعجز عن الإنكار، وعجزه لا ينافي تعظيمه لله - تعالى - وقوة الإيمان، لأن الشرع منعهُ أو أسقطهُ عنه بسبب عجزه عن الإنكار، لكونه يؤدي لمفسدة أعظم..

أو نقول: لا يلزم من العجز عن القربة نقص الإيمان، فما معنى قوله عليه السلام: «وذلك أضعف الإيمان» جوابه المراد بالإيمان ها هنا الإيمان الفعلي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[1] أي صلاتكم لبيت المقدس والصلاة فعل، وقال عليه السلام: «الإيمان سبع وخمسون شعبة» وقيل: «بضع وسبعون أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» وهذه التجزئة إنما تصح في الأفعال، وقد سماها إيمانا، وأقوى الإيمان الفعلي إزالة اليد، لاستلزامه إزالة المفسدة على الفور، ثم القول، لأنه قد لا تقع معه الإزالة، وقد تقع، والإنكار القلبي لا يُورث إزالة البتة، أو يلاحظ عدم تأثيره في الإزالة، فيبقى الإيمان مطلقا) انتهى كلام الإمام القرافي.

وقد ذهب العلامة الأمير في حاشيته علي عبدالسلام أن معنى ضعف الإيمان دلالاته على غربة الإسلام واستيحاش الزمان فقال رحمه الله تعالى: «ومعنى ضعفه دلالته على غرابة الإسلام وعدم انتظامه، وإلا فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها» انتهى.

وفي شرح سنن ابن ماجه: «وقيل معناه أضعف زمن الإيمان إذ لو كان إيمان أهل زمانه قويًا لقدر على الإنكار الفعلي والقولي» انتهى.

أقول: وهذا قد يعني أن الإيمان في قلب المُنكر باق على حقيقته، من التصديق والقوة، أما المراد بضعفه فهو ضعف التأثير في زمان غربة الإسلام في آخر الزمان، عند عدم القدرة على الانكار باليد

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٤٣.

أو باللسان، كما في الحديث: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا**»[1] لا ضعفه في قلب المُنكِر، لأنه قد قام بالمفروض عليه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وضابط ضعف الإيمان وكماله في قلب الإنسان، هو قلة الطاعة أو كثرتها، فعلامة ضعف الإيمان قلة الطاعة، وعلامة قوة الإيمان في القلب كمال الطاعة، فدعوة الإيمان وكلام الإيمان لإنشاء هذه الطاعة، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[2].

فإحياء الطاعة في النفوس هي دعوة الأنبياء، والداعي إلى الله تعالى في دعوته لا ينسى نفسه، فالجهد الصحيح والدعوة الصحيحة، هي التي تكون مصحوبة بالطاعة، مع الأصول وأحكام الدين، عند ذلك يستفيد صاحبها..

أما إذا لم تكن هذه نياتنا، وكانت نياتنا إصلاح الناس، فالناس لا يقبلون مع ضعف الطاعة وصفات الإيمان فينا، وحينئذ يأتي في نفوسنا الغضب لعدم قبولهم، وهذا علامة الكبر..

فالإنسان إذا لم يتبع النبي ﷺ في هديه وجهده، وفي أقواله وأفعاله، فإنه سيموت في هذه الدنيا على غير محبة الله ـ تعالى ـ، وهدى رسوله ﷺ، ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[3] والنبي ﷺ خاتم النبيين ولن يأتي بعده نبي، فوجود نياته ومقاصده الآن بيننا رحمة على الإنسانية، وكل الأنبياء كانت دعوتهم تفهيم الناس، ودلالتهم على طريق السعادة والفوز في الآخرة..

---

(١) رواه الإمام مسلم كتاب الإيمان «باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا» ح٢٠٨، ورواه الإمام الترمذي كتاب الإيمان «باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا» ح٢٥٥٣ وقال حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود، ورواه الإمام ابن ماجه كتاب الفتن «باب بدأ الإسلام غريبا» ح٣٩٧٦.

(٢) سورة النساء الآية: ٤٦.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٣١.

فالنبي ﷺ أرسل رحمة للعالمين وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وليس بخاتم للرحمة، فالرحمة ممتدة إلى يوم القيامة بجهد أمته، وبإحياء أعمال النبوة..

فالله تعالى اصطفى هذه الأمة على بقية الأمم، واختارها لرسوله ﷺ، ولكن لماذا جعل الله هذه الأمة هي خير الأمم ولأي غرض؟ هل لأنها تتفكر لنفسها فقط؟ أو هل لأن كل فرد فيها فكره وجهده وهمه لأولاده فقط؟، لا بل اصطفاها وشرفها لأنها أُخرجت للناس كافة لمصلحة الإنسانية عامة، فإذا كان فكرها لنفسها فقط، فإنها بذلك تكون قد خالفت مقصد وجودها، وأساس بعثتها، وشرف وظيفتها، وهو قيادة البشرية كلها إلى الله ـ تعالى ـ، في كل زمان ومكان، وإلى قيام الساعة..

شرائط تغيير المنكر

الناظر في المنكرات لتغييرها، لابد له من أركان وشرائط يقيمها، علاوة على نظر سديد، واجتهاد لمعرفة المصالح الخفية، والمفاسد المستترة، والنتائج والثمرات المترتبة على أمره ونهيه، فإن كانت الثمرة المرجوة، في الأمر والنهي عظيمة، محمودة من الله تعالى ورسوله ﷺ وقواعد الشرع والدين، أقبل على ذلك ولم يتوقف أو يتردد وإلا فالتوقف أولى، وأن يتقدم الإنسان إلى موضع صدق، يُصدّق فيه من الله تعالى ورسوله ﷺ، أولى من أن يتقدم إلى موضع سخط من الله تعالى، يسخط عليه فيه ربه، ويعرض عنه فيه رسوله ﷺ، وهذا الإمام الغزالي رضي الله عنه يضيء لنا طرقا للهداية، تكون لنا سبيلاً وغاية، في بحثنا في الأوامر والنواهي..

فقد بين شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإحياء فقال رحمه الله تعالى ج٢ ص٣٢٠: [«ما فيه الحسبة» وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكرا بغير اجتهاد فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها].

قلت: وقد أسهب الإمام الغزالي في الكلام على كل شرط، فليراجعه في كتابه الإحياء من شاء، ولكننا نوجز ونلخص كلامه على كل شرط، بما يتناسب مع بحثنا، ومن شاء التوسع فليرجع إلى أصل كلامه..

وها هو ملخص كلامه على كل شرط، فقال ـ رحمه الله ـ:

الشرط الأول: كونه منكراً: ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع..

الشرط الثاني: أن يكون موجودا في الحال وهو احتراز أيضًا عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد

... منكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال كمن يعلم بقرينة ... أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ وإن ... قرينة عليه لم يجز وعظه أيضًا فإن فيه إساءه ظن بالمسلم وربما ... في قوله وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق وليتنبه للدقيقة ... ذكرناها وهو أن الخلوة بالأجنبية معصية ناجزة وكذا الوقوف على ... حمام النساء وما يجري مجراه..

... الشرط الثالث: أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس: ... من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه ... رضي الله - تعالى - عنه وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه ... مشهورة وقد أوردناها في كتاب آداب الصحبة وكذلك ما روي أن ... عمر رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال: يا ... أمير المؤمنين، إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد ... عصيته من ثلاثة أوجه فقال وما هي؟ فقال قد قال الله - تعالى - : - ولا ... تجسسوا - وقد تجسست. وقال تعالى - وأتوا البيوت من أبوابها - وقد ... تسورت من السطح. وقال - لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى ... تستأنسوا وتسلموا على أهلها - وما سلمت، فتركه عمر وشرط عليه ... التوبة، ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن ... الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه، فأشار علي رضي الله عنه ... بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفي فيه واحد وقد أوردنا هذه الأخبار في ... بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة..

الشرط الرابع: أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهاد فكل ما هو ... محل اجتهاد فلا حسبة فيه..» انتهى ملخصا كلام الإمام الغزالي.

أقول: وها هو الإمام القرافي في الفروق ج٤ يبين لنا شروط تغيير المنكر حيث قال ـ رحمه الله ـ:

(الفرق السبعون والمائتان بين قاعدة ما يجب النهي عنه من المفاسد، وما يحرم وما يندب).

قال رسول الله ﷺ «لتأمرن ولتنهون أو ليوشكن أن يبعث الله عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»[1]. قال الترمذي: حديث حسن فللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة شروط:

(الشرط الأول): أن يعلم ما يأمر به وينهى عنه فالجاهل بالحكم لا يحل له النهي عما يراه، ولا الأمر به.

(الشرط الثاني): أن يأمن من أن يكون يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر منه مثل أن ينهى عن شرب الخمر فيؤدي نهيه عنه إلى قتل النفس أو نحوه.

(الشرط الثالث): أن يغلب على ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له، وأن أمره بالمعروف مؤثر في تحصيله فَعَدَمُ أحد الشرطين الأولين يُوجب التحريم.

وعَدَمُ الشرط الثالث يُسقط الوجوب ويُبقى الجواز والندب» انتهى كلام الإمام القرافي.

قلت: فانظر إلى الشرط الأول الذي نص عليه الإمام القرافي بقوله «أن يعلم ما يأمر به وينهى عنه فالجاهل بالحكم لا يحل له النهي عما يراه» فهذا الشرط الذي ذكره الإمام القرافي عدمه يوجب التحريم،

---

(١) رواه الإمام الترمذي ٤/ ٤٦٨ «باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ح (٢١٦٩)، رواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٣٨٨، ورواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٩٣.

ويخرج بقيده الكثير من المتصدرين لإنكار المنكر بغير أهليه، تمكنهم من معرفة حقيقة كونه محذور الوقوع في الشرع أم لا؟، من كل وجه، أم من وجه دون وجه، خاصة إذا كان هذا المنكر في دقائق الأمور وهو عامي، إذ لا يأمر وينهى في دقائق الأمور إلا العلماء، لجهل العوام بها، وخفاء أحكامها على معظمهم، مما يؤدي إلى تعذر التيقن من كونها منكراً، بل قد تكون معروفا من وجه أو أكثر، بل قد يكون المعروف فيها أرجح من المنكر، ويكون المنكر في بعضها مرجوحا لا راجحا..

وهذا يحتاج إلى نظر وأهلية وأدوات يتم بها ترجيح الغالب، والنظر إلى المصالح والمفاسد الخفية في هذه الأمور الدقيقة، فإن لم تتوفر هذه الأهلية والأدوات فالتوقف أولى، وإلا فالضرر حاصل، ونهى الناهي عن منكر دقيق لا يعلم حدوده، يتولد عنه في أغلب الأحيان تتابع منكرات، تتسع وتتوالى بلا ضابط، فالضابط أولا مفقود، مع انتفاء الأهلية والنظر، فكيف يوجد آخرا.

وانظر إلى الشرط الثاني في تغيير المنكر، **الذي أورده الإمام القرافي بقوله: «أن يأمن من أن يكون يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر منه»**، فإنه إذا أدى إلى منكر أكبر منه، كان من الفساد الذي نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ، وعَدَمه أيضًا يوجب التحريم، **قال الإمام ابن عقيل في آخر الإرشاد: «من شروط الإنكار أن يعلم أو يغلب على ظنه أنه لا يُفضي إلى مفسدة» انتهى.**

أقول: فنحن ننشر المعروف، ولا نركز على إشاعة المنكر بل نهجره، سيما إذا غلب على الظن أنه يفضي إلى منكر أكبر منه.

التغيير إنما هو بخطوة واحـدة، الحجرة إن كان بها ظلام، نحن لا نجتهد على الظلام أولا ثم نأتي بالنور، بل فقط نأتي بشمعة، فإذا جاء النور ذهب الظلام..

فالمفـاسد الموجودة الآن في العالـم، مشاهدة لا تحتـاج إلى بيان، والسبب الأساسي أن الإنســان بنفسه لم يبق على مقصـد حياته، لأن الله تعالى خلقه لنفسه، والإنسان بدلا من ذلك صار للحديد والخشب والنحاس، حتى جميـع صلاحياته توجه بها إلى الأشـياء، ولم يتوجه بقلبه إلى الله، فبـدلا من أن يُسخِّر الله سبحـانه الكون للإنسان سلَّطه عليه..

وقال العلامـة الخرشي المالكي في شرح مختصـر خليل عند كلامه على شـروط تغييـر المنكر «ويُشـترط ظهور المنـكر من غيـر تجسس ولا استـراق سمع ولا استنشـاق ريح ولا بحث عما أخـفى بيد أو ثوب أو حانوت فإنه حرام، وأقوى مـراتب الأمر بالمعروف اليد ثم اللسان برفق ولين ثم القلب ثم لا يَضُـرُّه من ضل وبقى من شروط تغـيير المنكر أن يكون مجمعا على تحريمه أو يكون مدرك عدم التحريم فيه ضعيفا وقال الشيخ زرُّوق في شرح الإرشاد الفرع الثالث من فَـعَلَ فعلا مختلفا في تحريمه وهو يعتقد التحريم أنكر عليـه، وإن اعتقد التحليل لم ينكر عليه إلا أن يكون مدرك القول بالتحليل ضعيـفا يَنقُض قضاء القاضي بمثله، وإن لم يعتقـد التحريم ولا التحليل والمدرك فـيهما مُتـواز أُرشد للترك برفق من غيـر إنكار ولا توبيخ لأنه من باب الورع» انتهى كـلام الإمام الخرشي.

أقول: فعلامة المؤمنين حفظ الأوامر واجتناب النواهي، والذي لا يميز بين الحلال والحرام هذا خلاف الإيمان، وهو يمثل صورة الإيمان وليس حقيقة الإيمان وإخلاص الكلمة، وذلك كما في الحديث «**من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة**»[1].

فصورة الأعمال ليس عليها وعد الله بالعلو والنصرة، وأخطر الأشياء أن يكون عند المسلمين صورة الأعمال، وليس حقيقتها، ويظنون أن عندهم الحقيقة، وإذا كان عند المسلمين الصورة فقط، وبقوا على هذه الصورة فهذا خطير، لأن صورة الحق لا تزهق حقيقة الباطل، إذا كان الفأر موجودا بالحقيقة وأمامه صورة الأسد، فالفأر يأكل صورة الأسد، أما إذا كان الأسد موجودا بالحقيقة فالفأر إما أن يكون في بطنه أو في جحره..

والآن في كل الدنيا فأر الباطل يمشي بالتكبر ويأكل صورة الأسد، واليوم فأر الباطل يرقص على صورة الحق، نحن إذا أردنا حقيقة الأعمال أن تأتي في المسلمين، لابد من إخراج سواد اليقين الفاسد على غير ذات الله ـ تعالى ـ من قلوبهم، كما نُخرجه من الأواني إذا التصق بها، فمحل الجهد الآن هو في إصلاح القلوب والأعمال، حتى تكون الأعمال على حقيقتها، فتتحصل الأمة على أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وتتأهل الأمة لموعود نصرة الله ـ تعالى ـ ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال الإمام محمد بن أحمد بن محمد (عليش) في فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك ج١ وهو يتكلم على شروط تغيير المنكر:

(فمن شرط تغيير المنكر أن يكون متفقا على أنه منكرا وهذا الذي قاله الشيخ هو نص المالكية والشافعية قال عياض في إكماله: لا ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يحمل الناس على مذهبه وإنما يُغَيَّر ما أُجمع على إحداثه وإنكاره ورشَّح هذا النووي في منهاجه قائلا ما نصه: أما المختلف فيه فلا إنكار فيه وليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نص القرآن أو السنة أو الإجماع، ونحو هذا في جامع الذخيرة وهو نص عز الدين في قواعده.

قال أبو سعيد بن لُب: ولاسيما إذا كان الخلاف في كراهيته لا في تحريمه فإن الأمر في ذلك قريب وربما يئول الإنكار إلى أمر محرم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم» انتهى.

قلت: قد ذهب إلى هذا الإمام العز بن عبدالسلام في القواعد حيث قال ﷺ: «الإجماع متعلق بما أجمع على إيجابه أو تحريمه فمن ترك ما اختلف في وجوبه، أو فعل ما اختلف في تحريمه: فإن قلد بعض العلماء في ذلك فلا إنكارعليه، إلا أن يقلده في مسألة ينقض حُكمه في مثلها، فإن كان جاهلا لم ينكر، ولا بأس بإرشاده إلى الأصلح. وإنما لم ينكر عليه لأنه لم يرتكب محرما، فإنه لا يلزمه تقليد من قال بالتحريم ولا بالإيجاب» انتهى.

لهذا نحن في حاجة لحفاظة الإيمان، والشيطان لا يتركنا أن نرحل عن هذه الدنيا وهذا الإيمان معنا، بل يجتهد على الإنسان حتى يأخذ منه إيمانه قبل الموت، ولكن كيف نحمي أنفسنا منه، ونحفظ إيماننا عند الله ـ تعالى ـ؟، يتحقق لنا ذلك بأن نسعى لنشر وحفاظة الإيمان في قلوب العباد، فيحفظ الله ـ تعالى ـ إيماننا عنده، فالله تعالى يجازي العبد على حسب مقصوده، وهو يرحم العبد، إذا كان العبد رحيما بالعباد «**الراحمون يرحمهم الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[1] لذلك كان أهل الدعوة يجتهدون على الناس، ويقولون لهم احفظوا إيمانكم، ويبينون لهم طريق ذلك، أملا في أن يمن الله ـ تعالى ـ عليهم عند ذلك، بحفاظة هذا الإيمان في أنفسهم..

---

(١) رواه الإمام الترمذي وقال حسن صحيح، ورواه الإمام أبو داود في سننه، ورواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الإمام الحاكم في المستدرك.

تأخير العالم والداعى لإنكار أشياء لحين وقتها

قد يقول القائل إذا رأينا المنكرات، ولم نتكلم على إنكارها أليس هذا من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، نقول: لا . . .

لأن شرط كون الشيء محرما، لازم الكف والانتهاء عنه، مشروط بكونه ممكن العلم والعمل، لأن الحجة على العباد إنما تكون بتحقق أمرين **أولها**: التمكن من العلم بما أنزل الله.

والثاني: القدرة على العمل به.

أما عند العجز عن العلم بحكم الله - تعالى - في الخطاب الشرعي، أو عدم القدرة على الامتثال والتطبيق، فهنا تسقط كثير من الأوامر إما للتعذر، «**فإن الأمر إذا تعذر سقط**»، أو لعدم القدرة ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾ فإن خرجت الأوامر في بعض الأحوال عن الوسع والطاقة فإن التكليف بها يكون تكليفا بما لا يطاق، والقاعدة أنه «**لا تكليف إلا بمقدور**».

وسقوط هذه الأوامر للعجز عن العلم، أو عدم القدرة على العمل بها، لا ينفي كونها واجبة أو محرمة أصلاً، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان واجبا أو محرما في الأصل، كل ذلك لرفع الحرج عن المكلفين، والمقصود برفع الحرج هو رفع المشقة التي لا يمكن استمرار الطاعة معها . .

فكل التكاليف الشرعية داخلة تحت الوسع والطاقة، وهذا لا يتعارض مع طبيعة الإنسان ونظرته البشرية، لأن كل عمل في الحياة لا يخلو من المشقة والتعب في القيام به، حتى في الضروريات التي يتضرر الإنسان بفقدها، كالسعي لطلب الرزق والأكل والشرب، فالمشقة الممكن احتمالها في ذلك لا مانع من وقوعها في التكاليف

الشرعية، حتى يُعرف الطائع من العاصي، والمؤمن من الكافر، وتحقيقا للابتلاء والاختبار، وقد وردت نصوص كثيرة من القرآن في تأكيد هذا الأصل، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3]وقال ﷺ: **«إنما بعثتم مُيسرين ولم تبعثوا مُعسرين»**.

وقد كان التيسير في الشريعة، ورفع الحرج عند عدم القدرة من المكلفين، شاملا جميع الأفعال، من عبادات ومعاملات ومعاشرات وجنايات.

أما في العبادات، فقد رخص الشارع ـ سبحانه وتعالى ـ، لمن فقد الماء أو عجز عن استعماله في الطهارة في تركه، والانتقال إلى الطهارة البديلة، فيتطهر بالتراب الطاهر عن طريق التيمم..

كذلك أباح الله ـ تعالى ـ أداء الصلاة قاعدا، لمن عجز عن القيام، مع كون القيام مع القدرة في الأصل، ركنًا من أركان الصلاة، فإن ازداد العجز، حتى لم يقدر على القعود لشدة ضعفه أو مرضه، أدى الصلاة بالإيماء برأسه.

كذلك في الحج أسقط الله ـ تعالى ـ أداء هذه الفريضة عن المكلفين، عند عدم القدرة على امتلاك الزاد والراحلة..

وفي المعاملات رخص الشارع في التعامل في السَّلم، وهو بيع المعدوم، كل ذلك لقضاء حاجه المحتاج عند عدم قدرته.

---

(١) سورة الحج الآية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٨٥.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

وفي الجنايات أسس التشريع الإسلامي، القواعد التي تُيسر وتسهل على المكلفين، عند العجز وعدم القدرة، كقاعدة «**درء الحدود بالشبهات**» المأخوذة من الحديث «**ادرؤا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان لها مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ**»[1].

وقول سيدنا عمر رضي الله عنه «**لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات**»[2].

لذلك الناظر في أحكام الشريعة الإسلامية، يجدها قائمة على التيسير، ورفع الحرج وعدم المشقة، فالعبادات التي شرعها الله ـ تعالى ـ قليلة، وأداؤها ميسر وسهل..

فالصلاة لا تأخذ من وقت المسلم إلا الزمن اليسير، والصيام شهر من اثنى عشر شهرا، والزكاة تمثل ٢,٥٪ من المال، والحج مرة في العمر، ومشروط بالقدرة والاستطاعة وملك الزاد والراحلة..

كذلك المحرمات حددها الشارع ـ سبحانه ـ ونص عليها، بخلاف المباحات فهي غير محددة ولا محصورة، فقال ـ تعالى ـ في المحرمات: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ**﴾[3].

أما في المباحات فقال ـ تعالى ـ: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾[4] فأطلق الله ـ تعالى ـ ما أحله لنا من كل طيب ولم يقصره على نوع دون نوع.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية قال الترمذي وقفه أصح، وأخرجه الحاكم والدارقطني والبيهقي وقال الموقوف أقرب للصواب.

(٢) رواه الإمام ابن أبي شيبة في المصنف ٥/ ٥١١.

(٣) سورة المائدة الآية:٣. (٤) سورة المائدة الآية: ٤.

أقول: فالعالم والداعي يبين ما جاء به الرسول ﷺ شيئا فشيئا، ولا يأمر التائب بجميع الدين، ولا يذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبا عليه في هذه الحال، كذلك المُجدد للدين والمحيي للسنة، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولا يزجر إلا عما يمكن اجتنابه من المنهيات، وقد لا يكون زجره عنها جملة بل في بعضها دون البعض، ولا أمره بتركها فورا، بل بحسب الإمكان وإن كان على التراخي، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يُلقَّن جميع شرائعه..

وهو ما أورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢ ص٥٨ - ٦١ حيث قال: «فالعالم تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يبيح، وتارة يسكت عن الأمر أو النهي أو الإباحة، كالأمر بالصلاح الخالص أو الراجح أو النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يرجح الراجح - كما تقدم - بحسب الإمكان، فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن: إما لجهله، وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه، كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء، حتى علا الإسلام وظهر فالعالم في البيان والبلاغ كذلك؛ قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخر الله - سبحانه - إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله ﷺ تسليمًا إلى بيانها.

يبين حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

---

(١) الإسراء الآية: ١٥.

حجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما ـه. والقدرة على العمل به. فأما العاجز عن العلم أو العاجز عن ـ فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين، أو حصل عن بعضه: كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله ـقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلاً، أوقات الفترات، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو ـ أو مجموعها كان بيانه لما جاء به الرسول شيئًا فشيئًا بمنزلة بيان ـرسول لما بعث به شيئًا فشيئًا، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن ـمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن ـطاع فأمر بما يستطاع.

فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه ـعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها.

وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر إن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبًا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبًا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفي الرسول عما عفي عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط فتدبر هذا الأصل فإنه نافع.

ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمه في الأصل، لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجه الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان واجبًا في الأصل، والله أعلم.

ومما يدخل في هذه الأمور الاجتهادية علما وعملا، أن ما قاله العالم أو الأمير أو فعله باجتهاد أو تقليد، فإذا لم ير العالم الآخر والأمير الآخر مثل رأي الأول فإنه لا يأمر به، أو لا يأمر إلا بما يراه مصلحة ولا ينهى عنه، إذ ليس له أن ينهى غيره عن اتباع اجتهاده، ولا أن يوجب عليه اتباعه، فهذه الأمور في حقه من الأعمال المعفوة، لا يأمر بها ولا ينهى عنها بل هي بين الإباحة والعفو وهذا باب واسع جدا، فتدبره!» انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

فعلى الإنسان أن يتنبه لما ينفعه في آخرته، ويبعد عما يضره فيها، والأنبياء أرسلوا لكي يوضحوا للإنسان هذا السبيل، فإذا ذهب الإنسان وراء نفسه وأطاع شهواته، فإنه بذلك يحرم نفسه من منافع كثيرة، ومسرات عديدة، ويُعرِّض نفسه للهلاك، بإعراضه عن هذا السبيل..

أقول: فإذا كان الأمر صلاحا خالصا أو راجحا، أمر به العالم أو المبلغ لدين الله ـ تعالى ـ، لما في إقامة الأوامر المشمولة بالصلاح الخالص أو الراجح من منفعة لعموم المكلفين، كذلك النهي عن الفساد الخالص أو الراجح، ينهى عنه العالم أو المبلغ والداعي لدين الله ـ تعالى ـ، لما في هذا الانتهاء من دفع لمفاسد ومنكرات، بينة ظاهرة لعموم الأمة، ولأن النهي عن هذه المفاسد يرفع الضرر الحادث من وجودها، وعند التعارض بين جلب مصلحة الأمر، ودفع ضرر النهي، نرجح الراجح فيهما، الذي يحقق أفضل المصالح، ويدفع أرزل المفاسد..

ـ إذا كان التـارك للمعروف المأمور به من عامة الناس، لا يتـقيد
ـأمر، والواقع في المنكر المنهي عنه لا ينزجـر بالنواهي، فلا يعظم
ـأوامر بالتزامهـا، ولا يحترز عن النواهي باجتنابها، إما لجـهالته بهذه
ـأوامر والنواهي، أو لظلمه وطـغيانه، أو لكثرة معـاصيه وقلة إيمانه،
ـلا يمكن إزالة هـذا الجـهل أو الظـلم منه، في نفس الـلحظة أو ذات
ـوقت، ففي هذه الحالة يكون الأصلح تأخير الأمر والنهي . .

وذلك لتعذر التـغيير باليد واللسـان، لَمَّا غلبت المنكرات، وشاعت
ـفواحش والمخـالفات، وأشتـد أثرها وقوتها، وسـيطرتها على قلوب
ـعـامة، وهو ما أورده الإمـام الجصاص في أحكام القـرآن ج٢ حيث
قال: حـدثنا محمد بن بكر قال: حدثنا أبو داود قـال: حدثنا أبو الربيع
سليمان بن داود العتكبي قال: حدثنا ابن المبارك عن عتبة بن أبي حكيم
قال: حدثنا عمرو بن جارية اللخمي قال: حدثنا أبو أمية الشعباني قال:
سألت أبـا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبـة كيف تقـول في هذه الآية
﴿عليكم أنفسكم﴾ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها
رسول الله ﷺ فـقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى
إذا رأيت شحًا مطاعًـا وهوى متبعًا ودنيا مـؤثرة وإعجاب كل ذي رأي
برأيه فـعليك نفـسك ودع عنك العـوام فـإن من ورائكم أيام الصـبـر،
الصبـر فيه كـقبض على الجمـر للعامل فـيها مـثل أجر خمـسين رجلاً
يعملون مثل عـمله قال: وزادني غيره قال: يا رسول الله، أجـر خمسين
منهم؟ قال: أجر خمسين منكم»[1] .

---

(١) رواه الإمـام أبو داود في سننه ٤/ ١٢٣ «باب الأمـر والنهي» ح (٤٣٤٠) ورواه الإمـام التـرمذي ٥/ ٢٧٥ «باب ومن سـورة المائدة» ح (٣٠٥٨) وقـال هذا حـديث حسن غـريب، ورواه الإمام ابن ماجـه ٢/ ١٣٣٠ «باب قول الله تعالـى ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ ح (٤٠١٤).

وهذا لا دلالة فيه على سقوط فرض الأمر بالمعروف إذا كانت الحال ما ذكر؛ لأن ذكر تلك الحال تنبئ عن تعذر تغيير المنكر باليد واللسان لشيوع الفساد وغلبته على العامة، وفرض النهي عن المنكر في مثل هذه الحال إنكاره بالقلب كما قال عليه السلام: «فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه»[1] فكذلك إذا صارت الحال إلى ما ذكر كان فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلب للتقية ولتعذر تغييره. وقد يجوز إخفاء الإيمان وترك إظهاره تقية بعد أن يكون مطمئن القلب بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[2] فهذه منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) انتهى كلام الإمام الرازي.

أقول: وقد كان الصحابة ﷺ يعلمون المسترشد فقه هذه الآية، ويبنون الغامض في مفهومها، ليعلم المتعلم معناها ويهتدي الحائر بنورها، وهو ما أورده الإمام ابن كثير في تفسيره ج٢ ص١١١ بقوله: «عن جبير بن نفير قال كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإني لأصغر القوم فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقلت أليس الله يقول في كتابه: ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فأقبلوا علي بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها، فتمنيت أني لم أكن تكلمت وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حديث السن وإنك نزعت آية ولا تدري ما هي وعسى أن تدرك ذلك الزمان إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت، وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة قال: تلا الحسن هذه الآية ﴿يأيها الذين

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة النحل الآية: ١٠٦.

ـ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال الحسن
ـ بها والحمد لله عليها ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما
ـ إلى جنبه منافق يكره عمله» انتهى.

ـ سنة قائمة في الأرض وهي إقامة الدين وعبادته إلى مدى
ـ وإذا أراد الناس أن يُبدلوا سنة الله في الأرض، فإن الله ـ تعالى
ـ أنفسهم، ولا تتبدل سنة الله ولا تتحول، فعلينا أن نؤمن
ـ وسعادتنا وكل أمورنا بيده ـ سبحانه ـ، ولا يستطيع أي إنسان
ـ لسعادة من إنسان آخر، أو أن يأخذ الطمأنينة من شخص
ـ فلابد من الإيمان بأن الأمور كلها بيد الله، وأن ما يفرح الله ـ
ـ ـ هو إقامة الدين على الأرض، «لله أشد فرحًا بتوبة عبده»[1] وإن
ـ ذلك لا يزيد في ملكه شيئا..

ـ قول: وقد يأتي على العالم أو المبلغ لدين الله ـ تعالى ـ وقت،
ـ مكلفين من حوله قد اختلفت قلوبهم، وتفرقت أهواؤهم،
ـ حوا في أوطانهم شيعا، وذاق بعضهم بأس بعض، لقلة الأبرار
ـ الفجار، فحينئذ قد يسوغ التأخر عن الإنكار باليد واللسان، مع
ـ اكتفاء بالإنكار بالقلب، لما يتبع الإنكار باليد واللسان، وفق هذا
ـ حال، من التعرض للفتن والبلاء..

وهو ما أورده الإمام أبو بكر الرازي الجصاص في أحكام القرآن
ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: وقد روي ابن مسعود في
ـ ذلك ما حدثنا جعفر بن محمد قال: حدثنا جعفر بن محمد بن اليمان
قال: حدثنا أبو عبيد قال: حدثنا حجاج عن أبي جعفر الرازي عن
الربيع بن أنس عن أبي العالية عن عبدالله بن مسعود، أنه ذكر عنده هذه

---

(1) متفق عليه.

الآية: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال: لم يجئ تأويلها بعد، إن القرآن أنزل حين أنزل ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، وكان منه آي وقع تأويلهن على عهد النبي ﷺ ومنه أي وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب من الجنة والنار قال: فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعًا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فإذا اختلفت القلوب والأهواء ولبستم شيعًا وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه عند ذلك جاء تأويل هذه الآية. قال أبو بكر: يعني عبدالله بقوله: (لم يجئ تأويلها بعد) أن الناس في عصره كانوا ممكنين من تغيير المنكر لصلاح السلطان والعامة وغلبة الأبرار للفجار. فلم يكن أحد منهم معذورًا في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان، ثم إذا جاء حال التقية وترك القبول وغلبت الفجار سوغ السكوت في تلك الحال مع الإنكار بالقلب)

انتهى كلام الإمام الرازي.

قلت: وقد نقل الإمام القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى ج٢ ص١٢٨٨ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله..﴾.

عن حافظ المغرب الإمام ابن عبدالبر الإجماع على وجوب تغيير المنكر لمن قدر على ذلك ولم يلحقه في تغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك، ويكون في هذا قد أدى ما عليه إذا لم يتمكن أن يفعل أكثر من ذلك، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ:

ـ بعة ـ أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبدالبر أن المنكر واجب تغييره
ـ ـ ـ من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى
ـ ـ ـ ذلك لا ينبغي أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم
ـ ـ فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم
يستطع سوى ذلك. قال: والأحاديث عن النبي ﷺ في تأكيد الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدا ولكنها مقيدة بالاستطاعة.

قال الحسن: إنما يُكَلَّمُ مؤمن يُرجى أو جاهل يُعلَّم، فأما من وضع
سيفه أو سوطه فقال: اتقيني اتقيني فما لك وله. وقال ابن مسعود:
بحسب المرء إذا رأى منكرا لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له
كاره. وروي ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله
ﷺ: «لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه». قالوا يا رسول وما إذلاله نفسه؟
قال: «يتعرض من البلاء لما لا يقوم له»[1].

قلت [أي الإمام القرطبي]: وخرجه ابن ماجه عن علي بن زيد بن
جدعان عن الحسن بن جندب عن حذيفة عن النبي ﷺ، وكلاهما
قد تكلم فيه. وروي عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرجل إذا رأى
منكرا لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات «اللهم إن هذا منكر»
فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه» انتهى كلام الإمام القرطبي.

أقول: وقد بين سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أيضًا في أصول
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن هناك حال قد يسع الإنسان
الداعي للشرع، والمبلغ لدين الله ـ تعالى ـ، أن يؤخر فيه الأمر
والنهي، وذلك عند الدفع والرد من المكلفين، والرفض منهم لأوامر

---

(١) رواه الإمام الترمذي ٤/ ٥٢٢ ح (٢٢٥٤) وقال حسن غريب، ورواه الإمام ابن ماجه في سننه ٢/ ١٣٣٢، ورواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٤٠٥.

الدين، وعدم قبـولها لضعف واعظ الإيمان في القلوب وهو مـا أورد الإمام الجصاص في أحكام القرآن ج٢ حيث قال: «وقد يسع السكوت أيضا في الحـال التي قد علم فـاعل المنكر أنه يفعل محظورا ولا يمكن الإنكار باليـد ويـغلب في الظن بأنه لا يقـبل إذا قـتـل، فـحينئذ يسع السكوت وقـد روي نحـوه عن ابن مـسـعـود في تأويل الآية. وحدثنا جعـفر بن محمـد قال: حدثنا أبو عـبيد قال حـدثنا هشيم قال: أخبرنا يونس عن الحسن عن ابن مـسـعود فـي هذه الآية: (عليكم أنفسكم قال: قولوها مـا قبلت منكم فإن رُدت عليكم فعليكم أنفسكم. فـأخبر ابن مسعود أنه في سـعة من السكوت إذا ردت ولم تقبل، وذلك إذا لم يمكنه تغيـيره بيده، لأنه لا يجوز أن يتـوهم عن ابن مسعود إباحـته ترك النهي عن المنكر مع إمكان تغييره» انتهى كلام الإمام الجصاص.

وقد أورد الإمـام القرطبي في تفسـيره ج٦ ص٣٤٣ تأكيد مـا سبق عن سيدنا عبدالله بن عمر ﵄ حيث قال رحمه الله تعالى: «وقيل لابن عمـر في بعض أوقـات الفتن: لو تركت القول في هذه الأيام فلم تـأمر ولم تنه فـقال إن رسـول الله ﷺ «قال لنا: ليـبلغ الشاهد الغـائب» ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل وفي روايه عن ابن عـمـر بعد قـوله: ليـبلغ الشـاهد الغـائب فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لأقوام يجـيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم» انتهى.

---

(١) رواه الإمـام البـخـاري ١/ ٣٧ «باب قـول النبي ﷺ: «رب مـبلغ أوعى من سامع» ح(٦٧)، ورواه الإمـام مسلم ٣/ ١٣٠٥ «باب تغليظ تحريم الدمـاء والأموال والأعراض»، ورواه الإمام ابن ماجه والإمام أحمد والإمام البيهقي.

أقول: وقد قرر أئمتنا أنه قد يأتي على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر حال يسعه فيه الصمت، والاكتفاء بالانكار بالقلب، للخوف على النفس، ولتعذر الإنكار يدا ولسانا، وسعيا لتحصيل ما أمكن تحصيله من مصالح الدين، فالميسور لا يسقط بالمعسور، **وها هو الإمام أبو بكر الرازي الجصاص يؤكد ذلك في أحكام القرآن ج٢ عند الحديث عن الأيام التي شاع فيها الخوف بين المسلمين، حيث قال «ولعمري إن أيام عبدالملك والحجاج والوليد وأضرابهم كانت من الأيام التي سقط فيها فرض الإنكار عليهم بالقول واليد لتعذر ذلك والخوف على النفس وقد حكي أن الحجاج لما مات قال الحسن: (اللهم أنت أمته فاقطع سنته فإنه أتانا أخيفش أعيمش يمُدُّ بيد قصيرة البنان والله ما عرق فيها عنان في سبيل الله عز وجل، يُرجِّل جمَّتهُ ويخطر في مشيته ويصعد المنبر فيهذر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل الصلاة أيها الرجل) ثم قال الحسن: (هيهات والله حال دون ذلك السيف والسوط) وقال عبدالملك بن عمير: (خرج الحجاج يوم الجمعة بالهاجرة فما زال يعبُرُ مرة عن أهل الشام يمدحهم ومرة عن أهل العراق يذمهم حتى لم نر من الشمس إلا حُمرة على شرف المسجد، ثم أمر المؤذن فأذَّن فصلى بنا الجمعة، ثم أذَّن فصلى بنا العصر، ثم أذَّن فصلى بنا المغرب، فجمع بين الصلوات يومئذ).**

فهؤلاء السلف كانوا معذورين في ذلك الوقت في ترك النكير باليد واللسان وقد كان فقهاء التابعين وقراؤهم خرجوا عليه مع ابن الأشعث إنكارا منهم لكفره وظلمه وجوره، فجرت بينهم تلك الحروب المشهورة وقتل منهم من قتل ووطئهم بأهل الشام حتى لم يبق أحدٌ ينكر عليه شيئا يأتيه إلا بقلبه» انتهى كلام الإمام الجصاص.

أقول: ومن أجل ذلك صنف أئمتنا في القواعد التي ترفع الحرج عن المكلفين، وتوسع السبل أمام أمة سيد المرسلين، عند توعر طرق الهداية. وزيادة السوء والغواية، وقوة وتسلط العابثين، **مثل قول الأئمة رحمهم الله تعالى «لا تكليف إلا بمقدور» وقولهم «الأمر إذا ضاق اتسع وقولهم: «الأمر إذا تعذر سقط» وقولهم «المشقة تجلب التيسير».**

قال الإمام السيوطي في الدر المنثور ج٢ ص٢١٦ في تفسير الآية ﴿عليكم أنفسكم﴾

«وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله «عليكم أنفسكم» الآية قال: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيف فإذا كان ذلك كذلك فعليكم أنفسكم».

أقول: ولسائل أن يستفسر وأي تغيير يحصل بإنكار القلب، إن تعذر الإنكار باليد واللسان، وإذا اكتفى بإنكار القلب فهل تزول بذلك المنكرات، وترتفع الفواحش والمخالفات؟.

فالجواب ما أورده الإمام السفاريني في منظومة الآداب ج١ حيث قال: (مطلب في مراتب الإنكار):

وأضعفه بالقلب ثم لسانه وأقواه إنكار الفتي الجلد باليد

(وأضعفه) أي أضعف مراتب الإنكار يكون (بالقلب) دون اللسان واليد، فإن قيل أي تغيير حصل بإنكار القلب؟ فالجواب المراد أن يُنكر ذلك ولا يرضاه، ويشتغل بذكر مولاه، جل شأنه، وتعالى سلطانه. وقد مدح الله تعالى العاملين بذلك تفضلا منه وإنعاما، فقال ﴿**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾[1] فإذا كره المؤمن المنكر

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٧٨.

ونوى بقلبه أنه لو قدر على تغـييره لغيَّره كان في قوة تغـييره له، فإنه يجب على كل مؤمن إيجاب عين كراهة ما كرهه مولاه ومحبة ما يحبه ويرضاه.

وقد قال ـ علـيه الصلاة والسلام ـ كـما في الأحاديث الصحـيحة الصريحة (إنما الأعمال بالنيات)[1] و (الدين النصيحة)[2] (ثم) أرقى من الإنكار بالقلب فـقط الإنكار بـ (لسانه) أي أن يُنكر المنكر بلـسانه بأن يصيح عليـهم فيتركـونه أو يُسلط عليهم من يُغيـره (وأقواه) أي أقوى مراتب الإنكار (إنكار الفتى) أي الشخص المؤمن (الجلد) بسكون اللام أي القوي الشـديد، ويقال له جليد. وفي حـديث عمر [كـان أجوف جليدا] أي قويا شديدا، فهو صفـة للفتى (باليد) متعلق بإنكار الفتى، وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[3] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

---

(١) رواه الإمام الـبخـاري ١/ ٣ كتـاب بدء الوحي «باب كيف كـان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ» ح (١)، ورواه الإمام أبو داود ٢/ ١٦٢ «باب فـيما عني به الطلاق والنيات» ح (٢٢٠١)، ورواه الإمام ابن ماجه ١/ ١٤١٣ «باب النية» ح(٤٢٢٧).

(٢) رواه الإمام مـسلم ١/ ٧٤ «باب بيان أن الدين نصـيحـة» ح (٥٥)، ورواه الإمام أبو داود ٤/ ٢٨٦ «باب في النصيـحة» ح (٤٩٤٤)، ورواه الإمام التـرمذي ٤/ ٣٢٤ «باب مـا جاء في النصـيحـة» ح (١٩٢٦) وقال الإمـام الترمـذي هذا حديث حـسن صحيح، ورواه الإمام النسائي في المجتبى «باب النصيحة للإمام» ح (٤١٩٧).

(٣) سبق تخريجه.

وروي مسلم أيضًا من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من نبي بعثه الله قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبه خردل**»(1) انتهى.

وقال الإمام السفاريني أيضًا في منظومة الآداب ج١: «فهذه الأخبار ونحوها دلت على وجوب إنكار المنكر بحسب الإمكان والقدرة عليه، وأن الإنكار بالقلب لابُد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر دل على ذهاب الإيمان من قلبه، وقد قال علي رضوان الله عليه «**إن أول ما تُغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله**». وسمع ابن مسعود ﷺ رجلا يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر. فقال ابن مسعود: **هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر**. يُشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك. وأما الإنكار باللسان واليد فإنما يجب بحسب الطاقة.

وفي سنن أبي داود عن العُرس بن عميرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا عُملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب**

---

(١) رواه الإمام مسلم ١/ ٦٩ «باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان» ح (٤٩)، ورواه الإمام أحمد ١/ ٤٥٨، ورواه الإمام البيهقي في السنن ١٠/ ٩٠.

عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»[1].

قال الحافظ ابن رجب: فمن شهد الخطيئة فكرهها بقلبه كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها، لأن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب وهو فرض على كل مسلم لا يسقط عن أحد في حال من الأحوال. فأفهمنا كلامه ـ رضوان الله عليه ـ بأن قولهم إنكار المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي على ما أسلفنا بأن مُرادهم الإنكار باليد واللسان اللذين يحصل تغيير المنكر بهما أو بأحدهما، وأما الإنكار بالقلب ففرض عين على كل مسلم، وهذه فائدة ينبغي التفطن لها. وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من حضر معصية فكرهها فكأنه غاب عنها، ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها**»[2] وهذا مثل الذي قبله. قال الحافظ: **فتبين بهذا أن الإنكار بالقلب فرض على كل مسلم في كل حال.** فهذا صريح منه بما فهمناه من كلامه، وهو ظاهر لاغبار عليه لأنه يجب على كل العالم إنكار ما يغضب الجبار جل شأنه وتعالى سلطانه. وروي الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره. فإذا لقن الله عبدا حُجته قال: يا رب، رجوتك وفرقت الناس**»[3]. وأما ما تقدم من قوله ﷺ «**فيقول الله ما منعك**

---

(١) رواه الإمام أبو داود في سننه ٤/ ١٢٤ «باب الأمر والنهي» ح (٤٣٤٥)، ورواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٦٦.

(٢) رواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٦٦، ورواه الإمام ابن حبان في الثقات ٧/ ٦١٠.

(٣) رواه الإمام ابن ماجه ٢/ ١٣٣٢ «باب قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم ـ

أن تقول في كـذا وكذا فيقول خـشية الناس فيـقول إيَّاي كنت أحق أن تخشى»[1] وما خرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد مرفوعا «ألا لا يمنعن رجلا هيبـة الناس أن يقول بحق إذا علمه وبكى أبو سعيد وقال قد والله رأينا أشياء فـهبنا»[2]. وخرَّجـه الإمام أحمـد وزاد عنه [فإنه لا يقـرب من أجل ولا يـبـاعـد من رزق أن يقـال بحق أو يُذكـر بعظيم] فـمحـمولات على أن المانع له مـن الإنكار مجـرد الهيـبة دون الخـوف المسقط للإنكار. قال شيخ الإسـلام ـ رحمه الله ورضي الله عنه ـ: مراده ﷺ في قـوله يعني في الحـديث السـابـق [ليس وراء ذلك من الإيمان مثـقال حبـة خردل][3] أنه لم يبق بعـد هذا الإنكار مـا يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان، ليس مراده أن من لم يُنكر لم يكن معه من الإيمان حبـه خردل، ولهذا قال وليس وراء ذلك، فجعل المؤمنين ثلاث طبقات، فكل منهم فعل الإيمان الذي يجب عليه. قال وعلم بذلك أن الناس يتفاضلون في الإيمان الواجب بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب إليهم» انتهى كلام الإمام السفاريني.

= أنفسكم» ح (٤٠١٧)، ورواه الإمـام أحمد في المسند ٣/ ٧٧، ورواه الإمام البـيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٩٠.

(١) رواه ابن ماجه ٢/ ١٣٢٨ «باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ح (٤٠٠٨)، ورواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٩٠ ح (٧٥٧١).

(٢) رواه الإمام الترمذي ٤/ ٤٨٣ «باب ما جاء مـا أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائـن إلى يوم القيـامة» ح (٢١٩١)، ورواه الإمـام ابن ماجه ٢/ ١٣٢٨ «بـاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ح (٤٠٧٧).

(٣) سبق تخريجه.

[illegible]: ولكون الحال التي قد تكتنف الداعي إلى الله تعالى في زمن [illegible]يمان، أو المبلغ لدينه في وقت من الأوقات، هي حال تعذر، [illegible] حال مقدرة، كانا كلاهما في وسع من السكوت عن بعض [illegible]مر والنواهي، إذا كان ذلك هو مقتضى المصلحة للشرع والدين، [illegible]خر الشارع - سبحانه وتعالى - بعض الأوامر في أول الأمر، [illegible]كت عن النهي عن أشياء في بداية الإسلام، حتى علا الإسلام [illegible]نبر الإيمان، واستعدت القلوب للأوامر والنواهي، وتأهلت للامتثال [illegible]تطبيق..

وقد كان هذا شأن النبي ﷺ عند دخوله إلى البيت الحرام وفيه [illegible]وثان، أو عند رؤية المشركين، أو في تعامله مع المخالفات الصادرة [illegible]ن بعض المنافقين في المدينة، وقال قولته الشهيرة **«دعه لا يتحدث [illegible]ناس أن محمدا يقتل أصحابه»**[1] وقال لعائشة رضي الله عنها: **«لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم»**[2].

لذلك أنزل الله تعالى القرآن منجما متفرقا، واقتضت حكمته ألا ينزل مرة واحدة، حتى تتيسر أحكامه على المكلفين، فيمتثلونها في سهوله ويسر، وهذا لن يكون ممكنا لو نزل القرآن جملة واحدة، حيث تشق حينئذ التكاليف ويثقل الالتزام بها، فكان التدرج في تشريع الأحكام شيئا فشيئا.

لذلك بدأ التشريع بنزول الأحكام الخاصة بالإيمان والاعتقاد وترسيخ الصفات الأخلاقية، ثم نزلت بعد ذلك الأحكام العملية في العبادات والمعاملات والمعاشرات متتابعة، حكما وراء حكم..

---

(١) رواه الإمام البخاري ٤/ ١٨٦١ «باب قوله: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾» ح (٤٦٢٢)، ورواه الإمام مسلم ٤/ ١٩٩٨ «باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلوما» ح (٢٥٨٤).

(٢) سبق تخريجه.

ومن الأمثلة على الأحكام التي أخر الله تعالى إنزال آيات في شأنها، إلى الوقت الذي تمكن فيه الرسول ﷺ من بيانها وتوضيح أحكامها، الآيات التي نزلت لعلاج إدمان العرب للخمر، وكيف راعي القرآن ولعهم بها في آياته رويدا رويدا، حتى يستطيعوا الامتثال والطاعة مختاريين، فلم يحرمها دفعة واحدة، ولم يبين النبي ﷺ تحريمها جملة، حتى لا يصيب الناس المشقة والحرج، بل امتد زمن تحريمها لإعطاء الفرصة لمن أدمنها للتمكن من الامتثال والتطبيق..

ففي البداية نزل القرآن بذم الخمر من طرف خفي، في قوله تعالى ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ﴾[1] فقد أمتن الله - تعالى - على عباده بما منحهم من الخيرات والثمرات، التي يتخذون منها سكرا ورزقا حسنا، ففرق - سبحانه وتعالى - بين السكر والرزق الحسن، وجعل هذا غير هذا، ثم أنزل الله - سبحانه وتعالى - بعد ذلك قوله: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾[2] فأكدت هذه الآية إثم الخمر وأن ضرها أكثر من نفعها، وأن شربها ليس بفضيلة، فغيرت هذه الآية النفوس في تناولها، وامتنع بعض المسلمين عن تعاطيها، واستمر البعض الآخر في ذلك، ثم أنزل الله تعالى قوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾[3] فكان هذا تحريما لها في وقت دون وقت، حتى يتمكن المدمنون ويعتادوا على تركها جزئيا، فيكفون عن شربها في الوقت الذي لا يتمكنون فيه من الافاقة

---

(١) سورة النحل الآية: ٦٧.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢١٩.

(٣) سورة النساء الآية: ٤٣.

الصلاة التالية، ثم أنزل الله - تعالى - قوله ﴿يَأَيُّها الَّذين آمَنُوا إنَّما الخمر والميسر والأنصابُ والأزْلامُ رجسٌ مّنْ عمل الشَّيْطان فاجْتنبوهُ لعلّكم تفلحون ﴿٩٠﴾ إنَّمَا يريدُ الشَّيْطانُ أن يُوقع بيْنكُمُ العداوة والبغْضاء في الخمر والميسر ويصُدَّكُمْ عن ذكْر اللّه وعن الصَّلاة فهل أنتم مُّنتهُون﴾[1].

وفي ذلك تحريما للخمر تحريما قاطعا لا شبهة فيه.

كذلك عقوبة الزنا في صدر الإسلام، فقد كانت لا تتعدى الحبس في البيوت للنساء، والإيذاء بالقول للرجال، قال تعالى: ﴿واللاَّتي يأْتين الفاحشة من نّسائكُمْ فاسْتشْهدُوا عليْهنَّ أرْبعةً مّنكُمْ فإن شهدُوا فأمْسكُوهُنَّ في الْبُيُوت حتى يتوفّاهُنَّ الْموْتُ أوْ يجْعل اللّهُ لهُنَّ سبيلاً ﴿١٥﴾ واللّذان يأْتيانها منكُمْ فآذُوهُما فإن تابا وأصْلحا فأعْرضُوا عنْهُما إنَّ اللّه كان توَّابًا رَّحيمًا﴾[2].

ثم جعل الله - عز وجل - هذه العقوبة بعد ذلك الجلد مائة لغير المحصن، وذلك بقوله - تعالى - ﴿الزَّانيةُ والزَّاني فاجْلدُوا كُلَّ واحدٍ مّنْهُما مائة جلْدةٍ ولا تأْخُذْكُم بهما رأْفةٌ في دين اللّه إن كُنتُمْ تُؤْمنُون باللّه والْيوْم الآخر ولْيشْهدْ عذابهُما طائفةٌ مّن الْمُؤْمنين﴾[3].

أما المحصن فقد جعل الله - تعالى - الرجم عقوبة له، فقد رجم رسول الله ﷺ ماعزا والغامدية وكانا محصنين..

فتأخر نزول هذه الأحكام السابقة، في الخمر والزنا في أول الأمر، حتى تمكن النبي ﷺ من بيانها، وحتى ارتفع الحرج عن المسلمين في امتثالها وتطبيقها، بعد توفر القدرة والاستطاعة، لذلك قرر العلماء

---

(١) سورة المائدة الآية: ٩٠، ٩١.

(٢) سورة النساء الآية: ١٥، ١٦.

(٣) سورة النور الآية: ٢.

أن العالم والمبلغ الداعي لدين الله ـ تعالى ـ، في بيانهم لأحكام الدين والبلاغ عن الله وعن رسوله ﷺ إذا كانوا يواجهون أصنافا من الأمة، لا تأتمر بالأمر، ولا تنتهي بالنهي، إما للجهل الذي يشملهم، أو للظلم الذي هم فيه، أو لغلبة المخالفات والمعصيات، فيسوغ للعالم والمبلغ الداعي لدين الله تعالى تأخير الأمر ببعض الأوامر، وإن كانت واجبة في الأصل، حتى وقت القدرة على إبلاغها..

كذلك فإن للعالم والمبلغ لدين الله تأخير النهي عن بعض النواهي، وإن كانت محرمة في الأصل، لحين التمكن من بيانها وإبلاغها..

وهذا الذي قرره الإمام ابن تيمية في النص السابق عنه في أول الفصل حيث قال ـ رحمه الله ـ: «فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئا فشيئا بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئا فشيئا، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها. وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفي الرسول عما عفي عنه إلى وقت بيانه،

. يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن
الوجوب والتحريم مشروط بامكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء
هذا الشرط. فتدبر هذا الأصل فإنه نافع ومن هنا يتبين سقوط كثير من
هذه الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل، لعدم إمكان البلاغ
الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط
للأمر والنهي وإن كان واجبا في الأصل، والله أعلم» انتهى.

أقول: وهذا ما يفعله أهل الدعوة، حيث يؤخرون الكلام عن
بعض المنكرات والمنهيات، في أول الأمر أمام المأمورين، لحين التمكن
من إبلاغها، وتمكن المأمورين من القيام بها، **لأنه كما قال الإمام ابن
تيمية رحمه الله: « ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر
بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد
فرضنا انتفاء هذا الشرط. فتدبر هذا الأصل فإنه نافع» انتهى.**

لذلك رأينا أهل الدعوة عند فقد وانتفاء هذا الشرط، يقومون
بالتركيز على تأسيس الإيمان في قلوب المدعوين، الذي هو محل
امتثالهم وتطبيقهم، هذا الإيمان الذي يمتثلون معه بكل المعروفات،
وينتهون به عن كل المنهيات، لا عن منكر واحد، فالناظرون في
عملهم لا يرون فيه قياما لإنكار المنكرات الظاهرة فورا، في المأمورين
أمامهم، فيظنون بذلك أنهم قاعدون عن هذه الشعيرة، زاهدون في
هذه الغاية!..

على أن الحقيقة في أصول عملهم، أنهم يبدأون برفع منسوب
الإيمان في المأمورين، عن طريق الوعظ والتذكير باللسان، وهي المرتبة
الثانية من مراتب تغيير المنكر بعد التغيير باليد، ومع كلام الإيمان والتذكير
وبيئة الإيمان، وبعث الصفات الإيمانية واليقين على قدرة الله ـ تعالى ـ،

وعلى وعده ووعيده، يتحصل مع المدعوين الإيمان، الذي يدفع أمامه كل المنكرات الظاهرة، والذي يرفع العجز عن الامتثال والتطبيق، إلى كامل الامتثال والطاعة، ويحول عدم القدرة على تنفيذ الأمر والنهي عند المأمورين أو أصحاب المعاصي، إلى المسارعة والمسابقة إلى الانقياد والطاعة، والإذعان للأمر والنهي بعد اكتمال الإيمان في قلوبهم..

فترى صاحب المنكرات الظاهرة يصاحبهم ويخرج معهم، في بيئة الإيمان مع منهج الإيمان، وما هي إلا أوقات يسيرة، فترتفع عنه منكراته الظاهرة، ويلتحف بلباس التقوى والطاعة، رغم أن أحدا منهم لم يخبره في بدأ الأمر، بأنك تفعل منكر كذا وكذا، بل فقط يبثون فيه روح الإيمان، ومع حياة الإيمان تخبو المنكرات، وترتفع المخالفات دون مدافعة أو مصدامة..

وهذا معلوم مشاهد قطعي، في كل من صاحبهم، وكان متلبس بهذه المنكرات قبل خروجه معهم، وثمرة التبديل والتغيير نتيجة بث هذا الإيمان عند صاحب المنكرات، يقينية غير ظنية، فكيف بعد ذلك يقال عنهم أنهم لا يغيرون المنكر، والمنكرات مع أصحابها في الأمة على أيديهم واقعا تتبدل وتتغير، من السرقة والقتل والإدمان وقطع الصلاة... إلخ.

إلى آخر قائمة الكبائر الموبقات، والتي يتحول أصحابها معهم إلى التقوى والطاعات، وهو الأمر الذي لا يحتاج في إثباته إلى برهان، ولا يتوقف إشاعته على دليل، وكم من شريد طريد صار وليا، وكم من فاسق باغ صار عبدا تقيا، كل ذلك بتوفيق الله ـ تعالى ـ لأهل هذه الدعوة، حيث ألهمهم أن يبدأوا بما بدأ به الوحي، من إشاعة الإيمان الذي هو أساس الامتثال والتطبيق..

فقبل طلوع الشمس يكون الفجر الصادق، والناس اليوم يدخلون في الدين أفرادا، وقبل طلوع شمس الهداية، الآن تكون هذه العلامات..

إذا قام المسلمون بنصرة الدين فالله ينصرهم ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، الأسد إذا نام تخرج جميع الحيوانات، وتمرح وتفعل ما تشاء، حتى الفأرة تصعد على رأسه، وتقف على شاربه، مع أنها ليس لها أي حيثية ونحن إذا قمنا لنصرة هذا الدين مع ضعفنا، فالله ينصر حسب شأنه سبحانه، والذي معه نصرة الله لا يُغلب أبدا..

نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا لطاعته وامتثال أمره وأن يجنبنا نواهيه، ومواضع سخطه إنه ولي ذلك والقادر عليه..

---

(١) سورة محمد الآية: ٧.

شروط الآمر بالمعروف
والناهى عن المنكر

الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر دعـامة الدين، وخـلافة النـبوة
..يدة الرسـالة، والقائم لهـذه الوظيـفة وتلك المسـئوليـة لابد له من
لأوصـاف والأدوات التي يتمكن بهـا من هذه الشـعيـرة، إحسـانا لا
سوءًا، وصلاحا لا فسادا، وإن لم تكن له هذه الأهلية وتلك الدرجة،
حـرج في أمره ونهـيه إلى الوقـوع في الكبـائر المحرمـات، والذنوب
الموبقات، وأفسد ولم يتبع سبيل المصلحين..

وقـد ذكر أئمـة الإسلام الشـروط الواجب توافرها، في من يأمـر
المعروف وينهى عن المنكر، وأكدوا عليهـا حتى لا يهملها غافل، ولا
ينسـاها لاهٍ، فأحكام هذه الشـعيـرة دقيـقة جليلة، لا تحـتمل العـبث
بأوامرها، أو التقصير فيها..

من هذه الشـروط الإسلام والـبلوغ والعقل، وتـتوج هذه الثـلاثة
..لعلم، فغير العالم يُخشى على قدمه أن تَزل في هذا الباب، فهو من
عـزائم الدين، وعظائـم الأمور، الـتي لا يقـوي عليـهـا إلا العلمـاء
.ربانيون، الفقـهاء بأحكام ومقاصد الشريعـة الغراء، الحافظون لمراتب
ودرجات الاحتساب، وكيف يقيمونها في الأمة..

فـإن غـيـر الفـقـيـه يوشك مع عـدم الأهليـة لـلنظر والبـحث
والاستـدلال، أن ينهى عن معروف أو يأمـر بمنكر، أو يسقط قـواعد
الشرع، أو أسس الأحكام، فـيغلظ في مقـام اللين، فيخـرج بإغلاظه
إلى المخالفـة، ويلين في موضع الإغـلاظ، فيفـوِّت المصالح، أو يُنكر
فتتسع مع إنكاره دائرة الشر، وكل ذلك مذموم من الشارع سبحانه غير
محمود، ولا هذا الآمر بهذه الأوصاف لهذه الشعيرة هو المقصود..

وإليك ما أورده الإمام أبو السعود في تفسير: ج٢ ص٦٧ في شروط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وأن من أهم هذه الشروط شرط العلم، الذي هو دليل الطالبين لهذا الباب، وهادي الحائرين لفقه الكتاب فقال - رحمه الله تعالى -: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ أمرهم الله - سبحانه - بتكميل الغير وإرشاده إثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهي تثبيتا للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بموجبها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الإخلال بها والجمهور على إسكان لام الأمر وقرئ بكسرها على الأصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالأمر أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل وهو أمة ويدعون صفتها أي لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير والأمة هي الجماعة التي يؤمها فرق الناس أي يقصدونها ويقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها ويدعون خبرها أي لتكن منكم أمة داعين إلى الخير وأيا ما كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين ولو أخل بها الكل أثموا جميعا لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها على ما ينبئ عنه قوله - عز وجل -: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾[1] الآية.

ولأنها من عظائم الأمور وعزائمها التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه - تعالى - ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها فإن من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهي عن معروف ويغلظ في مقام اللين ويلين في مقام الغلظة وينكر على من لا يزيده الإنكار إلا التمادي والإصرار

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٢.

وقيل (من) بيانية كما في قوله تعالى ﴿وعد اللهُ الَّذين آمنوا منكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1] الآية والأمر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمة يدعون الآية كقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية انتهى كلام الإمام أبي السعود.

وها هو العلامة الخرشي المالكي في شرح مختصر خليل يؤكد على شرط العلم لمن كان آمرا بمعروف أو ناهيا عن منكر، وأورد رحمه الله تعالى شرطين بفقدهما يحرم الأمر والنهي، وشرطا ثالثا بفقده يسقط الوجوب ويبقى الجواز أو الاستحباب..

أما الشرط الأول فالعلم لئلا ينهى عن معروف يعتقد أنه منكر أو يأمر بمنكر يعتقد أنه معروف..

وأما الشرط الثاني فأن يأمن ألا يؤدي إنكاره لمنكر أكبر منه، وبفقد هذين الشرطين يحرم أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر..

أما الشرط الثالث فأن يعلم أو يظن أن إنكاره يزيل المنكر، وأن أمره بالمعروف مؤثر فيه ونافع، وبفقد هذا الشرط يسقط الوجوب ويبقى الجواز أو الندب والاستحباب..

كما أنه قرر رحمه الله - تعالى - أن العدالة في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ليست شرطا على المشهور فقال - رحمه الله تعالى - في شرح مختصر الخليل: «والمعنى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية بشروط أن يكون الآمر عالما بالمعروف والمنكر لئلا ينهى عن معروف يعتقد أنه منكر أو يأمر بمنكر يعتقد أنه معروف وأن يأمن أن يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر منه، مثل أن ينهى عن شرب خمر

(١) سورة النور الآية: ٥٥.

فيـؤدي إلى قتل نفس ونحـوه، وأن يعلم أو يظن أن إنكاره يُزيل المنكر وأن أمره بالمعروف مؤثر فيه ونافع. وبفقد الشرطين الأولين يحرم الأمر والنهي وبفقد الثالث يسقط الوجوب ويبقى الجواز أو الندب والمشهور عدم اشتراط العدالة وإذن الإمام»انتهى كلام الإمام الخرشي.

أقول: ولقد شرط الأئمة العلم لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في دقائق الأمـور، حتى لا يقع الإنسـان في التحريم وهو لا يشـعر، فهـذا الدين لا يصلح إلا بهـدي النبوة في كل الأعـمال، جـاء رجل لشـيخ من أهـل الدعـوة وقـال له: لماذا لا تنهـون عن المـنكر، وأنتم خارجـون في سبيل الله؟ أو وأنتم في أحيائكـم وبلادكم؟ وضرب له مثلاً بالذين يتـمسحون بالقبـور، ومنها قبر أحد الصـحابة، قال وهذ الفعل شرك ظاهر بالله تعالى، وأنتم لا تنهونهم عن ذلك..

فرد عليـه هذا الشيخ فقـال: هل حديث «**من رأى مـنكم منكراً فليغيره**» لأهل الدعوة فقط أم لعموم الأمة، ولجميع المسلمين..

فـقال الرجل: بل لجـميع الأمـة، فـقال له الشـيخ: إذن لماذا لم تنههم أنـت؟ فقال: أنا ذهبت لهم ونهـيتـهم فلم ينتهـوا!، فأغلظت عليهم القول فجادلونـي!، فسببتهم فسبوني!، فـضربتهم فضربوني!. وكدنا نتقاتل، وفي النهاية تركـتهم وهم على منكرهم أشد مما سبق!. وأكثر تمسكا به عما كانوا عليه..

فقال الشيخ: هل حديث النبي ﷺ فيه فاشتمهم واضربهم؟ فرد الرجل: لا..

فقـال الشيخ: لو أنك ذهبت إليـهم، وقلت لهم: هذا الصـحابي الجليل الذي بداخل القبر، كان عنده التـوحيد الكامل، وكان لا يسـ

. الله ـ تعالى ـ، وكان يخدم الناس، ويحبهم وينصحهم ويرشدهم ى الدين، ويحرص على هدايتهم وهو حي، فكيف نكون في حياتنا منه في حياته، وكيف نقضي حاجاتنا ونقوم لوظيفتنا ومسئوليتنا مثل رسول ﷺ، ومثل هذا الصحابي الجليل، هنالك يقبلون منك، ولا يكون منهم الدفع والرد، وحينئذ تقول أنت لهم: الرسول ﷺ كان متفكرا في الحل الشامل، لكل مشاكل البشرية في الدنيا والآخرة، نريدكم معنا في المسجد حتى نتعلم ونعرف ونتمرن، كيف نقضي حاجاتنا مثل الرسول ﷺ والصحابة والتابعين والعلماء، وكيف نعبد الله ـ تعالى ـ ونوحده بالطريق الصحيح..

وهكذا وبأمثال ذلك نتحدث إليهم، بالحكمة وبالموعظة الحسنة وبالرحمة عليهم، حتى يأتوا إلى بيئة المسجد، فيكون هنالك التغيير، بالطريقة الصحيحة، وفقًا لهدي النبوة، لأنهم يُخطئون بسبب مشاكلهم وضعف إيمانهم، ويريدون الحل لهذه المشاكل» انتهى.

وقد ذكر لنا أحد الدعاة من أهل الدعوة: «أنه في بلد من البلاد خرجت مجموعة من أهل الدعوة، تدعو حول المسجد، فرأت أحد المسلمين، فلما دعوه إلى المسجد، قال: أنا ما دخلت المسجد في حياتي، وأنا أشرب الخمر!

فقال له المتكلم: الله ـ عزو جل ـ خلق الجنة للمسلمين، واختارهم واصطفاهم لتوحيده وعبادته، ثم يكافئهم بعد ذلك بدخول هذه الجنة والتنعم فيها، وأنت مسلم، ونحن لذلك نحبك لمحبة الله لك، فأخذوه بالمجاملة والحكمة، وعلموه الوضوء، وبعد صلاة العشاء استمع إلى كلام الإيمان وعظمة الله ـ تعالى ـ، فاستعد

للخروج ثلاثة أيام، وبعد يومين من خروجه معهم في الدعوة، ووجوده في بيئة الإيمان، مع الصلاة وحلقات التعليم، وسماع فضائل الأعمال، والذكر وتلاوة القرآن، تأثر وتاب الله عليه، فكان يقوم بالليل يصلي ويبكي..

وفي اليوم الثالث أستعد للدعوة، والخروج معهم مدة أطول ليتحصل على الإيمان، وما أن أنتهت هذه المدة الطويلة، حتى كان قد ترك شرب الخمر، واللهو واللعب والغفلة، وصار يتكلم عن الله - تعالى - وعن محبته، يدل في ذلك الشاردين عليه، ويوجه البعيدين نحوه»انتهى.

فنحن إذا خالطنا الناس بحسن الخلق، يكون في ذلك إصلاح قلوبنا «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**» ونحرص في كل ذلك على نشر المحبة فيما بيننا وبين عموم المسلمين، لنتحصل على كمال الإيمان، الذي هو الأساس لدخول الجنة «**لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم**».

فالدعوة بأسلوب الرسول ﷺ تأتي بالثمرة المرجوة، فحياة وسنة الرسول ﷺ غالية ومشرفة، وهي مثال لنا جميعا، والله قد أقسم بها تشريفا وتكريما لحبيبه ﷺ، ولم يقسم سبحانه بحياة أحد من الأنبياء قبله فقال - عز وجل -: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٧٢.

ونحن إذا نهينا عن المنكر بغير هديه ﷺ ، فلن تزول المنكرات بل تتسع وتتوالى، ويتولد عن ذلك منكر أشد، أكثر من المنكر الذي كان موجودا، مما يُعد معصية لله ـ تعالى ـ ولرسوله ﷺ ، فكيف يتحرك الإنسان لتغيير المنكر؟

الأمر والنهي مطلوبان ولكن بقيود وشروط، كذلك التغيير ولكن بحكمة، وإلا ترتب عليه منكر أعظم منه، مثل الدبة التي قتلت صاحبها، هي كانت تحبه، فعندما وقعت الذبابة على رأسه، طردتها حتى لا تؤذيه، فعادت الذبابة فطردتها، فعادت فتركتها حتى وقعت على رأسه، ثم أخذت صخرة كبيرة، وقالت في نفسها هذه الصخرة العظيمة لن تستطيع الذبابة أن تفر منها، ثم ضربت بها الذبابة لتقتلها، وتمنعها من إيذاء صاحبها، دون أن تتفكر في عاقبة فعلها، ومدى ضرره عليه، فطارت الذبابة، وهشمت رأس صاحبها وقتلته، لعدم الحكمة، ورعونة الفكرة.

أقول: لذلك كان العلم والفقه من أهم شروط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، خاصة إذا كان في دقائق الأمور وهو عامي، لأن العلم هو الأساس في ترتيب إقامة الأمر والنهي، حيث يبدأ فيه بالأسهل فالأسهل، ولا ينتقل إلى العسير في وجود اليسير، **قال العلامة النسفي في تفسيره ج١ ص١٧١ وهو يوضح أهمية العلم في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر:**

«ومن للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ولأنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته فإنه يبدأ بالسهل فإن لم ينفع ترقي إلى الصعب قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فأصلحوا بينهما﴾ ثم قال: ﴿فقاتلوا﴾ أو للتبيين

أي وكونوا أمة تأمرون كقوله ـ تعالى ـ: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف... وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الأخصاء بالفلاح الكامل» انتهى كلام الإمام النسفي.

قلت: وقد ورد في حديث النبي ﷺ أهمية الفقه والعلم لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، حتى يستطيع التمييز بين المعروف والمنكر، إضافة إلى الرفق في أمره ونهيه، حتى لا يكون الانفضاض من حوله، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]، على أن يكون هذا الرفق مصحوبا بالحلم، ليتحمل بهذا الحلم الإيذاء والتكذيب والدفع والرد، وتتحقق فيه فضيلة الصبر، **وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية الحنبلي في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص١٣٦: «فلابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما. ولابد من العلم بحال المأمور والمنهي. ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود ولابد في ذلك من الرفق، كما قال النبي ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه»[2] وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[3].**

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

(٢) رواه الإمام مسلم ٤/ ٢٠٠٤ «باب فضل الرفق» ح (٢٥٩٤)، ورواه الإمام أبو داود ٣/ ٣، ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٢٤١، ورواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٣.

(٣) رواه الإمام البخاري «باب الرفق في الأمر كله» ح (٥٦٧٨)، ورواه الإمام مسلم ٤/ ٢٠٠٣ «باب فضل الرفق» ح (٢٥٩٣)، ورواه الإمام أبو داود ٤/ ٢٥٤ «باب في الرفق» ح (٤٨٠٧)، ورواه الإمام ابن ماجه ٢/ ١٢١٦ «باب الرفق».

ولابد أيضًا أن يكون حليما صبورا على الأذى، فإنه لابد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1] أمر الله الرسل - وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - بالصبر، كقوله لخاتم الرسل، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة، فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ بعد أن أنزلت عليه سورة ﴿اقرأ﴾ التي بها نبئ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾[2] فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر. وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[4] ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[5] ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[6] ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[7] ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[8].

فلابد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر. العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبا في هذه الأحوال، وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعا، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: «لا يأمر بالمعروف وينهى

---

(١) سورة لقمان الآية: ١٧.
(٢) سورة المدثر الآية: (١:٧).
(٣) سورة الطور الآية: ٤٨.
(٤) سورة المزمل الآية: ١٠.
(٥) سورة الأحقاف الآية: ٣٥.
(٦) سورة القلم الآية: ٤٨.
(٧) سورة النحل الآية: ١٢٨.
(٨) سورة هود الآية: ١١٥.

عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به، فقيها فيما ينهى عنه، رفيقا فيما يأمر به، رفيقا فيما ينهى عنه، حليما فيما يأمر به، حليما فيما ينهي عنه».

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس، فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه، وذلك مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل، فإن ترك الأمر الواجب معصية، فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار، والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل، وقد يكون الثاني شرا من الأول، وقد يكون دونه، وقد يكونان سواء، فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي والمعتدي فيه قد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكونان سواء» انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

أقول: الذي هو موجود عندنا هو الذي يتحرك، تبعا لنياتنا ومقاصدنا، لو عندنا الإخلاص، فالإخلاص يتحرك في الناس، والشيء الذي تمتلئ به قلوبنا هو الذي ينتشر، لو في قلوبنا الحلم والخشية والرفق، ينتشر الحلم والخشية والرفق في الأمة..

ونحن إذا عاملنا شخصا سيئ الأخلاق بالأخلاق، نربطه معنا ﴿ادفع بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذي بَيْنَكَ وبينهُ عداوةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ﴾[1] وهذه الأخلاق تؤثر ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ﴾ هنا لك لا تستوي الحسنة ولا السيئة، فالذين يريدون ايذاءنا يعطون أنفسهم للدفاع عنا، ولكن بالأخلاق التي ننشرها والصفات التي لنا، الآن كل إنسان ينظر ماذ

---

(١) سورة فصلت الآية: ٣٤.

حقي على الناس، ولا ينظر ماذا حق الناس عليَّ، والله تعالى يمن بالعطايا والفضل من عنده على حسب العفو ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

أولا نعبد الله ونوحده، ثم نستعين به وندعوه، ونُؤثر الآخرين على أنفسنا، وهذا يأتي بربط وجمع القلوب، فكل من يحيا على وجه الأرض يتحرك من أجل سبيل الروحانية، ولو تركنا هذا السبيل تظهر الصدامات والخلافات، للبعد عن منهج النبوة..

إذا ذكرنا الله ـ تعالى ـ من حيث العبادة فالله يذكرنا عن طريق العناية والرعاية، وفي كل وقت نحن لا نيأس من رحمة الله ونصرته لهذا الدين..

لأننا إذا أصلحنا ما بيننا وبين الخالق عن طريق العبادة، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يصلح ما بيننا وبين المخلوق عن طريق الأخلاق، ومعاملاتنا مع المخلوق تحدد معاملة الله معنا، امرأة عابدة دخلت النار في هرة ظلمتها ثم حبستها فلم تطعمها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، وبغى أدخلها الله الجنة، لأنها سقت كلبا قد أضر به العطش..

وها هو الإمام ابن كثير في ج١ ص٣٩١ يبين أن القيام لأمر الله ـ تعالى ـ في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي وظيفة خاصة الأمة، من الصحابة والرواة والمجاهدين والعلماء، ولابد أن تكون هنالك فرقة من هذه الأمة، تتحمل هذه المسئولية وتتكلف بهذا الشأن، وان كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كل بحسبه، فقال الإمام ابن كثير: «يقول تعالى ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

عن المنكر وأولئك هم المفلحون قال الضحاك هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء، وقال أبو جعفر الباقر قرأ رسول الله ﷺ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ثم قال: الخير إتباع القرآن وسنتي رواه ابن مردويه والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه» انتهى كلام الإمام ابن كثير.

أقول: وهذا الذي قرره الإمام ابن كثير من كون المقصود من هذه الآية؛ أن تكون فرقة من هذه الأمة، متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، هو الذي بينته آيات كثيرة في القرآن، من أن مطلوب الله ـ تعالى ـ من هذه الأمة هو الانتصاب للقيام بأمر الله تعالى في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ذهب أهل السنة إلى أنه ليس من شروط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر العدالة، فقد نص القاضي أبو بكر بن العربي المالكي على أن من الشروط اللازم توافرها فيمن تصدى لهذه الشعيرة الإسلام والبلوغ والقدرة، ثم بين أن العدالة ليست شرطًا في القائمين بهذا الواجب، خلافا للمبتدعة الذين يشترطون العدالة في من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر..

فقال رحمه الله في أحكام القرآن ج١ (وقد بينا في كتاب المشكلين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآياته وأخباره وشروطه وفائدته وسنشير إلى بعضه ها هنا فنقول: المسلم البالغ القادر يلزمه تغيير المنكر، والآيات في ذلك كثيرة، والأخبار متظاهرة، وهي فائدة الرسالة وخلافة النبوة، وهي ولاية الإلهية لمن اجتمعت فيه الشروط المتقدمة.

وليس من شرطه أن يكون عدلا عند أهل السنة وقالت المبتدعة: لا يغير المنكر إلا عدل، وهذا ساقط، فإن العدالة محصورة في قليل من الخلق، والنهي عن المنكر عام في جميع الناس. فإن استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾[1] وقوله تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[2] ونحوه قلنا: إنما وقع الذم ها هنا عن ارتكاب ما نهي عنه، لا عن نهيه عن المنكر.

وكذلك ما روي في الحديث من «أن النبي ﷺ رأى قوما تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقيل له: هم الذين ينهون عن المنكر ويأتونه، إنما عوقبوا على إتيانهم»[3]. ولا شك في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه عند فاعله فيَبعُدُ قبوله منه.

وأما القدرة فهي أصل، وتكون منه في النفس وتكون في البدن ان احتاج إلى النهي عنه بيده» انتهى.

قلت: وقد نص جمع من الأئمة على أن العدالة ليست شرطا في المتصدرين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان ذلك قادحا فيهم أمام المأمورين، وهم ملامون على فعلهم المعصية وتركهم الطاعة مع علمهم بذلك، فليس من يعلم كمن لا يعلم، لأنه لو لم يأمر وينهى إلا من لا يكون فيه شيء فلن يأمر وينهى أحد، فالمعافاة من الذنوب عزيزة نادرة قليلة في الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(1) سورة البقرة الآية: ٤٤. (٢) سورة الصف الآية: ٣.

(3) رواه الإمام ابن حبان ١/ ٢٤٩ «باب ذكر وصف الخطباء الذين يتكلون على القول دون العمل حيث رآهم النبي ﷺ ليلة أسري به» ح (٥٣)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ١٢٠، ورواه الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٧٦ وقال في أسانيد الحديث رواها كلها أبو يعلى والبزار ببعضها والطبراني في الأوسط وأحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح.

المنكر عــام، وقد ذهب الإمـام ابن كثير الشـافعي في تفسيره إلى أن العالم علـى الصحيح يأمـر بالمعروف وإن لـم يفـعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ في ج١ ص٨٦:

«والفـرض أن الله ـ تعالى ـ ذمـهم على هذا الصنيـع ونبهـهم على خطئهم في حق أنفسـهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركـهم له بل على تركهم له فإن الأمر بالمعـروف مـعروف وهو واجـب على العـالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفـعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عـنهم كما قال شـعيب عليه السلام ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1].

فكلٌ من الأمـر بالمعروف وفـعله واجب لا يسقط أحـدهما بفـعل الآخر علـى أصح قولي العلمـاء من السلف والخلف وذهب بعضـهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيـره عنها وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهـذه الآية فإنه لا حجـة لهم فيـها والصـحيح أن العـالم يأمر بالمعـروف وإن لم يفـعله وينهى عن المنكر وإن ارتـكبه قـال مـالك عن ربيعة سمعت سعيد بن جـبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء مـا أمر أحـد بمعروف ولا نهى عن منكر قـال مـالك وصـدق: من ذا الذي ليس فـيـه شيء قلت لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيـرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهـذا جاءت الأحاديث في الوعيد عـلى ذلك كما قال الإمام أبو الـقاسم الطبراني في معـجمه الكبير حـدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علـي العمري قالا حدثنا هشـام بن عمار حدثـنا علي بن سليمان الكلبي حـدثنا الأعمش

---

(١) سورة هود الآية: ٨٨.

عن أبي تميمة الهجيمي عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»[1] هذا حديث غريب من هذا الوجه»انتهى.

أقــول: وقد ذهب أهل السنة إلى أنه الأظهـر للعاصي، أن يأمر بالمعــروف وينـهى عن المنكر، فــإن الـنهي عن المنكـر لازم ولو من مرتكبه، والفاسـق يعظ من يأتون مثل معصيته، فـإن عليه في كل أمر واجبـان، أن يأمر نفســه وينهاها، وأن يأمر غـيره وينهاه، فـإذا سقط أحدهما وهو نهيه لنفسه، لا يسقط الآخر وهو نهيه لغيره..

على أن التارك للانتهاء مع نهي غيره حقه الخوف من العاقبة، وقد بين الإمام الآلوسي هذه المعـاني في تفسيـره روح المعاني ج١ ص٢٤٨ حـيث قـال ـ رحمـه الله تعـالى ـ في تفـسـير قـول الله عـز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2] «لا حجة فـيها لمن زعم أنه ليس للعـاصي أن يأمـر بالمعـروف وينهى عن المـنكر لأن التـوبيخ على جمع الأمـرين بالنظر للثاني فقط لا منع الفـاسق عن الوعظ فإن النهي عن المنكر لازم ولو لمـرتكبـه، فإنَّ تـرك النهي ذنب وارتكابه ذنبًـا آخـر وإخـلاله بأحـدهمـا لا يلزم منـه الإخـلال بالآخـر ثم إن هذا التـوبيخ والتقريع وإن كان خطابا لبني إسرائيل إلا أنه عام من حيث المعنى لكل واعظ يأمـر ولا يأتمـر ويزجـر ولا ينزجـر ينادى النـاس البـدار البـدار ويرضى لنفـسـه التـخلف والبـوار ويدعـو الخلـق إلى الحق وينفـر عنه ويطالب العوام بالحقائق ولا يشم ريحها منه وهذا هو الذي يُبدأ بعذابه قبل عبدة الأوثان ويعظم ما يلقى لوفور تقصيره يوم لا حاكم إلا الملك الديان، وعن محـمـد بن واسع قـال: بلغني أن أناسـا من أهل الجنة

(١) رواه الإمام الديلمي في مسند الفردوس ٣/ ٧٣.

(٢) سورة البقرة الآية: ٤٤.

اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة قالوا: كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها» انتهى كلام الإمام الآلوسي.

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ في التفسير أيضًا ج٤ ص٢٢:

«والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه نهى كل فاعل وترك نهي بعض وهو نفسه لا يسقط عنه وجوب نهي الباقي وكذا يقال في جانب الأمر ولا يعكر على ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1] لأنه مؤول بأن المراد نهيه عن عدم الفعل لا عن القول ولا قوله ـ سبحانه ـ: أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم لأن التوبيخ إنما هو على نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن بعض السلف مروا بالخير وإن لم تفعلوا» انتهى.

قلت: وقد أورد الإمام القرطبي في تفسيره عن حذاق أهل العلم أن العصاة ينهى بعضهم بعضا، وعن بعض الأصوليين أنه لو اجتمع من العصاة من يعاقرون الخمر، فإنه فرض عليهم أن ينهى بعضهم بعضا عن تعاطيها، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ ج٢ ص٢٢٥٠: قوله تعالى ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾.

الثانية: قال ابن عطية: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذَا المنكر ولا يخالطه وقال حذّاق أهل العلم: وليس من شرط الناهي أن يكون سليما عن معصية بل ينهى العصاة بعضهم بعضا. وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكئوس أن ينهى بعضهم بعضا واستدلوا بهذه الآية، قالوا: لأن قوله ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2] يقتضي اشتراكهم في

---

(١) سورة الصف الآية: ٣.
(٢) سورة المائدة الآية: ٧٩.

الفعل وذمهم على ترك التناهى. وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين وأمر بتركهم وهجرانهم وأكد ذلك بقوله في الإنكار على اليهود ﴿ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا﴾»انتهى.

أقول: فليس من شرط الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يكون صاحبهما معصوما من المعاصي، وليس من شرطه أيضًا أن يعمل أولاً ثم يدعو، أو يجتنب ثم يدعو، لأن العصمة ليست لأحد في ذلك، ولو طبقنا هذا لأدى لانتهاء الدعوة في العالم، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية، ولكن على كل من الداعي إلى الله ـ تعالى ـ، والآمر بالمعروف أن يكون ممتثلا بالأوامر ما وجد إلى ذلك سبيلا، لأن ذلك أدعى إلى القبول في آذان السامعين، وقدوة صالحة لأعين الناظرين المعتبرين..

وإن شئت فانظر معي إلى الإمام الغزالي، وهو يرد في الإحياء على شبهات الذين اشترطوا العدالة، في من يأمر وينهى، مؤكدا عدم اشتراط ذلك فيه، بالأدلة الجليَّات، والبراهين الواضحات، فقال رحمه الله تعالى ج٢ ص٣٠٨: (الشرط الثالث وهو: العدالة فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب، وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى ـ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ـ وقوله تعالى ـ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ـ وبما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه»**[1] وبما روي أن الله تعالى

---

(١) سبق تخريجه.

أوحى إلى عيسى ﷺ: **«عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني»**[1].

وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتداء وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره ومتى يستقيم الظل والعود أعوج وكل ما ذكروه خيالات وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب وبرهانه هو أن نقول هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي كلها فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلا عمن دونهم والأنبياء عليهم السلام قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء، ولهذا قال سعيد بن جبير: إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحد بشيء فأعجب مالكا ذلك من سعيد بن جبير وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغائر حتى يجوز للابس الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر فنقول: وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر فإن قالوا لا خرقوا الإجماع إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الايتام ولم يمنعوا من الغزو لا في عصر رسول الله ﷺ ولا بعده فإن قالوا نعم فنقول: شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا فإن قالوا لا قلنا فما الفرق بينه وبين لابس الحرير إذ جاز له المنع من الخمر والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب

---

(١) رواه الإمام الديلمي في مسنده ١/ ١٤٤، ورواه الإمام أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٨٢، وأورده الإمام ابن أبي عاصم في كتاب الزهد ١/ ٥٤.

ـسبة إلى لبس الحرير فلا فرق، وإن قالوا نعم وفصَّلوا الأمر فيه بأن كل مقـدم على شيء فلا يمـنع عن مثله ولا عـما دونه وإنما يمنع عـما فوقه فهذا تحكم فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعـد أن يمنع الزاني من الشرب بل من أين يبعـد أن يشرب ويمنع غلمانه وخدمه من الشرب ويقـول يجب عليّ الانتهاء والنهي فمن أين يلزمني من العصيان بأحدهما أن أعصي الله - تعالى - بالثاني وإذا كان النهي واجبا عليّ فـمن أين يسقط وجوبه بإقدامي إذ يستـحيل أن يقال يجب النهي عن شرب الخـمر عليه ما لم يشرب فـإذا شرب سقط عنه النهي. فإن قيل فيلزم على هـذا أن يقول القائل الواجب عليّ الوضوء والصلاة فأنا أتوضأ وإن لم أصل وأتسـحر وإن لم أصم لأن المستحب لي السحـور والصوم جمـيعا ولكن يقـال أحدهما مـرتب على الآخر فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفـسه فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول والجواب أن التسحر يراد للصوم ولولا الصوم لما كان التـسحر مستحبا وما يراد لغيـره لا ينفك عن ذلك الغير وإصلاح الغـير لا يراد لإصلاح النفس ولا صلاح النفس لإصلاح الـغير فالقول بتـرتيب أحدهما على الآخر تحكم، وأمـا الوضوء والصـلاة فهـو لازم فلا جرم أن مـن توضأ ولم يصلّ كان مؤديا أمـر الوضوء وكان عقابـه أقلّ من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعا فليكن من ترك النهي والانتهاء أكثر عقابا ممن نهى ولم ينته كيف والوضوء شرط لا يـراد لنفسه بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة. وأمـا الحسبة فليســت شرطا في الانتهاء والائتـمار فلا مشابهة بينهما» انتهى كلام الإمام الغزالي.

أقـول: وها هو الإمام السفاريني الحنبلي في غذاء الألباب شرح منظومة الآداب يلخص لنا شروط الآمـر بالمعروف والناهي عن المنكر، وأنه واجب حتى على من عنده نوع من المعصيات، وعلى من يشاركه في المعصـية، بإذن الإمام وبغـير إذنه، وقد بـسط الكلام في الشروط الواجب توافرها فيمن يأمر وينهى فقال رحمه الله تعالى ج١ :

(مطلب: هل يشترط للأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر العدالة؟)

ولو كان ذا فسق وجهل وفي سوى الذي قيل فرض بالكفاية فاحْدُدْ

(ولو كـان) ذلك الشخص الآمـر بالمعروف والناهي (ذا) أي صـاحب (فسق) بأن فعل كبيرة ولم يتب منها أو أصرًّ على صغيرة، إذ ليس من شـرط الأمـر بالمعروف والـنهي عن المنكر أن يكون فـاعله عـدلا في المعتمد، بل الإمام والحـاكم والعالم والجاهل والعدل والفاسق في ذلك سواء كما في الآداب الكبرى.

وإنما أشار الناظم بلو المفيدة للخلاف خلافـا لقوم اعتبروا في الآمر والناهي العـدالة. قال في الآداب الكبـرى: قال قـوم: لا يجوز لفـاسق الإنكار. وقـال آخـرون: لا يجـوز إلا لمن أذن له ولي الأمـر. انتـهى. والصحيح عدم اعتبـارهما. وقال الإمام ابن الجوزي: الكافر ممنوع من إنكار المنكر لما فـيه من السلـطنة والعز. وقـال ابن مُفلح: وللمـميـز الإنكار ويثاب عليـه ولا يجب. نعم ينبغي أن لا يخالف قـوله فعله، بل يأمر بالمعروف ويأتمر به، وينهى عن المنكر وينزجر عنه. فقد أخرج البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد ﵄ قال سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «**يؤتي بالرجل يوم القيـامة فيلقى في النار فتندلق أقـتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فـيجتمع إليه أهل النار فيقولون**

يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»[1] وفي رواية لمسلم قال: قيل لأسامة: لو أتيت عثمان فكلمته، فقال إنكم لترون أني لا أكلمه إلا أن أسمعكم، وأني أكلمه في السر دون أن أفتح بابا لا أكون أول من فتحه، ولا أقول لرجل إن كان عليَّ أميرا أنه خير الناس بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ قيل وما هو قال سمعته يقول: **«يجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ما شأنك أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه»**[2]. وإني سمعته يعني النبي ﷺ يقول **«ليلة أسرى بي مررت بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت من هؤلاء يا جبريل، قال خُطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون»**[3] قال الحافظ المنذري: الأقتاب الأمعاء واَحدُها قِتبٌ بكسر القاف وسكون التاء، وتندلق أي تخرج. وروي الطبراني بإسناد حسن عن جندب بن عبدالله الأزدي صاحب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **«مثل الذي يُعلِّمُ الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يُضيء للناس ويحرق نفسه»**[4] ورواه البزَّار من حديث أبي برزة إلا أنه قال (مثل الفتيلة). وروي الطبراني في الكبير والبزار عن

---

(١) رواه الإمام مسلم ٤/ ٢٢٩٠ «باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله» ح (٢٩٨٩)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٠٧، ورواه الإمام الديلمي في مسنده ٥/ ٤٦٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

عمران بن حصين ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان**»[1] وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُبصر أحدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عينه**»[2].

وأنشد الإمام ابن مفلح في فروعه لبعضهم:

عجبت لمن يبكي على موت غيره ... دموعا ولا يبكي على موته دما

وأعجب من ذا أن يرى عيب غيره ... عظيما وفي عينيه عن عيبه عمى

وأنشد في الآداب الكبرى لأبي العتاهية في ابن السَّمَّاك الواعظ:

يا واعظ الناس قد أصبحت مُتهما ... إذ عبت منهم أمورا أنت آتيها

كالملبس الثوب من عُرى وعورته ... للناس بادية من أن يواريها

وأعظم الإثم بعد الشرك تعلمُهُ ... في كل نفس عماها عن مساويها

عرفانها بعيوب الناس تبصرها ... منهم ولا تُبصر العيب الذي فيها

وذكر الإمام الحافظ ابن رجب في كتابه لطائف المعارف قال: كان يحيى بن معاذ ينشد في مجلسه:

مواعظ الواعظ لن تقبلا ... حتى تعيها نفسه أولا

يا قوم من أظلم من واعظ ... خالف ما قد قاله في الملا

أظهر بين الناس إحسانه ... وبارز الرحمن لما خلا

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ١/ ٢٢، ورواه الإمام ابن حبان ١/ ٢٨١، ورواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٨٤.

(٢) رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد ١/ ٢٠٧، ورواه الإمام ابن حبان ١٣/ ٧٣، ورواه الإمام الديلمي في مسنده ٥/ ٥٢٠، ورواه الإمام أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٩٩.

وأنشد لأبي العتاهية قوله:

وبَّخت غيرك بالعمى فافدتهُ بصرا وأنت محسنٌ لِعَماكا
وفتيلهُ المصباح تحرق نفسها وتضيء للأعشى وأنت كذاكا

وذكر أن في بعض الكتب القديمة السالفة: «إذا أردت أن تعظ الناس فعظ نفسك، فإن اتعظت وإلاّ فاستح مني»، ثم أنشد:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يُداوي الناس وهو سقيم

وأنشد أيضًا:

يأيها الرجل المقوم غيره هلا لنفسك كان ذا التقويم
فأبدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ما تقول ويُقتدى بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خُلق وتأتي مِثلهُ عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

ولما جلس عبدالواحد بن زيد الواعظ اتته امرأةٌ من الصالحات فأنشدته:

يا واعظا قام للاحتساب يزجر قومه عن الذنوب
تنهى وأنت المريب حقا هذا سَنٌ المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا عيبك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبي موقع صدق من القلوب
تنهى عن الغي والتمادي وأنت في النهي كالمريب

قال في اللطائف: قال رجل لابن عباس ﵄: أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فقال إن لم تخشى أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل وإلا فأبدأ بنفسك، ثم تلا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1] وقال تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[2] وقوله تعالى حكـاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[3] فإن قلت: هذه الأخبـار الصحيحـة أو الآثار الصريحة تُعـيِّنُ اعتبار عـداله الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر. فالجـواب أن هذا هو الأكمل والأفضل. ونحن نقول يجب على كل مـؤمن أن يكون تقيا عـدلا، ولكن فلابُدَّ للناس من الأمـر بالمعروف والنهي عـن المنكر. ولو لم يعظ الناس إلا معصوم أو مـحفوظ لتعطل الأمر والنهي مع كونـه دعامة الدين، وقد قيل:

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب   فمن يعظ العاصـين بعد محمد»

انتهى.

وقال الإمام السفاريني أيضًا في شرح منظومة الآداب ج١ في شروط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر: «وقيل للحسن البصري: إن فلانا لا يعظ ويقول أخـاف أن أقول مـا لا أفعل. فقـال الحسن: وأيَّنا يفـعل ما يقول؟ وَدَّ الشيطان أنه قد ظفر بهـذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر. والحاصل أنـه يجب على كل مؤمن مع الشـروط المتقدمـة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو فـاسقا أو بغير إذن ولـي أمر حتى على جلسـائه وشُركـائه في المعصـية وعلى نفـسه فـينكر عليهـا، لأن الناس مُكلفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» انتهى.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٤.
(٢) سورة الصف الآية: ١، ٢.
(٣) سورة هود الآية: ٨٨.

فالله تعالى رزق الإنسان صلاحيته لجميع الأعمال التي ترضيه، والإنسان مركب من جسد وروح، وغذاء الروح من السماء، وهو في الامتثال لأوامر الله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾.

أما غذاء الجسد فمن الأرض، وهي ملذات الطعام والشراب وغيرها، غذاء الروح نتحصل عليه بأعمال الإيمان والطاعة وامتثال أوامر الله، وغذاء الجسد وفق تقدير الله في أرزاقنا، وإذا وجد إنسان أن جسده موافق لروجه فعليه أن يستبشر بالخير، ولكن كيف يعرف ذلك؟، يعرف ذلك بأن يجد الجسد لذته في امتثال أوامر الله ـ تعالى ـ، وكلما قوي على الامتثال كلما زاد قوة الاثنين، فيجد قوته ولذته في الصلاة وفي الطاعة وفي الاجتهاد لنصرة الدين..

النبي ﷺ فى تغييره للمنكر كان على أربعة أقسام

النبي ﷺ في تغييره للمنكر في الأمة، تعامل معها على أربعة أقسام، قسم كامل الإيمان وكامل العلم بالأحكام، وقسم كامل الإيمان قليل العلم بالأحكام، وقسم قوي العلم بالأحكام بعيد عن بيئة الإيمان، وقسم قليل العلم بالأحكام بعيد عن بيئة الإيمان . .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يختلف باختلاف المكلفين، ولقد تعامل النبي ﷺ مع هذه الأصناف كلها، إلا أن رسول الله ﷺ مع البعد عن بيئة الإيمان في كل قسم، كان يتحول في طريقة تغييره للمنكر معه، وينتقل به مع البعد عن بيئة الإيمان في كل مرحلة إلى الأخف والأرفق، والألين والأسهل، فلابد في تغيير المنكر من النظر إلى استعداد الناس، فليس كل ما يُعرف يقال، وليس كل ما يقال حضر أهله، وليس كل ما حضر أهله حضر وقته . .

فأول الأقسام التي تعامل معها النبي ﷺ هو **كامل الإيمان كامل العلم بالأحكام**، ومثاله قصة كعب بن مالك رضي الله عنه في غزوة تبوك، عند تخلفه وصاحبيه عن الجهاد الواجب مع النبي ﷺ في هذه الغزوة، حتى أمر النبي ﷺ بهجرهم، وتواصل هذا الهجر حتى بلغ خمسين ليلة، وقد كان هناك أناس كثيرون من أهل النفاق تخلفوا عن هذه الغزوة، ولم يعاقبهم النبي ﷺ بمثل ذلك، ولم يهجرهم رسول الله ﷺ رغم أن المخالفة في الحالين واحدة، وهو ترك الجهاد الواجب المتعين مع رسول الله ﷺ بغير عذر، ورغم أن النبي ﷺ كان يعلم بنفاق الآخرين وضلالهم، وأنهم مع تركهم الجهاد الواجب أضافوا إلى ذلك كذبهم على رسول الله ﷺ .

أقول: ففي حديث سيدنا كعب ﷺ وتخلفه وصاحبيه عن غزوة تبوك، تظهر ملامح القسم الأول من الأمة، الذي تعامل معه النبي ﷺ في تغيير المنكر، وهو كامل العلم كامل الإيمان، ونرى ذلك في صفات كعب بن مالك ﷺ، التي يتضح معها كمال علمه وكمال إيمانه ﷺ، فمن هذه الصفات قوله في الحديث: «**لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك**» وهذا برهان على كمال إيمانه، حيث حرص على المحافظة على ذروة سنام الإسلام مع النبي ﷺ في كل غزواته، ومنها أيضًا قوله: «**ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها**» ففي هذه الفقرة من الحديث إشارة إلى كمال علمه ﷺ، حيث قام مقام الترجيح بين ليلة العقبة ويوم بدر، مع كون بدر أذكر في الناس، وعلم فضل وشرف ليلة العقبة، وهي التي بايع فيها الأنصار ﷺ النبي ﷺ على الإسلام وعلى أن يؤووه وينصروه في السنة الأولى، وكانوا اثنى عشر، وفي السنة الثانية كانوا سبعين كلهم من الأنصار..

ومن هذه الإشارات أيضًا قوله في الحديث «**وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت ثم لم يقدر لي**» ففي هذه الفقرة بيان لكمال إيمانه ﷺ من تمنيه أن يخرج من ورطة التخلف عن النبي ﷺ والغزو معه.

ومن هذه الإشارات أيضًا قوله في الحديث «**فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء**» وفي هذا الحزن منه ﷺ بيان لكمال إيمانه، حيث وجد نفسه بين أحد رجلين، إما رجل مطعون عليه بأنه منافق، أو رجل ضعيف ممن عذر الله ـ تعالى ـ، وليس هو واحد منهما، ويأبى إيمانه أن يُجمع معهما.

ومن هذه الإشارات قوله في الحديث **«فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما راح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا، فأجمعت صدقه»** وهذا فيه كمال حزنه حيث تواصل معه الحزن على التخلف عن رسول الله ﷺ حتى علم برجوعه، وفيه كمال علمه لأنه لما عرض له الكذب رده وتيقن بطلانه، عالما بأنه لا ينجو ولا يسلم بالكذب، بل بالصدق الحق. فأجمع أمره وعزم على أن يصدق رسول الله ﷺ.

ومن هذه الإشارات أيضًا قوله في الحديث **«يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يُسخطك عليَّ وإن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عقبي الله عز وجل والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك»**.

ففي هذه الفقرة من الحديث بيان لكمال علمه حيث علم أن النبي ﷺ ليس من أصحاب الدنيا ولا من الساعين لها، بل هو الداعي إلى الآخرة والدال على الآخرة، لذلك صدقه، كما علم أنه رسول الله ﷺ فلو حدثه بحديث الكذب ليرضى عنه في هذه اللحظة، فسوف يعلمه الله تعالى بشأنه ويسخطه بعد ذلك عليه، أما لو حدثه بحديث صدق، يغضب عليه فيه حالا، فسوف يرضيه الله ـ تعالى ـ عنه به مآلا، وبكمال العلم رجى العاقبة الحسنة في الصدق..

ومن هذه الإشارات الدالة على كمال علمه وكمال إيمانه قوله في الحديث «هل لقى هذا معي من أحد قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك؟ قال قلت: من هما، قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة قال: فمضيت حين ذكروهما لي» ففي هذا بيان لكمال علمه، حيث ثبت على صدقه، لما علم أنه بذلك يكون في زمرة أهل الصلاح، أصحاب القدوة الحسنة.

ومن هذه الإشارات قوله «حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ فسلمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ﷺ فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار».

ففي هذا بيان كمال إيمانه حيث فاضت عيناه حزنا عندما سئل ابن عمه عن علمه فيه، وحكمه عليه، وأليس هو ممن يحب الله ورسوله. فاجابه بقوله الله ورسوله أعلم، ولم يشهد له بذلك، ويقطع له بهذه المحبة، فتحركت عليه الأحزان، أهو ممن يُشك ويتردد في محبته لله تعالى ولرسوله ﷺ.

ومن هذه الإشارات الدالة على كمال علمه وايمانه قوله في الحديث «فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل علي كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا، فقرأته فإذا فيه، أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم

يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها» ففي هذه الفقرة من الحديث بيان لكمال علمه، حيث رأى أن صلة ومواساة ملك غسان له، ودعوته إيَّاه في هذا الكتاب الذي جاء به النبطي، هو من البلاء والاختبار من الله تعالى، ليرى هل يميل بقلبه إلى موالاة الله ورسوله والمؤمنين مع الهجر والقطيعة، والزجر والتعزير، أم يوالي أهل التكذيب والعصيان، مع المواساة والمساعدة، وفي هذه الفقرة أيضًا بيان لكمال إيمانه، حيث لم يتردد في الاختيار، وأبى كمال إيمانه إلا أن يُحرق كتاب الموالاة لغير الله ورسوله والمؤمنين، وظهر مع الأيمان كمال المحبة لله ولرسوله، وكمال الوفاء للإسلام، والتمسك به في كل حال، في العسر واليسر، والسعة والضيق، والإقبال والإدبار.

ومن هذه الإشارات في الحديث قوله **«فقال لي بعض أهلي، لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية؟ أن تخدمه؟ فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهى عن كلامنا»** ففي هذه الفقرة بيان لكمال علمه حيث فرَّق بين الأحكام الخاصة بالشيخ الكبير الذي لا أرب له في النساء، وبين الأحكام نفسها إذا تعلقت بالشاب، حيث توجد هنالك المحاذير والقيود.

ومن هذه الإشارات في الحديث قوله ﷺ: **«فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى عنا قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى علي سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء**

فرج فـآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عـز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا».

ففـي هذه الفقـرة بيان لكمـال إيمانه حيث علم أن الفـرج من كل ضيق هو من الله ـ تعالى ـ، فخر ساجدا شكرا لله تعالى على فضله، واعتـرافا بالمنة لله ـ تعـالى ـ وحده، ومن هذه الإشـارات في الحديث قوله ﷺ: «**فلما جاءني الذي سمـعت صوته يُبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهـما إياه ببشراه والله مـا أملك غيرهمـا يومئذ واستـعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ**».

ففي هذه الفقرة بيان لكمال إيمانه حيث وهب ثوبيه لمن بشره بتوبة الله عليه، لعظيم قدر هذه التوبة في نفسه، وما ذلك إلا لكمال إيمانه.

ومن هذه الإشارات في الحـديث قوله ﷺ: «**فلمـا سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من الـسرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فقـلت: أمِن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله عـز وجل وكان رسول الله ﷺ إذا سـر استنار وجهه حتى كـأنه وجهه قطعة قمـر وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. فقال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت: إني أمسك سهـمي الذي بخيبـر وقلت: يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصـدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيـت، فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله تعـالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسـول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى والله ما تعـمدت كذبه منذ قلت ذلـك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقى**».

ففي هذه الفقـرة من الحديث بيان لكمال علمـه، حيث سأل النبي ﷺ عن قبول توبته والبشرى بذلك، هل هي من النبي ﷺ أم من عند الله تعالى، فأخبره النبي ﷺ أنها من عند الله تعالى، وفي هذه الفـقرة من الحـديث بيـان لكمال إيمانه أيضـا حـيث جعل من توبتـه الانخلاع من مـاله كله، صدقة إلى الله ـ تعالى ـ وإلى رسـوله، حتى أمره النبي ﷺ بإمـساك بعض ماله، ليـستعين به على أمور حـياته، وكمـا جاء في الحـديث «والصـدقـة برهان» أي على صـدق إيمان صاحبها، وفي هذا الموضع من الحـديث بيان لكمال علمه، حيث علم أن الله تعالى إنما أنجـاه بالصدق، وجعل من تمام توبته ألا يـتحدث إلا صدقـا ما بقي، وعلم فضل الله تعـالى عليه وعنايته به، حـيث منحه وأعطاه جـزاء صـدقه، أحـسن مـا منح وأعطى أحـدا من المسلمين، وتوجه إلى الله تعـالى أن يحفظه، فيـما بقي من عمـره على الصدق وعدم الكذب، وفي الحـديث العديد من الإشارات الدالة على كـمال علمه وكـمال إيمانه ﷺ، وقد ذكـرنا البعض ومن تتـبع أخرج المزيد وبالله التوفيق.

وقد أورد القصة كاملة الإمام البخاري «**باب من أراد غـزوة فورى بغيرها ومن أحب الخروج يوم الخميس**» وأوردها الإمام مسلم.

ولقد كانت صفات كعب بن مـالك ﷺ وصاحبيه من قوة الإيمان وقـوة العلم بالأحكام تحتـمل هذه المعـاملة، من النبي ﷺ، لذلك طُبـقت معـهم على مدار خـمسين ليلة بخـلاف الآخرين، وحـفظهم خلالهـا كمـال إيمانهم وكمال أحكـامهم، فلم يزلوا أو يطيـشوا رغم تضيق الأرض والسـماء من حولهم، ورفـعهم إيمانهم وقـوة أحكامهم حتى نزلت فيهم توبة الله ـ عز وجل ـ، وبشره النبي ﷺ بخير يوم مر عليه منذ ولدته أمه..

أما القسم الثاني من الأمة وهو كامل الإيمان قليل العلم بالأحكام، فمثاله هذا الصحابي ﷺ الذي تقلد خاتم الذهب في أصبعه، ولم يكن يعلم بتحريم ذلك، وإليك حديثه **فقد رآى النبي ﷺ خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيطرحها في يده فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ خذ خاتمك انتفع به فقال والله لا آخذه وقد طرحه رسول الله ﷺ**»[1].

فهذا الصحابي ﷺ كان قوي الإيمان، ولم يكن قوي العلم بالأحكام، فقد كان لا يعلم أن خاتم الذهب محرم لبسه على الرجال، ولكن لقوة إيمانه، تحمل شدة المعاملة من النبي ﷺ، حيث نزع الخاتم من يده وألقاه على الأرض، ولولا قوة إيمانه ما عامله النبي ﷺ بمثل هذه المعاملة، ولكان تغييره للمنكر معه من لبس خاتم الذهب المحرم، على خلاف ذلك، ولكن قوة إيمانه كانت قابلة لأن يعامله رسول الله ﷺ بهذه المعاملة، وكانت هي الحاملة لهذا الصحابي ﷺ على عدم تناول وأخذ هذا الخاتم، بعد أن ألقاه النبي ﷺ له، ولم يسمح له إيمانه الكامل أن يأخذ شيئا طرحه النبي ﷺ، فأبى إيمانه القوي الإقبال، وانصرف ولم يتناول مطروح النبي ﷺ، حتى تحت مسوغ الانتفاع به، في أي وجه من أوجه الانتفاع الأخرى المشروعة.

أما القسم الثالث الذي تعامل معه النبي ﷺ عند تغييره للمنكر فهو البعيد عن بيئة الإيمان مع قوة العلم بالأحكام» ومثاله هذا الشاب الذي أتى للنبي ﷺ ليرخص له في الزنا، فهذا الشاب كان على علم بالأحكام، حيث علم أن الزنا محرم ومن الكبائر، فجاء لطلب

---

(١) رواه الإمام مسلم ٣/ ١٤٥٥ «باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ونسخ ما كان من إباحته في أول الإسلام ح (٢٠٩٠)، ورواه الإمام ابن حبان ١/ ١٩٢. والإمام البيهقي في السنن الكبرى «باب نهي الرجال عن لبس الذهب» ح (٤٠١٤).

حصة فيه، حتى لا يقع في غليظ حكمه، فللبعد عن الإيمان رغب في حصة الزنى المحرم بالإجماع عليه، ومع علمه بأنه فاحشة وساء سبيلا، ولبعده عن الإيمان ساغ له أن يطلب هذا المطلب، ولا يرى غضاضة فيه. ويصرح بذلك أمام سيد المرسلين ﷺ، ولم يستتر من هذا المنكر. ولم يستخف منه، فهذا الشاب مع قبح ما طلب، ما وبخه النبي ﷺ وما زجره، بل تعامل مع المنكر الذي جاء يطلبه ويرغب فيه، بأرفق الرفق وألين اللين، فقربه وأدناه، بدلا من إبعاده وإقصائه، وأظهر له قبح وفحش ما طلب، حينما لوح به نحو محارمه، حيث قال: أترضاه لأمك، أترضاه لبنتك، كل ذلك والشاب يقول له لا، حتى عدد عليه غالب محارمه، ثم وضع النبي ﷺ يده على صدره ودعا له، فما بقي لأثر هذا المنكر، وتلك المعصية في قلب هذا الشاب ﷺ شيء، فللبعد عن الإيمان طلب الترخص في الزنى، ولذلك عامله النبي ﷺ بالسهولة والرفق واللين، وتوّج ذلك بالدعاء له والحرص على عصمته وهدايته، حتى أذهب الله وساوس الشيطان، ولم يكن شيء بعد ذلك، أبغض على قلبه من الزنى، ففرق بين السعي لإقامة الحجة والسعي للهداية..

وها هي قصته كما وردت في مسند الإمام أحمد من حديث أبي أمامة قال: «**إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنى. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: ادنه. فدنا منه قريبا. قال: فجلس قال: أتحبه لأمك؟! قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟! قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: أفتحبه لأختك؟! قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟! قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك؟! قال:**

لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالتهم. قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[1].

أما القسم الرابع الذي تعامل معه النبي ﷺ عند تغييره للمنكر. فهو البعيد عن بيئة الإيمان مع قلة العلم بالأحكام، ومثاله الأعرابي الذي دخل إلى المسجد فبال فيه، وهو ما رواه الإمام البخاري والإمام مسلم عن أنس ﷺ قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ مه مه قال قال رسول الله ﷺ لا تزرموه دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن»[2].

فهذا الأعرابي لبعده عن تعلم ما أنزل الله ـ تعالى ـ على رسوله ﷺ جاء فبال في أحد نواحي المسجد، ولم يدر الفرق بين المسجد والفلاة، فشق ذلك على الصحابة لتعظيمهم لحرمة المسجد، فقاموا إليه لينهروه وليكف عما يفعل، ولكن نبي الرحمة ﷺ لعلمه بحال الأعراب، من الجفاء وقلة العلم، بسبب بعدهم في البراري والصحراء عن العلم والعلماء، وبيئات التقوى والإيمان، ترفَّق به، وأشفق عليه، فنهاهم عن زجره، لئلا يزداد المسجد تلوثا، إذا غادر مكانه الذي هو فيه، ومنعهم من إيقافه عن التبول، لئلا يصيبه الضرر عند قطع بوله عليه، ثم أقبل عليه النبي ﷺ كما في الروايات الأخرى فقال له

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص٢٥٦، ٢٥٧ باسناد جيد ورجاله رجال الصحيح كما قال ذلك الحافظ العراقي.

(٢) سبق تخريجه.

.. هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر .. والصلاة وقراءة القرآن».

فهذا الأعرابي مع نقص العلم وللبعد عن بيئات الهدى والتقوى، .. منه النبي ﷺ إلقاء النجاسة في المسجد، باعتبار أنها أخف .. مفسدتين، فهي أقل من مفسدة قطع بوله، لما يترتب عليها من أضرار .. جسده.

والنبي ﷺ أيضًا كما في الروايات الأخرى، مع نقص العلم .. والبعد عن الإيمان، قبل بوجود المنكر ابتداءً بقوله «دعوه»، أي دعوه يبول في المسجد، وهو من أنكر المنكرات، لكون هذا الأعرابي لا يحمل التغيير في الحال، ولخوف شروده ونفرته، إذا قطعوا عليه بولته «لا تقطعوا عليه بولته».

وغيَّر معه النبي ﷺ المنكر مآلا بعد ذلك، مترفقا مع قليل العلم في التعليم، كما غض النبي ﷺ الطرف عن صدور النجاسة من قليلي العلم، البعيدين عن بيئة الإيمان وزيادتها، وغيَّرها وبدَّلها بعد وجودها وصدورها من صاحبها، باللين والعطف والنصح والشفقة، فكان ذلك سببا في قبوله للنصيحة حيث قال «**اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا فقال له النبي ﷺ: يا أخا العرب لقد ضيقت واسعا**»[1]، وهذا من سماحة خلق النبي ﷺ، وبُعد نظره ومعرفته لطبائع الناس.

فإذا ما وصلت الأمة الآن في عمومها لضعف من العلم، وبعد عن بيئة الإيمان، بحيث انتشرت فيها المنكرات، وعمت الفواحش والمخالفات، كان من حكمة القائم فيها بالمعروف، والناهي عن المنكر،

---

(١) سبق تخريجه.

لهـذا كـان الأساس في عـمل الدعـوة هو في الصـبـر مع اللين والرفق، حـتى تأوى الأمة إلى حظـيرة الإيمان، وكنف الطاعـة، ونور العلم، فتبـرأ من المخالفات، وتهجر المعاصي والمنكرات، وتـعود خير أمة إلى خـيرية صفـاتها، وتزهو بأوصافـها، وعبوديتـها وتعظيمـها لربها. ويهتف آخرها، بما هتف به أولها ﴿**وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾.

والداعي لدين الله تعالى، أن يترفق في إيصال الأمر لها، وأن يغض الطرف عن بعض مخالفاتها ومنكراتها لبعض الوقت ابتداءً، أملا في إقلاعها، بعد نشر العلم والإيمان فيها، الدافع للامتثال والتطبيق، مع الرفق واللين في تعليم الجاهل، والتبشير والتسهيل للبعيد عن الإيمان، الطفل الصغير الذي يتبول ويتبرز على أمه، هي لا ترميه في القمامة ولكن تغسله وتطيبه وتضمه إلى صدرها، كذلك الداعي مثل الأم الشفوق، فهكذا ينبغي أن نكون نحن مع الناس، نكره النجاسة وعدم الطهارة منهم، ونحبهم لذواتهم، فنبغض الفعل ونحب الذات، وهي مقاصد ونيات الأنبياء مع أقوامهم، رغم ما يصدر عنهم من مخالفات.

فالأوصاف الغالبة على أفراد الأمة أو أكثرها الآن، على هذا القسم الرابع من البعد عن بيئة الإيمان وقلة العلم بالأحكام.

فمن أراد قيام الأوامر في الأمة، وفق هذا الحال، فليسلك طريق الحكمة، الذي سنه النبي ﷺ في تغيير المنكر، مع هذا الصنف الرابع من أقسام الأمة، وبذلك تعود الأمة بالحكمة والنصح إلى دينها، وتُعظم أوامر ربها، ولا تشرد وتنفر عن سنة نبيها ﷺ.

فعمل الدعوة إلى الله لا يتحمل التنافر بل الأنس والرفق، ونتجنب فيه ما أمكننا النفرة امتثالاً لأمره ﷺ «**بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا**»[1] فالمصيبة الكبرى التي في الشدة والغلظة أن الطبائع يأتي فيها النفور..

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ٣/ ١٣٥٨ «باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير» ح (١٧٣٢)، ورواه الإمام أبو داود في سننه ٤/ ٢٦٠ «باب كراهية المراء» ح (٤٨٣٥)، ورواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٩٩).

الفرق بين المداهنة والمداراة

القائم للمعروف، والناهي عن المنكر، لابد له من الإحاطة
بجوانب عمله، هل هي وفق ما شرع الله تعالى فيمضي فيها، أو أن
أموره فيها قد جاوزت أحكام الشرع، إلى ما نهى الله تعالى عنه، فكل
من ناه لا ينفك في أمره ونهيه عن معاملة الناس، فإن بذل لهم من
دنياه لصلاح دينهم، كان بذله ممدوحا من الله تعالى، وهو بذلك على
باب المداراة المحثوث عليها والمرغب فيها، فقد يبتسم ويضحك وإن
كان قلبه ينكر ويكره..

قال الإمام ابن حجر في فتح الباري ج١٠ ص٥٤٥: «**قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول وذلك من أقوى أسباب الألفة**» انتهى.

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن
فعله، وترك الإغلاظ عليه، فمن ابتلى بمخالطة الناس معاملة
ومعاشرة، وترفق وتلطف بهم لينا ورحمة، ولم ينفرهم في دعوتهم
إلى الله تعالى، كُتب له بكل ذلك صدقة، بخلاف الذي يقوم لباب
الأمر والنهي، ومعاملة الناس، وهو في كل ذلك مداهن مغرور، يبذل
من دينه لصلاح دنياهم أو دنياه، ولا يقوم لتغيير المنكر، حتى وإن كان
قادرا على التغيير، بغير ضرر ديني أو دنيوي، له أو لغيره..

كل ذلك مراعاة لجانب من يرتكب هذا المنكر، أو من كان منه
بسبب قريب، فيعاشر الفساق ويرضى بأفعالهم وأقوالهم، ولا ينكر
عليهم حتى بأضعف مراتب الإنكار وهو القلب، فيميل بقلبه وهواه
إلى ما يفعلون، ويرضى عن منكراتهم، ما يخفون منها وما يعلنون،
فهذا واقع في التحريم وهو لا يدري، وهذه هي المداهنة المحرمة،
والأولى هي المداراة المندوبة..

وإليك الفرق بينهما، لئلا نرمي الدعاة الذين يبذلون من دنياهم لصلاح دينهم أو دين أمة النبي ﷺ بما ليس فيهم، بل بما هو مخالف لدعوتهم ومقاصدهم، وهم الذين يتلطفون بالفساق، رغبة في إقلاعهم وتوبتهم عما هم فيه، فيُنجح الله تعالى سعيهم، ويهدي الشاردين على أيديهم..

هؤلاء الدعاة الذين يحبون المعروف وينشرونه ويُبغضون المنكر ويكرهونه، ويأخذون بأيدي أهله إلى حظيرة الإيمان، وواحة العرفان. فهم على باب المداراة للعصاة من أمة النبي ﷺ، ويراعون الحبيب ﷺ في الوصية خيرا بأمته..

فالفرق بين المداراة وأوصافها ومقاصدها عندهم، وبين المداهنة وأوصافها ومقاصدها التي ليست فيهم، كبير وعظيم، وها نحن نسوقه إليك، لتعلم في هذا الباب ما تأتي وما تذر، وتحذر من الحيف والظلم، فهو خطر أيما خطر..

قال الإمام الخادمي الحنفي في بريقة محمودية ج٣ [(التاسع والأربعون) المداهنة] من الدهن كأن صاحبها بمنزلته في عدم الصلابة.

قيل هي في الشرع: عدم تغيير المنكر مع القدرة عليه رعاية لجانب مُرتكبه، أو لجانب غيره، أو لقلة المبالاة بالدين، وقيل معاشرة الفساق وإظهار الرضا بما هم عليه من غير إنكار عليهم وقيل بذل الدين لصلاح الدنيا (وهي الفتور والضعف في أمر الدين كالسكوت عند مشاهدة المعاصي والمناهي مع القدرة على التغيير بلا ضرر) ديني أو دنيوي له أو لغيره (فهذا) أي الفتور أو السكوت حينئذ (حرام)انتهى.

ثم قال رحمه الله أيضًا في بريقة محمودية: وعن حُسن التنبيه للنجم الغَزِّيِّ على رواية أبي هريرة ﷺ [ما أتى الله تعالى عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ من النبيين من علم علما فكتمه ألجم

يوم القيامة بلجام من نار)[١] وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[٢] ولهذا كان الثوري إذا رأى المنكر ولا يستطيع أن يُغيِّره بال دما وعن عمر بن عبدالعزيز ﷺ أن الله ـ تعالى ـ لا يعذب العامة بعمل الخاصة ولكن إذا ظهرت المعاصي فلم ينكروا فقد استحق القوم جميعا العقوبة وقد تقدم وحيُه تعالى إلى يوشع بن نون من إهلاك قومه خيارهم كذا وشرارهم كذا وقال الله تعالى: ﴿اتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[٣].

(وضده الصلابة) في أمر الدين (قال تعالى يجاهدون)] أي بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم (في سبيل الله) ابتغاء رضا الله [(ولا يخافون لومة لائم)] على ذلك من الناس ([وقال) عليه الصلاة والسلام لأبي ذر (قل الحق وإن كان مُراً]) على المأمور وعلى الآمر» انتهى.

ثم قال ـ رحمه الله ـ في بريقة محمودية: (فإن كان سكوته) عن أمرٍ بالبر والنهي عن الوزر (لدفع ضرر عن نفسه أو عن غيره فهو) أي السكوت (مداراة جائزة) معنى المداراة أن يبتسم ويضحك وإن كان قلبه يُنكر كما في حديث الجامع (مداراة الناس صدقة)[٤] قال في شرحه المداراة اللين والتعطف يعني من ابتلى بمخالطة الناس مُعاملة ومعاشرة وتلطف ولم يُنفرهم كتب له صدقة والمداراة محثوث عليها مأمور بها ومن ثمة قيل اتسعت دار من يُداري وضاقت أسباب من يُماري وفي

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وحسنه بلفظ «من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» وقال الذهبي سنده قوي.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٥٩. (٣) سورة الأنفال الآية: ٢٥.

(٤) رواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٣٤٣، رواه الإمام الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ١٤٦.

شرح البـخاري المداراة الرفق بالجـاهل في التعليم وبالفـاسق في النهي
عن فعله وترك الإغلاظ علـيه والمداهنة معاشرة الفـاسق وإظهار الرضـ
بما هو فيه. الأولى مندوبة، والثانية مُحرمة.

وعن حجة الإسـلام الناس ثلاثة: أحدهم مثل الغذاء لا يـستغني
عنه والآخر مثل الدواء يُحتـاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثل
الداء لا يحتاج إليه لكن العبـد قد يُبتلي به وهو الذي لا أنس فيه و
نفع فتجب مداراته إلى الخلاص منه وفي الحديث أيضا (**أمرت بمداراة
الناس كما أمرت بالفرائض**)[1] كما في شرعة الإسلام (**بل مستحبة في
بعض المـواضع**) كما إذا ظن عموم الضرر الحاصل أو عدم صبره عليه
كمـا قيل ودارهم مـا دمت في دارهم وأرضهم مـا دمت في أرضهم
وعن بعض الحكماء من عصى أمـر والديه لم يرَ السرور من ولده ومن
لم يستشـر في الأمور لم ينل حـاجتـه ومن لم يدار أهله ذهبت لذة
عيشه. قيـل مرّ عيسى عليه الصلاة والسلام بقوم من اليـهود فقالوا له
شرا فقال لهم خيرا، فـقيل له في ذلك فقال كل واحد ينفق مما عنده
وفي البستان عن سعـيد بن المسيب رفعه [**رأس العقل بـعد الإيمان بالله
مداراة الناس. وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة**][2].

وقـال أبو الدرداء إنا لنَبش في وجـوه أقوام وإن قلوبـنا لتلعنهم.
وعن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها (**إن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ
فقـال ائذنوا له فبئس أخـو العشيرة أو بئس رجل أخـو العشيـرة، فلما
دخل ألان له القول. فـقلت: يا رسول الله، قلت له مـا قلت ثم ألنت له**

---

(١) رواه الإمام البـيهقي في شعب الإيمـان ٦/ ٣٥١ بلفظ بعثت بمدارة الناس وأورده
الإمام ابن حجـر في لسان الميزان بلفظ: إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمـرني بإقامة
الفرائض وصححه.

(٢) رواه الإمام البـيهـقي في شعب الإيمان ٦/ ٣٤٤، ورواه الإمـام ابن أبي شيـبة في
مصنفه ٥/ ٢٢١، ورواه الإمام الهيثمي بنحوه ٨/ ١٧.

القول. فقال: إن شر الناس منزلة يوم القيامة من أكرمه الناس اتقاء فحشه)[1] انتهى.

عن القرطبي في الحديث جواز غيبة المعلنين بالفسق مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد إلى المداهنة، والفرق بين المداهنة والمداراة إن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معا فمباحة وربما استحسنت والمداهنة بذل الدين لصلاح الدنيا والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه لحسن عشرته والرفق في مكالمته ومع ذلك لم يمدحه بقوله فلم يناقض قوله فيه فعله فإن قوله فيه قول حق وفعله حسن عشرة فلا يتوهم التناقض» انتهى كلامه ملخصا رحمه الله.

وها هو الإمام الألوسي يبين في تفسيره روح المعاني ج٣ ص١٢٢ ضابط المداراة الصحيحة بحيث لا تؤدي إلى خدش الدين، وأن يرتكب المنكر، وتسؤ الظنون، ثم ذكر طائفتين من الذين أخطأوا وزلّوا في هذا الباب فقال رحمه الله تعالى مبينا ظوابطها: «مداراة الكفار والفسقة والظلمة وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم والانبساط معهم وإعطاؤهم لكف أذاهم وقطع لسانهم وصيانة العرض منهم ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها بل هي سنة وأمر مشروع فقد روي الديلمي عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض[2] وفي رواية: بعثت بالمداراة وفي الجامع: سيأتيكم ركب مبغضون فإذا جاءوكم فرحبوا بهم[3] وروي ابن

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه ٥/ ٢٢٥٠ «باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب» ح (٥٧٠٧)، ورواه الإمام مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٠٢ «باب مداراة من يتقى لفحشه» ح (٢٥٩١) ورواه الترمذي ٤/ ٣٥٩ «باب ما جاء في المداراة وقال هذا حديث حسن صحيح» ح (١٩٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الإمام أبو داود في السنن «باب رضاء المصدق»، ورواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١١٤، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٧، ورواه البزار ورجاله ثقات.

أبي الدنيا رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى مداراة الناس وفي رواية البيهقي رأس العقل المداراة[1] وأخرج الطبراني مداراة الناس صدقة، وفي رواية له: ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة[2] وأخرج ابن عدي وابن عساكر «من عاش مداريا مات شهيدا قوا بأموالكم أعراضكم وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه» [3]وعن بردة عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بئس ابن العشيرة أو أخ العشيرة ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت: يا رسول قلت ما قلت ثم ألنت له القول فقال: يا عائشة إن من أشر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه)[4] وفي البخاري عن أبي الدرداء إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم[5] وفي رواية الكشمهيني وإن قلوبنا لتقليهم وفي رواية ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحرمي بزيادة ونضحك إليهم إلى غير ذلك من الأحاديث، لكن لا تنبغي المداراة إلى حيث يُخدش الدين ويرتكب المنكر وتسئ الظنون ووراء هذا التحقيق قولان لفئتين متباينتين من الناس وهم الخوارج والشيعة: أما الخوارج فذهبوا إلى أنه لا تجوز التقية بحال ولا يراعي المال وحفظ النفس والعرض في مقابلة الدين أصلا ولهم تشديدات في هذا الباب عجيبة منها أن أحدا لو كان يصلي وجاء سارق أو غاصب ليسرق أو يغصب ماله الخطير لا يقطع الصلاة بل يحرم عليه قطعها وطعنوا على بريدة الأسلمي صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أنه كان يحافظ فرسه في صلاته كي لا يهرب ولا يخفى أن هذا المذهب من التفريط بمكان.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

(٣) الكامل لابن عدي ٢/ ٣٦٤.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه الإمام البخاري كتاب الأدب «باب المدارة مع الناس» ٥/ ٢٢٧١.

وأما الشيعة فكلامهم مضطرب في هذا المقام فقال بعضهم: إنها جائزة في الأقوال كلها عند الضرورة وربما وجبت فيها الضرب من لطف والاستصلاح ولا تجوز في الأفعال كقتل المؤمن ولا فيما يعلم و يغلب على الظن أنه إفساد في الدين» انتهى.

أقول: وقد أغلظ البعض على الدعاة عند كلامهم عنهم، ورموهم بـ ليس فيهم، ونعتوهم بالبهت والزور، أنهم المداهنون الذين لا يغيرون المنكر مجاملة لمرتكبيه، أو لمن هو منه قريب، وقالوا إن هذا فعل تلاعب بالأحكام، وخفة وليونة في الدين، على ما يتبع ذلك من مخالطتهم للفساق والمجرمين، ورضاهم على ما هم فيه من غير إنكار منهم للمعتدين، وتكلموا وأسمعوا، ولم يتحققوا ويتبينوا، وطارت الكلمات تسابق المجتمعين، وتدمى بشوكها أذن السامعين، وتكفأت الكلمات وهي تعلو وتفور، عن الدعاة الناصحين لأمة سيد المرسلين، لكن تكلم الحال بحسن المقال، وخرج الإيمان يسعى بين صفوف هؤلاء السائرين، ولاح الهدى يسرى من أفواه الصادقين، الدعاة المتوددين إلى المسلمين، رجاء فلاحهم ونجاحهم، المظهرين الحُسن في مقابلة القبيح، لاستدعاء الحسن وإزالة الشر..

قال الإمام السفاريني الحنبلي في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ج١ «مطلب في التودد إلى الناس وأنه مستحسن شرعا وطبعا» قال في الآداب الكبرى: ويجب كفُّ يده وفمه وفرجه وبقية أعضائه عما يحرم ويُسن عما يُكره: قال الإمام ابن الجوزي: هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك وإلا جاز. قال أبو الدرداء ﷺ: إنا لنشكُر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. قال ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له ذلك.

قال ابن الجوزي: وقول أبي الدرداء هذا ليس فيه موافقةٌ على محرم ولا فيه كلامٌ، وإنما فيه طلاقة الوجه خاصة للمصلحة، وهو معنى ما في الصحيحين وغيرهما عن عائشة ﷺ (أن رجلا استأذن

على النبي ﷺ فقال ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس رجلُ العشيرة، فلما دخل ألان له القول. قلت: يا رسول، قلت الذي قلت ثم ألنت له القول؟، قال يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه)[1] قال في شرح مسلم[2]: فيه مداراة من يتقى فحشه ولم يمدحه النبي ﷺ ولا أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام.

وقيل للإمام العلامة ابن عقيل كما في الفنون: اسمع وصية الله عز وجل يقول: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3] وأسمع الناس يعدون من يظهر خلاف ما يبطن منافقا فكيف لي بطاعة الله تعالى والتخلص من النفاق؟

فقال النفاق هو إظهار الجميل وإبطان القبيح وإضمار الشر مع إظهار الخير لإيقاع الشر، والذي تضمنته الآية إظهار الحُسن في مقابلة القبيح لاستدعاء الحسن قال في الآداب: فخرج من هذه الجملة أن النفاق إبطان الشر وإظهار الحُسن لإيقاع الشر المضمر، ومن أظهر الجميل والحُسن في مقابلة القبيح ليزول الشر فليس بمنافق لكنه يستصلح، ألا تسمع إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فهذا اكتساب استمالة ودفع عداوة وإطفاء لنيران الحقائد، واستنماء الود وإصلاح العقائد. فهذا طلب المودَّات واكتساب الرجال وأخرج أبو داود عن أبي الدرداء مرفوعا «حبك للشيء يعمي ويصم»[4] ورواه الإمام أحمد.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي الإمام العلامة النووي رحمه الله.

(٣) سورة فصلت الآية: ٣٤.

(٤) رواه الإمام أبو داود «باب في الهوى» ح (٥١٣٠)، رواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٦٨ ح (٤١١)، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ٤/ ٣٣٤.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة رفعه «**أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما**»[1].

قال في الآداب: إسناده ضعيف. وقد روي عن علي رضي الله عنه مرفوعا وموقوفا والصحيح وقفه

وأنشد بعضهم:

وأبغض بغيضك بُغضا رويدا ... إذا أنت حاولت أن تحكُما

وأحبب حبيبك حبا رويدا ... فليس يَغُولُك أن تصرُما

وقال آخر:

وأحبب إذا أحببت حبا مُقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع

وأبغض إذا أبغضت بُغضا مُقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت راجع

(تتمة) التودد إلى الناس مطلوب شرعا مستحسن طبعا قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾[2] وقال ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾انتهى كلام الإمام السفاريني.

وقال الإمام السفاريني أيضًا في شرح منظومة الآداب:

وقال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله تعالى ـ:

ما دُمت حيا فدار الناس كُلَّهُمُو ... فإنما أنت في دار المداراة

من يَدْر داري ومن لم يَدْر سوف يرى ... عما قليل نديما للندامات

---

(١) رواه الإمام الترمذي «باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض» ح (١٩٩٧).

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

وقال زهير:

ومن لا يُصانع في أمور كثيرة ... يُضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم

والمنسمُ الرجلُ استعارة، وهو في الأصل للدواب.

وقال آخر:

أداريهمُو ما دمت حيا بدارهم ... وأرضيهمُو ما دمت في أرضهم أسعى

وأطلب بالإخلاص لله منهمو ... خلاصا فكانوا كيف قلّبتهم أفعى

أقول: وقد كان تودد أهل الدعوة لأمة النبي ﷺ رجاء نفعها. وإيقاظها من غفوتها وصلاحها، لتعلو كما كانت بالإيمان فوق العالمين، وتلحق بخطوها مجد الأولين، فكانوا على المداراة المندوبة. يبذلون الدنيا لمصلحة الدين، فينفقون من أموالهم وأنفسهم ليحيا الدين فيهم وفي العالم كله وإلى قيام الساعة..

هذا شعارهم ولم يكونوا على المداهنة المذمومة، التي تبذل الدين لصلاح الدنيا، فأنجح الله سعيهم، وأقبل عموم المسلمين عليهم. فتغيروا من المخالفات إلى الطاعات، ومن المنكرات إلى المعروف والقربات، استجابة للرفق واللين، والنصح والشفقة من الداعين. نسأل الله - تعالى - أن يُقبل بقلوب وجموع المسلمين إليه، طائعين خاشعين خاضعين، معظمين لسنة سيد المرسلين صلوات ربي وتسليماته عليه وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

عدم جواز تغيير المنكر
عند توقع اتساع دائرة الشر

القائم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابد له أن يفرق في فعله، بين درجة المنكر الذي يسعى لتغييره، وما قد يترتب على هذ التغيير أو الحسبة من منكر، فإن كان تغييره للمنكر، يُفضي إلى منكر أشد، فالأولى في هذه الحالة عدم الاحتساب، لأنه لا معنى لهذ الحسبة، في ظل هذا المنكر الزائد، المترتب على إنكاره، فالتغيير بدون الحكمة المأمور بها من الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] هو في حد ذاته مخاطرة عظيمة، خاصة إذا كان هذا التغيير تتعلق نتائج وآثاره بعموم الأمة، فمن تحرك على منكر يسير حقير، لا يمثل لثوابت الإسلام شيئا، فكان من أثر ذلك الابتلاء والمحن، والدماء والدمار على عموم الأمة، فهذا الذي حرَّك أقدام الشر لتسعى لابتلاء المسلمين وفتنتهم، هو عاصٍ - لله تعالى - مخالف لرسوله ﷺ، حيث جلب على أمة الإسلام بأمره ونهيه على خلاف المشروع، ما لا قبل لها به، وتولد من تغييره لهذا المنكر الثانوي تتابع المنكرات على عموم الأمة، واتساع دائرة الشر حولها، وقد نهى الله - تعالى - القائمين للأمر والنهي عن السير فيه، إذا ترتب عليه محذور في الشرع أكبر منه..

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

قال الإمام القرطبي في تفسيرها في الجامع لأحكام القرآن: فيه خمس مسائل: الأولى - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ نهي «فيسبوا» جواب النهي. نهى الله سبحانه المؤمنين أن يسبوا

---

(١) سورة النحل الآية: ١٢٥. (٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٨.

أوثانهم، لأنه علم إذا سبوها نفر الكفار وازدادوا كفرا. قال ابن عباس: قالت كفار قريش لأبي طالب إما أن تنهى محمدا وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها وإما أن نسُب إلهه ونهجوه، فنزلت الآية. الثانية ـ قال العلماء: حكمها باق في هذه الأمة على كل حال؛ فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسُبَّ الإسلام أو النبي عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرّض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية. وعبّر عن الأصنام وهي لا تعقل بـ «الذين» على معتقد الكفرة فيها.

ـ الثالثة: ـ في هذه الآية أيضًا ضَرْب من المواعدة، ودليل على وجوب الحكم بسدّ الذرائع؛ حسب ما تقدم في «البقرة» وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدَّى إلى ضرر يكون في الدين. ومن هذا المعنى ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: لا تبتّوا الحكم بين ذوي القرابات مخافة القطيعة. قال ابن العربي: إن كان الحق واجبًا فيأخذه بكل حال. وإن كان جائزًا ففيه يكون هذا القول» انتهى كلام الإمام القرطبي.

لو سرنا بالمعاملات التي جاء بها الرسول ﷺ وقام بها أصحابه ﷺ سوف تنزل معاملات الآخرين إلى الأسفل، عندها يأتي الأمن والأمان في جميع نواحي الدنيا، وعلينا أن نفهم أن الدنيا كلها قلقة مضطربة لأنها تريد حلا وطريقا، ولن تجد طريقا ولا حلا إلا فيما جاء به الرسول ﷺ، والمشكلة الحقيقية الآن هي أن ما جاء به الرسول ﷺ صورته في الكتب، وحقيقته ليست في نفوس وحياة المسلمين..

المسلمون الآن معهم الري والماء والدنـيا من حولهم تموت عطشا.

وعندهم دواء أمراض البشرية التي تموت بأسقامـها مرضا، ولن تتحول الدنيا إلى حياة الروحانية وتجـد حلا لمشكلات وجودها، إلا بتحول ما جاء به الرسـول ﷺ من الصورة إلى الحـقيقـة، فإذا أخـذت الأمة الطريق والحل الذي جاء به الرسول ﷺ من الكتب وجعلتـه حقيقة حياة، ينظر الناس فيها إلى أسس الهداية، وسبل النجاة، ونور الطريق المستـقيم، حـينئذ تبرأ البـشرية من أسـقامهـا، وتقف على أقدامـها. وتخرج من ورطتها ومشكلاتها..

وقال الإمام الرازي فـي تفسير الآية في مفـاتيح الغيب أو التفـسير الكبـير المجلد السـادس ص٥٠٩: «المسألة الثـانية» لقـائـل أن يقول: إن شتم الأصنام من أصول الطاعات، فكيف يحسن من الله تعالى أن ينهى عنها؟ الجواب أن هذا الشتم وإن كـان طاعة، إلا أنه إذا وقع على وجه يستلـزم وجود منكر عظيم، وجب الاحـتراز منه، والأمر ههـنا كذلك. لأن هذا الشتم كان يستلزم إقدامـهم على شتم الله وشتم رسوله، وعلى فتح باب السفـاهة، وعلى تنفيرهم عن قبـول الدين، وإدخال الغيظ في قلوبهم، فلكونه مستلزما لهذه المنكرات، وقع النهي عنه.

(المسألة الثالثة) قرأ الحسن ﴿فيسبوا الله عُدُوًّا﴾ بضم العين وتشديد الواو، ويقال: عَـدَا فلان عَدواً وعُـدُوًّا وعدوانا وعـدوا. أي ظلم ظلما جاوز القدر.

قال الزجـاج: «وعدواً» منصوب علـى المصدر، لأن المعنى فيـعدوا عدواً، قال: ويجوز أن يكون بإرادة اللام، والمعنى: فينسبوا الله للظلم.

(المسألة الرابعة): قال الجـبَّائي: دلت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يفعل بالـكفار ما يزدادون به بعـداً عن الحق ونفورا، إذ لو جـاز أن يأمر

ـه، وكان لا ينهى عما ذكرنا، وكان لا يأمر بالرفق بهم عند الدعاء، كقوله ـ تعالى ـ لموسى وهارون ﴿فقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1] وذلك يبين بطلان مذهب المجبرة.

(المسألة الخامسة) قالوا هذه الآية تدل على أن الأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر، والنهي عن المنكر يقبح إذا أدى إلى زيادة منكر، وغلبة الظن قائمة مقام العلم في هذا الباب وفيه تأدب لمن يدعو إلى الدين، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر يكفي في القدح في إلهيتها، فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها» انتهى.

وقال الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية: في فتح القدير ج٢ ص١٥٠ قوله ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم. الموصول عبارة عن الآلهة التي كانت تعبدها الكفار والمعنى لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون الله فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدوانا وتجاوزا عن الحق وجهلا منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل إذا خشى أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم ومخالفة حق ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به بل كان واجبا عليه وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس إذا كان بين قوم من الصم والبكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه وتركوا غيره من المعروف وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات عنادا للحق وبغضا لاتباع المحقين وجراءة على الله سبحانه» انتهى.

---

(١) سورة طه الآية: ٤٤.

أقـول: فانظر إلى قول العـلامة الشوكاني: «**وفي هذه الآيـة دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل إذا خـشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم ومخالفة حق ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به بل كان واجبا عليه**».

فياليت من تصدروا الآن للقضايا المصيرية للأمة، يُمعنون النظر في هذه النصوص لأئمة ديننا، وهل ما يقومون به من دعوة إلى شيء من الحق، أو نهي عن جانب من البـاطل، يتسبب عنه مـا هو أشد منه؟، فتنتـهك حرمـات المسلمين نتيـجة دعـوتهم، وتروع بلادهم وأوطانهم وتسيل دماؤهم، وتتوالى الفتن عاصـفة بشراع الإسلام، لشذوذ الفكرة وضعف البـصيـرة، بمقاصد الرسـالة وحقـوق الأمة، وألا يرون أنهم يقعـون بذلك في مخـالفة الحق المصـاحب للمصـلحة الراجحـة التي أهملوها، وأنهم يتـقلَّبون في الباطل الأشـد، المحيط بالمفسـدة الهائلة التي جلبـوها، وألم يكن التـرك في هذه الحـالة أولى بالـنسبـة لهـذه القضايا الشائكة المعاصرة، التي فُتنت بها الأمة وفُتن بها المسلمون..

بل ألم يكن التـرك والكف أوجـب وألزم، مع رؤية هذه النتـائج المدمـرة لمعالم الإسـلام الراسخـة، وقواعـده وأصوله على مـستـوى المعمورة، بحيث لم يعد ينظر إلى المسلم إلا بوصفه دمويا، يحيا ليريق الدماء، وتشوهت بين العالمين حقائق الإسلام وصورته المضيئة..

ونفر الناس منه وانفضـوا عنه، لما رأوه من غلظة وفظاظة، وقسوة وشـدة ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[1] وإذا كـان القائم لحدود الله المتصدي لبيانها للناس، يتحرك في وسط يموج بالصد والرد والدفع، صم بكم لا يعقلون، ولا يـستجيبون إليـه ابتداءً، فإذا

أمرهم بمعروف تركوه وتركوا غيره مما لم يأمرهم به، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره مما لم يناهم عنه، أفليس فقه الوقت، وحكمة الواقع، تستدعي من هذا القائم لحدود الله أن يبحث عن طرق بديلة، تصله بهؤلاء الذين صموا آذانهم وتصلهم به، وتُقبل به عليهم وتُقبل بهم عليه، فتكون دعوته نافعة مسموعة، مقبولة معظمة مصونة..

وقد أكد الإمام ابن كثير هذه المعاني في تفسير هذه الآية في تفسيره حيث قال رحمه الله ج٢ ص١٦٥: «**يقول تعالى ناهيا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو الله لا إله إلا هو كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فناهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم فأنزل الله ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾**» انتهى.

أقول: وإن كان غير المسلمين قد اتخذوا الآن أصناما أخرى، غير التي كانت على عهد النبوة، فأصبح المال صنما، والهوى صنما، وأصبحت التجارة صنما، والشهوات والملذات صنما، إلى آخر المعبودات التي خضعوا لها وأطاعوها من دون الله ـ تعالى ـ، ثم أراد البعض الآن أن يدمر لهم صنم المال أو التجارة، أو الهوى أو الشهوة، وترتب على ذلك المفسدة العظيمة التي لم يستطع المسلمون حتى الآن سد ضررها، وإطفاء شررها..!

ألم يكن الأولى والأجدى لمن تصــدر لبعض هذه التصــرفات، أن يرجح المصــالح على المفاســد، وينظر إلى أثر هذه الطريقــة التي أزكى نارها، وكـيـف أنها على كل الأحــوال، بلاء وفـتـنة لعمــوم المسلمين، وضرر بين لا يحتاج في ظهوره لإثبات الناظرين..

وماذا لو انتهى القائم لشيوع المخاطر على الأمة، وانتهى بزجر الله تعالى في كـتابه لأمة حـبيبه ﷺ أن يسـلكوا هذا الدرب، ويقطعوا هذه الجـادة، ويشعلـوا هذه الفتنة، وذلك فـي قوله ـ عـز وجل ـ في الآية السابقة ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم**﴾.

فجـاء النهي عن السب في الآية، ومن باب أولى وأجدر مـا كان أشد وأعظم، كـالتدمير والحـرق، سدا لذرائع الفســاد والفتن أن تحيط بالأمة، وليت المخاطبين استمعوا، والمـستبصرين وعوا، لما سفكت من المسلمين دماء، أو أقطعت منهم الأجزاء..

فعلى المحق أن يكف عن مصادمة السـفهاء أو المتربصين الأعداء، سبـا أو غيـر ذلك مما هو أشد، لأنهم يسـرعون للرد عليـه على وجه المقابلة له، فيكون بذلك بمنزلة الباعث على المعصية..

وفي هذا يقـول القاضي في أحكام القـرآن ج٤ ص١٧٠ «**قــوله تعالى ولا تسبـوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عـدوا بغير علم قال السدي لا تسبـوا الأصنام فيسبوا من أمركم بما أنتم عليه من عـيبها وقـيل لا تسبـوا الأصنام فـيحملهـم الغيظ والجـهل على أن يسبـوا من تعبدون كـما سببتم من يعبـدون وفي ذلك دليل على أن المحق عليه أن يكف عن سب السفهـاء الذين يتسرعون إلى سبـه على وجه المقابلة له لأنه بمنزلة البعث على المعصية**» انتهى.

وقد أكد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره فوائد هذه الآية، من ترك المصلحة لمفسدة أعظم منها، بما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ، فقال رحمه الله تعالى ج٢ ص١٦٥ «ومن هذا القبيل وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ما جاء في الصحيح بنحوه أن رسول الله ﷺ قال ملعون من سب والديه. قالوا: يا رسول الله، كيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه أو كما قال ﷺ»[1].

أقول: وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية قد نسخت بالآيات التي تأمر بالقتال، والصحيح أنها محكمة غير منسوخة، لأنه يكره للإنسان أن يكون سببا لما يؤدي إلى ذكر معبوده بسوء، أو نبيه بعيب، أو دينه بنقيصة من النقائص..

قال في نواسخ القرآن ج١ ص١٥٦: «قوله تعالى ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ قال المفسرون هذه نسخت بتنبيه الخطاب في آية السيف لأنها تضمنت الأمر بقتلهم والقتل أشنع من السب ولا أرى هذه الآية منسوخ بل يكره للإنسان أن يتعرض بما يوجب ذكره معبوده بسوء أو نبيه» انتهى.

وقد قرر الإمام الشوكاني في تفسيره أيضًا أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة ونقل ذلك عن جماهير أهل العلم، وجعلها أصلا في سد ذرائع الفساد، وقطع التطرق إلى الشبه، وقد صدق فمن أتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه..

---

(١) رواه الإمام البخاري بنحوه «باب لا يسب الرجل والديه» ح (٥٩٧٣)، ورواه الإمام مسلم بنحوه «باب بيان الكبائر وأكبرها» ح (٩٠).

فقال رحمه الله ـ تعالى ـ في فتح القدير ج٢ ص١٥٠: «وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة وهي أصل أصيل في سد الذرائع وقطع التطرق إلى الشبه» انتهى.

لذلك نحن نعمل الأعمال ونتحرك لدعوة ديننا، مع وجود السدود والموانع، ونراعى في كل ذلك الحدود الشرعية، أما إذا قلنا أولا نرفع السدود ثم نعمل فهذا ليس بصحيح، الفرخ في داخل البيضة مع سد القشرة من حوله تأتي الروح في داخله، وبعد أن تدب فيه هذه الروح يكسر القشرة ويخرج..

وهكذا إذا جاءت قوة الإيمان والصفات في عموم الأمة، يدب فيها الروح، والله ـ تعالى ـ يكسر قوى الباطل، جميع السدود موجودة من حولنا، تحيطنا بأسوار الباطل، ومع ذلك نحن نقوم بالدعوة في البيئة، بدون تكسير الحدود الشرعية، حتى تحيا القلوب وينبعث الإيمان، وهذا يكون بمثابة الإزالة لأسوار الغفلة..

نحن نسير حسب أمر الله تعالى ولا نكسر أمر الحال، بل كما نمشي حسب الطريق والموانع فيه، هكذا نمشي حسب أمر الله ـ تعالى ـ، فإذا جاءت الموانع نحن لا نكسر أمر الحال، فإذا كان هناك امرأة قد توفيت وفي جوفها جنين مرجو حياته، فأمر الحال في هذه اللحظة، هو شق جوفها، واخراج هذا الجنين المرجو حياته، وهذا الفعل صار محبوبا عند الله ـ تعالى ـ لأنه امتثال لأمره، بتغليب أعلى المصلحتين ودفع أشد المفسدتين، أما إذا قمنا بدفن هذه المرأة، والجنين المرجو حياته في جوفها، وتركناه ليهلك، فهذا كسر لأمر الله ـ تعالى ـ وكسر لأمر الحال.

المشكلة عندنا أننا لم نتيقن بحل مشاكلنا عن طريق الدعوة لديننا، فلسنا في هذا الجهد لدعوتنا على بصيرة، بعضنا إذا ابتلى بعد الدعوة يتأثر بالموانع وقد قال - تعالى -: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[1] وقال في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»[2] عند مجيء المشاكل والموانع نحن نتأخر، فتتقدم الموانع، ونتأخر والموانع تتقدم حتى نقف، إنما الإخلاص هو المفتاح، وحل المشاكل كلها بالصبر والتقوى ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[3] إذا أتت الموانع نحن نجلس، هذا مزاج النساء، ولكن مزاج الرجال لما تأتي الموانع نتقدم ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[4].

جميع المشاكل التي تأتي في الدعوة إلى الله، حلها كذلك هو في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشرط ذلك أن يكون على بصيرة، وعلى فهم وليس على عواطف، فإذا تغيرت العواطف لا يدعو، أما إن كان على بصيرة استقامت دعوته، وخلصت فيها نيته مع وجود العواطف وبدونها، مع العسر ومع اليسر وعلى كل حال..

فإذا كان القيام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى تجرىء من وقع عليهم الاحتساب، فيتجاوزون ما هم فيه، إلى ما هو أشد منه قمعا لمن ينكر عليهم، فتتسع دائرة المنكر على المظلومين، ويتضاعف بسبب ذلك الشر، عند ذلك يرتفع وجوب الإنكار وينتقل الحكم إلى الجواز، بل قد يرتفع جواز الإنكار، إذا أفضى إلى ضرر المحتسب في نفسه، أو عضو منه، أو ضياع ماله أو نحو ذلك..

---

(١) سورة محمد الآية: ٧.

(٢) رواه الإمام البخاري كتاب التوحيد «باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾» ح٦٨٥٦، ورواه الإمام مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار «باب الحث على ذكر الله تعالى» ح٤٨٢٢.

(٣) سورة يوسف الآية: ٩٠.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٧٣.

وهو ما أورده الإمام الشوكاني في السيل الجرار ج٤ ص٥٥٨ حيث قال رحمه الله تعالى: «إذا كان القيام في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى تجرىء من وقع الأمر أو النهي له كما يفعل ذلك كثير من الظلمة الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ولا ينزجرون بزواجر الله، بل يجاوزون ما هم فيه إلى ما هو أشد منه قمعا لمن ينكر عليهم، وسدا لباب إقامة حجة الله عليهم، وحسما لمادة موعظة الواعظين لهم، وقطعا لذريعة المناصحة من الناصحين، وتأييسا للمظلومين عن الفَرَج، فلا يطمعون بعدها في الالتجاء إلى أهل العلم والفضل، فها هنا يحق السكوت، والرجوع إلى الإنكار بالقلب، لأن التعرض للإنكار باليد واللسان ينشأ عنه اتساع دائرة المنكر على المظلومين، ويحل بهم زيادة على ما هم فيه من المصيبة النازلة بهم. وفي الشر خيار، وقد ارتفع الوجوب، بل ارتفع الجواز، لأنه يوجب حدوث مظلمة مع تلك المظلمة، ومنكر مع ذلك المنكر، ومن أعظم ما يؤدي إليه الإنكار أن يُفضي إلى تلف نفس المنكر أو عضو منه، أو يذهب بماله مع عدم حصول التأثير الذي هو المطلوب بالإنكار، وأي تأثير وقد تضاعف بسببه الشر، وتزايد لأجله الظلم، وانتهكت حرمة مع الحرمة، وانضمت مصيبة إلى مصيبة» انتهى.

أقول: فلابد للقائم للمعروف والناهي عن المنكر، سيما إن كان في دقائق الأمور، من معرفة ما تضمنته الأفعال من المصالح والمفاسد. حتى يستطيع ترجيح أصلحها عند المعارضة، ولا يتم ذلك إلا بتمييز مراتب المعروف ومراتب المنكر، فنقدم أعرف المعروفين، ويدفع أرزل المنكرين جلبا لأصلح المصالح، ودفعا لأرزل المفاسد، وهي وظيفة أهل الفقه والدين، والحذاق من العلماء الربانيين. .

وهو ما أورده الإمام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٩٨ حيث قال رحمه الله:

«فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد، بحيث تعرف ما ينبغي من مراتب المعروف، ومراتب

المنكر، حتى نقدم أهمها عند المزاحمة. فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر، وجنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيرا. فأما مراتب المعروف والمنكر ومراتب الدليل، بحيث تقدم عند التزاحم أعرف المعروفين فتدعو إليه، وتنكر أنكر المنكرين، وترجح أقوى الدليلين: فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين» انتهى.

فالله - تعالى - جعل طلب الهداية فرضًا على كل إنسان، وجعل المسئولية على هذه الأمة أن تسير على طريق الهداية وسنن الإصلاح، حتى ينزل الله - تعالى - على العالمين رحمته، وكل فرد في هذه الأمة يتنحى عن جهد النبوة في النصح والإصلاح، فهو يملأ الأرض فسادا وبلاءً، والسبب هو البعد عن منهج النبي ﷺ..

ونحن الآن مقصرين وظالمين لأن الطريق الذي يدفع الفتن والشرور نعرفه، ولكن نتركه ولا نأتيه، والطريق الذي يأتي بهما نأتيه ونسير فيه، مع أن مفاتيح طرق الخير كلها في يدنا، فنحن أمة الخيرية والرسالة ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ ولو اجتمع الناس كلهم ليفتحوا طريق الخير بدون عمل النبوة لا يستطيعون ذلك، لأن الهداية في أعمال الدين، والدلالة على الخير كلها في جهد النبي ﷺ، وبقدر سعينا لإحياء الدين على وجه الأرض، ينزل الله رحماته وبركاته على البشرية كلها، ويدفع الله بهذه الرحمة كل الشرور والفتن التي تلاحقنا من كل جانب، فالسعيد في هذه الحياة الدنيا، من اتبع أوامر الله - تعالى - وسنة النبي ﷺ، وتفكر للآخرة كيف يعبر الصراط دون أن يشعر به..

نسأل الله - تعالى - أن يثبت أقدامنا على امتثال أمره وأتباع نبيه ﷺ.

لا يجوز تغيير المنكر
بما هو أنكر منه

فلا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه، إذا رجحت المفسدة على المصلحة بخلاف الدعوة التي أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم بها، فإن مصلحتها راجحة على مفسدتها، لذلك نقول كل من قام إلى إنكار المنكر لابد له في ذلك من قيود هذا الباب وشروطه، فمع وجود أركانه وشروطه، وتحقق مصالحه ورجحانها على مفاسده، فالنهي عن المنكر وفق هذا الحال يكون على بابه، وهو محمود من الله تعالى ورسوله ﷺ، أما دعوة الخلق إلى الحق وما أمر الله تعالى به الأنبياء وأتباعهم من دعوة الناس إليه، فهي محمودة على كل حال، لرجحان مصلحتها على مفسدتها، وحسنها في ذاتها، لذلك كانت المحاذير فيها أقل لندرة مفاسدها، وغلبة مصالحها..

وهو ما أورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج١٤ ص٤٧٢ حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«والمقام الثاني أن يُفرق بين ما يفعل في الإنسان ويأمر به و ويبيحه وبين ما يسكت عن نهي غيره عنه وتحريمه عليه فإذا كان من المحرمات ما لو نهى عنه حصل ما أهو أشد تحريمًا منه لم ينه عنه ولم يبحه أيضًا ولهذا لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه ولهذا حُرم الخروج على ولاة الأمر بالسيف لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرمات وترك واجب أعظم مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب. وإذا كان قوم على بدعة أو فجور ولو نهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر أعظم مما هم عليه من ذلك، ولم يمكن منعهم منه، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة لم ينهوا عنه بخلاف ما أمر الله به الأنبياء وأتباعهم من دعوة الخلق، فإن دعوتهم يحصل بها مصلحة راجحة على مفسدتها، كدعوة موسى لفرعون ونوح لقومه، فإنه حصل لموسى من الجهاد وطاعة الله وحصل لقومه من الصبر

والاستعانة بالله ما كانت عاقبتهم به حميدة، وحصل أيضًا من تغريق فرعون وقومه ما كانت مصلحته عظيمة.

وكذلك نوح حصل له ما أوجب أن يكون ذريته هم الباقين. وأهلك الله قومه أجمعين، فكان هلاكهم مصلحة. فالمنهي عنه إذا زاد شره بالنهي، وكان النهي مصلحة راجحة كان حسنا وأما إذا زاد شره وعظم وليس في مقابلته خير يفوته لم يشرع. إلا أن يكون في مقابلته مصلحة زائدة، فإن أدى ذلك إلى شر أعظم منه لم يشرع مثل أن يكون الآمر لا صبر له، فيُؤذى فيجزع جزعا شديدا يصير به مذنبا، وينتقص به إيمانه ودينه.

فهذا لم يحصل به خير لا له ولا لأولئك، بخلاف ما إذا صبر واتقى الله وجاهد، ولم يتعد حدود الله بل استعمل التقوى والصبر، فإن هذا تكون عاقبته حميدة.

وأولئك قد يتوبون فيتوب الله عليهم ببركته. وقد يهلكهم ببغيهم ويكون ذلك مصلحة، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وأما الإنسان في نفسه فلا يحل له أن يفعل، الذي يعلم أنه محرم لظنه أنه يعينه على طاعة الله، فإن هذا لا يكون إلا مفسدة، أو مفسدته راجحة على مصلحته، وقد تنقلب تلك الطاعة مفسدة، فإن الشارع حكيم، فلو علم أن في ذلك مصلحة لم يحرمه، لكن قد يفعل الإنسان المحرم ثم يتوب، وتكون مصلحته أنه يتوب منه، ويحصل له بالتوبة خشوع ورقة، وإنابة إلى الله ـ تعالى ـ: فإن الذنوب قد يكون فيها مصلحة مع التوبة منها، فإن الإنسان قد يحصل له [بعدم] الذنوب كبر

(١) سورة الأنعام الآية: ٤٥.

وعجب وقسوة، فإذا وقع في ذنب أذله ذلك وكسر قلبه، ولين قلبه بما يحصل له من التوبة ولهذا قال سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، ويفعل السيئة فيدخل بها الجنة» انتهى.

فنحن في تغييرنا للمنكر ندفع أعظم المفسدتين بتحمل أخفهما، ولذلك أمثلة عديدة ذكرها الإمام العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام في مصالح الانام ج١ ص٧٤ فقال ـ رحمه الله تعالى ـ:

المثال الثامن عشر: تقديم الدفع عن الإنسان على الدفع عن الحيوان المحترم، ولك أن تجعل هذا كله من باب تحمل أخف المفسدتين دفعا لأعظمهما. فنقول: مفسدة فوات الأعضاء والأرواح أعظم من مفسدة فوات الأبضاع ومفسدة فوات الأبضاع أعظم من مفسدة فوات الأموال، ومفسدة فوات الأموال النفيسة أعظم من مفسدة فوات الأموال الخسيسة، ومفسدة هلاك الإنسان أعظم من مفسدة هلاك الحيوان» انتهى.

أقول: فإذا اجتمعت المنكرات واستطاع الناهي دفعها كلها دفعة واحدة لزمه ذلك، أما إذا لم يستطع إلا أن يدفع واحدا منها، دفع الأفسد فالأفسد، والأشد فالأشد، وهو ما أورده الإمام العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام ج١ ص١٢٧ فقال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فمن قدر على الجمع بين درء أعظم الفعلين مفسدة ودرء أدناهما مفسدة جمع بينهما لما ذكرناه من وجوب الجمع بين درء المفاسد، مثل أن ينهى عن منكرين متفاوتين أو متساويين فما زاد، بكلمة واحدة. مثال المتفاوتين أن يرى إنسانا يقتل رجلا وآخر يسلب مال إنسان، فيقول لهما كفا عما تصنعان.

ومثال المتساويين أن يرى اثنين قد اجتمعا على قتل إنسان أو سلب ماله فيقول لهما كفا عن قتله أو سلبه، وكذلك يقول للجماعة كفوا عما تصنعون، وإن قدر على دفع المنكرين دفعة واحدة لزمه ذلك، وإن قدر على دفع أحدهما دفع الأفسد فالأفسد، والأرذل فالأرذل سواء قدر على ذلك بيده أو بلسانه، مثل أن يتمكن الغازي من قتل واحد من المشركين بسهم ومن قتل عشرة برمية واحدة تنفذ في جميعهم، فإنه يقدم رمي العشرة على رمي الواحد، إلا أن يكون الواحد بطلاً عظيم النكاية في الإسلام، حسن التدبير في الحروب، فيبدأ برميه دفعاً لمفسدة بقائه، لأنها أعظم من مفسدة بقاء العشرة. وكذلك لو قدر على أن يفتح فوهة نهر على ألف من الكفار لا نجاة لهم منها وقدر على قتل مائه بشيء من آلات القتال لكان فتح فوهة النهر أولى من قتل المائة لما فيه من عظم المصلحة، وإن كان فتح الفوهة أخفَّ من قتل المائة بالسلاح، وكذلك تتفاوت كراهة المنكر بالقلوب عند العجز عن إنكاره باليد واللسان بتفاوت رتبه، فتكون كراهة الأقبح أعظم من كراهة ما دونه»انتهى.

فالآمر بالمعروف يأمر به بالمعروف، والناهي عن المنكر ينهي عنه بغير منكر، فكل أوامر الله تعالى دائرة على المصلحة فمدح الله - تعالى - لذلك الإصلاح والمصلحين وأمر نبيه ﷺ بذلك فقال: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] وكانت دعوة أنبيائه لأقوامهم بذلك، وهذا النبي صالح يخاطب قومه بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[2] فإذا كانت المفسدة في الأمر والنهي أعظم من المصلحة.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٤٢. (٢) سورة الشعراء الآية: ١٥٠، ١٥٢.

لم تكن مما أمر الله به، وهي صد عن سبيل الله، ومعصية لرسوله ﷺ ومحاداة للدين، وهو ما أورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص١٢٦ حيث قال ـ رحمه الله ـ:

«ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر. وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب والله لا يحب الفساد: بل كل ما أمر الله به فهو صلاح. وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾[1] والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال. وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد. فأما القلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «**وذلك أدنى ـ أو ـ أضعف الإيمان**» وقال: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[2]. وقيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا. وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان» انتهى.

---

(١) سورة المائدة الآية: ١٠٥.   (٢) سبق تخريجه.

أقول: أما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والأمر والنهي فينبغي لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن ينظر، فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولا ينهى عن هذا المنكر المستلزم تفويت المعروف الأعظم منه، بل يكون النهي حينئذ عن هذا المنكر، المفوت للمعروف الأعظم صد عن سبيل الله، وسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ وسعي في زوال فعل الحسنات، أما إذا كان المنكر أغلب نهي الناهي عنه، وإن استلزم ما هو أقل منه أو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف القليل، المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرا بمنكر، وسعيا في معصية الله ـ تعالى ـ ومعصية رسوله ﷺ، وإن تكافأ كل من المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما، فمرة نقدم الأمر، ومرة أخرى نقدم النهي، وفي بعض الأحيان لا يصلح تقديم أيهما، أما من ناحية النوع فنأمر بالمعروف مطلقا، وننهى عن المنكر مطلقا، على ألا يكون أمرنا بالمعروف مفوتا لمعروف أعظم منه، أو جالبا لمنكر أكثر منه، ولا يكون نهينا عن المنكر مؤديا إلى منكر أرذل منه، أو ضياع وفوات معروف أعظم منه..

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص١٢٩ ـ ١٣٠: «وجماع ذلك داخل في «القاعدة العامة»: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد. فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير

المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة. فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعا، أو يتركوهما جميعا، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر: فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات، وإن كان المنكر أغلب نهي عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرا بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله. وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما.

«فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي حيث كان المعروف والمنكر متلازمين وذلك في الأمور المعينة الواقعة.

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقا وينهى عن المنكر مطلقا وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية، وإذا تركها كان عاصيا. فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية» انتهى.

أقــول: ولم يعاقب النبي ﷺ عبـدالله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والـفجور، لما لهم مـن أعوان، وترك تغـيير منكرهم المسـتلزم لمفسدة كبيرة، وهو ما أورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص١٣١ حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ومن هذا البـاب إقرار النبي ﷺ لعـبدالله بن أبي وأمثـاله من أئمة النفاق والفـجور لما لهم من أعوان. فإزالة منكره بـنوع من عقاب مستلزمة إزالة مـعروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحمـيتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدا يقتل أصحابه، ولهذا لما خاطب الناس في قصة الإفك بمـا خاطبهم به واعتذر مـنه، وقال له سعد بن مـعاذ قوله الذي أحسن فيه: حمي له سعد بن عبادة مع حسن إيمانه» انتهى.

لذلك نص الأئمـة على أنه في الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر يغلط فريقان، أمـا غلط الفريق الأول فبتـرك الأمر والنهي، وأما غلط الفريق الثاني فـهو الذي يأمر وينهى بلسانه وبيده مطلقا، بـغير حكمة ولا فقـه ولا حلم ولا صبـر، مع عدم النظر في العواقـب، ما يصلح منها وما لا يصلح، مـا يطيقه وما لا يطيقه، فـيكون فساده أعظم من صلاحـه وهو ما قـرره الإمام ابن تيمـية في مجـموع الفـتاوى ج٢٨ ص١٢٧:

«وهنا يغلط فـريقان من الـناس: فريق يتـرك ما يجب من الأمـر والنهي تأويلا لهـذه الآية؛ كـمـا قـال أبو بكر الصـديق ـ رضي الله عنه ـ في خطبتـه: إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ وإنكم تضعونها في غير مـوضعها، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيـروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**».

والفريق الثاني: من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقا، من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها رسول الله ﷺ قال: **«بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرا لا يدان لك به، فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائك أيام الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله»**[1].

فيأتي بالأمر والنهي معتقدا أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتد في حدوده، كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء، كالخوارج والمعتزلة والرافضة، وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك، وكان فساده أعظم من صلاحه، ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهي عن قتالهم ما أقاموا الصلاة، وقال: **«أدوا إليهم حقوقهم وسلوا الله حقوقكم»**[2] وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة. وأما أهل الأهواء - كالمعتزلة - فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم، ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة: «التوحيد» الذي هو سلب الصفات «والعدل» الذي هو التكذيب بالقدر و«المنزلة بين المنزلتين» و«إنفاذ الوعيد» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذي هو قتال الأئمة» انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام مسلم «باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول» ح (١٨٤٣).

نقــول: الدين هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحـيها الاعتقـ
والتـشريعـية والفكرية والخلقـيـة والعملـيـة، فالله ـ تعـالى ـ أنزل ـ
التشريعات الإلهـية والتعليمات النبوية لحفـاظة نظام الإنسانية، وضـ
إحياء الدين نفهمها من طريق حـياة الصحابة ﷺ، فهم كانوا يقو
«إن الله ابتعـثنا لنخرج من شـاء من عبـادة العباد إلى عـبادة رب العـ
ومن ضيـق الدنيا إلى سـعة الدنيـا والآخرة من جور الأديـان إلى عد
الإسـلام» فالصـحابة كـانوا يبينون للـناس نظام الحيـاة كلها، فـهم ـ
يتلفظوا «بـلا إله إلا الله» بألسنتـهم وكـفى، بل كـانوا يعـرفـون النـ
بالنظام الذي به تستقيم حـياتهم في الدنيـا، ويسعـدون به في الآخر
وقد كـان الكفـار يرون في الصحـابة ﷺ الصفـات الإيمانية المفـ
للهداية والتي كانت سببا لدخولهم في الدين.

فالآن نـحن نتعلم من غـير المسلمين كـيف نأكل، وكيف نـشرب
وكيف نلبس، وكيف نعمل مثلهم، فهل بعد ذلك نستطيع أن نقول لهـ
إن الدين الإسلامي هو أساس النظام في العالـم كله؟

وهل يصدقوننا في ذلك؟

لذلك لابد من العودة إلى الدين لأنه هو الطريق الوحـيد لمعرفة ـ
تعالى، وللتعـرف على قدرته ونعترف بوحدانيـته ـ تعالى ـ، وقيو
وإرادته، فهـو الخالق وحده والمالك وحـده وهو الرازق وحده، ولذ
فهو المعبود وحده والمقصود وحده والمستعان به وحده لا سواه..

نحن لا يمكن أن نكون في العـافية إلا إذا كـان الله معنا، وهو الـ
بيده جميع الأمور، والله ـ تعـالى ـ ما سلّم الأمر للمخلوق في تصر
حيـاتنا الدنيا، لأن له الخلق والأمـر، فلابد أن نجـعل علاقتنـا مع خـ
الأشياء كلها، ومالكها كلها، ولا نجعلها مع من لا يملكها ﴿أَفَمن يخـ
كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾[1] ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عـ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحـ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

أقول: فإذا ظهرت المصلحة الخالصة، سعينا في تحصيلها، أما لو كان الظاهر هو المفسدة الخالية من المصالح فنعمل على دفعها، وإن اختلط الأمر بين المصالح والمفاسد، نحتاط للمصالح بالفعل، مقدرين أنها محققة، ونحتاط للمفاسد بالترك، على أنها واقعة..

وهو ما قرره الإمام العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام ج١ ص٥٩ حيث قال رحمه الله: «والضابط أنه مهما ظهرت المصلحة الخلية عن المفاسد يسعى في تحصيلها، ومهما ظهرت المفاسد الخلية عن المصالح يسعى في درئها، وإن التبس الحال احتطنا للمصالح بتقدير وجودها وفعلناها، وللمفاسد بتقدير وجودها وتركناها. وإن دار الفعل بين الوجوب والندب بنينا على أنه واجب وأتينا به وهذا فيما لا تشترط النية فيه كدفع الصائل عن النفس فإنه محبوب على قول وواجب على آخر، وأما ما تشترط فيه النية ففيه نظر من جهه حزم النية، وإن دار بين الندب والإباحة بنينا على أنه مندوب وأتينا به، وإن دار بين المكروه والمباح بنينا على أنه مكروه وتركناه» انتهى.

وفي كل الولايات الدينية الشرعية، نقدم الأقدر على جلب مصالحها ودفع مفاسدها، ويكون القائم فيها بإتمام الأركان والشرائط، أولى من القائم لإتمام السنن والآداب والهيئات، وهذا يتنوع بتنوع الولايات، **قال الإمام العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام ج١ ص٧٦: «والضابط في الولايات كلها أنا لا نقدم فيها إلا أقوم الناس بجلب مصالحها ودرء مفاسدها، فيقدم الأقوم بأركانها وشرائطها، على الأقوم بسننها وآدابها، فيقدم في الإقامة الفقية على القارئ، والأفقه على الأقرأ، لأن الفقيه أعرف باختلال الأركان والشرائط، وبما يطرأ على الصلاة من المفسدات، وكذلك يقدم الورع على غيره لأن**

ورعه يحثه على إكمال الشرائط والسنن والأركان، ويكون أقوم إذا بمصلحة الصلاة وقدم بعض الأصحاب بنظافة الثياب، لأن الغالب أن المتنزه من الأقذار التي ليست بأنجاس أنه يتنزه عن النجاسات، فيكون أقوم بشرط الصلاة، وكذلك يقدم البصير على الأعمى عند بعضهم لأنه يرى من النجاسات ما لا يراه الأعمى؛ فيكون أشد تحرزا من النجاسات التي اجتنابها شرط في صحة الصلاة.

وأما غض الأعمى عن المحرمات فليس غضه شرطا في صحة الصلاة، وأما غسل الموتى وتكفينهم وحملهم ودفنهم فيقدم فيه الأقارب، لأن حنوهم على ميتهم يحملهم على أكمل القيام بمقاصد هذه الواجبات وكذلك يقدم الآباء على الأولاد، لأن حنو الآباء أكمل من حنو الأولاد، وكذلك يقدم القريب في الصلاة على الأموات على جميع أهل الولايات؛ لأن من الصلاة الشفاعة للميت، والقريب لفرط شفقته وشدة حزنه عليه يبالغ في الدعاء له ما لا يفعله الأجانب، وكذلك تقدم الأمهات على الآباء في الحضانة لمعرفتهم بها وفرط حنوهن على الأطفال، وإذا استوى النساء في درجات الحضانة فقد يقرع بينهن وقد يتخير والقرعة أولى.

ويقدم الآباء على الأمهات في النظر في مصالح أموال المجانين والأطفال، وفي التأديب وارتياد الحرف والصناعات لأنهم أقوم بذلك وأعرف به من الأمهات، وكذلك يقدم في ولاية النكاح الأقارب على الموالي والحكام، ويقدم من الأقارب أرفقهم بالمولى عليه كالآباء والأجداد، وإذا اجتمع أولياء النكاح في درجة واحدة كالأخوة والأعمام، فالأولى للمرأة أن تأذن لأسنهم وأعلمهم وأفضلهم، ولا تعدل إلى غيره لما في ذلك من كسر قلبه، ولما في توليته من مصلحتها، فإن أذنت للجميع جاز لتساويهم في تحصيل المصلحة المقصودة من

النكاح، فإذا أذنت لهم فالأفضل لهم أن يقدموا أفضلهم لما ذكرناه، فإن لم يقدموا أحدهم وتنازعوا أيهم يتولى العقد أقرع بينهم لتساويهم. والإنسان يأنف من تقديم نظيره عليه ولا يأنف من تقديم من هو خير منه عليه، وكذلك قلنا الأفضل أن يفوض العقد إلى أفضلهم، ويقدم الجد على الأوصياء والأئمة والحكام، ويقدم الأوصياء على الحكام، وإنما قدمنا الأقرب من ذوي الأنساب لأن شفقته على المبالغة في جلب المصالح ودرء المفاسد.

ويجب على الأئمة في تفريق مال المصالح أن يصرفوه في تحصيل أعلاها مصلحة فأعلاها، وفي درء أعظمها مفسدة فأعظمها» انتهى.

أقول: وفي أحكام الولايات، قد تتعذر العدالة في الولاية العامة أو الخاصة، بحيث يتعذر توفر العدل، فحينئذ نولي أقلهم ضررا وأضعفهم فسادا، جلبا للمصالح العامة ودرءا للمفاسد المحققة..

وفي ذلك يقول الإمام العز بن عبدالسلام رحمه الله تعالى أيضًا في قواعد الأحكام ج١ ص٨٥: (قاعدة في تعذر العدالة في الولايات: إذا تعذرت العدالة في الولاية العامة والخاصة بحيث لا يوجد عدل، ولينا أقلهم فسوقا وله أمثلة:

أحدها: إذا تعذر في الأئمة فيقدم أقلهم فسوقا عند الإمكان، فإذا كان الأقل فسوقا يفرط في عشر المصالح العامة مثلا وغيره يفرط في خمسها لم تجز تولية من يفرط في الخمس فما زاد عليه، ويجوز تولية من يفرط في العشر، وإنما جوزنا ذلك لأن حفظ تسعة الأعشار بتضييع العشر أصلح للأيتام ولأهل الإسلام من تضييع الجميع، ومن تضييع الخمس أيضًا، فيكون هذا من باب دفع أشد المفسدتين بأخفهما، ولو تولى الأموال العامة محجور عليه بالتبذير نفذت تصرفاته العامة إذا وافقت الحق للضرورة، ولا ينفذ تصرفه لنفسه، إذا

لا موجب لإنفاذه مع خصوص مصلحته، ولو ابتلى الناس بتولية امرأة أو صبي مميز يرجع إلى رأي العقلاء فهل ينفذ تصرفهما العام فيما يوافق الحق كتجنيد الأجناد وتولية القضاة والولاة، ففي ذلك وقفه.

ولو استولى الكفار على إقليم عظيم فولوا القضاء لمن يقوم بمصالح المسلمين العامة، فالذي يظهر إنفاذ ذلك كله جلبا للمصالح العامة ودفعا للمفاسد الشاملة إذ يبعد عن رحمة الشرع ورعايته لمصالح عباده تعطيل المصالح العامة وتحمل المفاسد الشاملة، لفوات الكمال فيمن يتعاطى توليتها لمن هو أهل لها، وفي ذلك احتمال بعيد.

المثال الثاني: الحكام إذا تفاوتوا في الفسوق قدمنا أقلهم فسوقا، لأنا لو قدمنا غيره لفات من المصالح ما لنا عنه مندوحة، ولا يجز تفويت مصالح الإسلام إلا عند تعذر القيام بها، ولو لم يجز هذا وأمثاله لضاعت أموال الأيتام كلها، وأموال المصالح بأسرها. وقد قال الله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾. ولو فاتت العدالة في شهود الحكام ففي هذا وقفة، من جهة أن مصلحة المدعي معارضة بمفسدة المدعي عليه، والمختار أنه لا يقبل، لأن الأصل عدم الحقوق المتعلقة بالذمم والأبدان، والظاهر مما في الأيدي لأربابها.

المثال الثالث: إذا تعذرت العدالة في ولاية الأيتام فيختص بها أقلهم فسوقا فأقلهم، لأن حفظ البعض أولى من تضييع الكل، فإذا كان مال اليتيم ألفا وأقل ولاية فسوقا يخون في مائة من الألف ويحفظ الباقي لم يجز أن يدفع إلى من يخون في مائتين فما زاد عليها.

المثال الرابع: فوات العدالة في المؤذنين والأئمة يقدم فيها الفاسق على الأفسق تحصيلا للمصالح على حسب الإمكان» انتهى.

أقول: وقد بين الإمام العز بن عبدالسلام حقيقة السياسة لمن تصدر بلا أهلية لباب الولايات، ووضح أن البعض قد يقدم على فعل المفاسد الراجحة، أو يترك المصالح المتيقنة، واصفا ذلك أنه من قبيل السياسة، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: **«والذي يسميه الجهلة البطلة سياسة هو فعل المفاسد الراجحة أو ترك المصالح الراجحة على المفاسد. ففي تضمين المكوس والخمور والأبضاع مصالح مرجوحة مغمورة بمفاسد الدنيا والآخرة: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾** وبمثل هذا يفتون الأشقياء أنفسهم بإيثار المفاسد الراجحة على المصالح قضاء للذات الأفراح العاجلة، ويتركون المصالح الراجحة للذات خسيسة أو أفراح دنيئة، ولا يبالون بما رتب عليها من المفاسد العاجلة أو الآجلة، وذلك كشرب الخمور والأنبذة للذة إطرابها، والزنا أو اللواط، وأذية الأعداء المحرمة، وقتل من أغضبهم وسب من غاضبهم، وغصب الأموال والتكبر والتجبر، وكذلك يهربون من الآلام والغموم العاجلة التي أمرنا بتحملها لما في تحملها من المصالح العاجلة، ولا يبالون بما يلتزمون من تحمل أعظم المفسدتين تحصيلا للذات أدناهما، وكذلك يتركون أعظم المصحلتين تحصيلا للذات أدناهما. أسكرتهم اللذات والشهوات فنسوا الممات وما بعده من الآفات فويل لمن ترك سياسة الرحمن، واتبع سياسة الشيطان، وارتكب الفسوق والعصيان، أولئك أهل البغي والضلال» انتهى.

أقول: ولقد كانت وصية أئمة أهل السنة والجماعة، لعموم أمة النبي ﷺ، بعدم المصادمة والمواجهة للولاه والخروج عليهم، إذا غلبت عليهم الأثرة، ومنعوا المسلمين ما لديهم من حقوق، تبعا لوصية النبي ﷺ في ذلك، وهو ما رواه الإمام مسلم بسنده عن

عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: «**إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قالوا يا رسول كيف تأمر من أدرك منا ذلك قال تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم**»[1].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه للحديث ج١٢ ص٢٣٢: (هذا من معجزات النبوة وقد وقع الإخبار متكررا ووجد مخبره متكررا وفيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولى ظالما عسوفا فيعطي حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه ودفع شره وإصلاحه وتقدم قريبا ذكر اللغات الثلاث في الأثرة وتفسيرها والمراد بها هنا استئثار الأمراء بأموال بيت المال. والله أعلم) انتهى كلام الإمام النووي.

فكان إرشاد النبي ﷺ لأمته عند فسق الولاة وظلمهم، ومنعهم الحقوق، هو بترك المصادمة معهم، والخروج عليهم، لما يتبع ذلك من مفاسد ومحن ضررها غالب، تحيط به الدماء، وتُفتن فيه الدهماء، فنحن لا ندفع المكروه بالمكروه، ولا الحرام بالحرام..

وقد ضربوا لذلك مثلا: «بالأسد والذئب والثعلب، عندما خرجوا للصيد على أن يقتسموا بينهم ما يصطادون، فاصطاد الأسد غزالة فأتى بها، واصطاد الذئب بقرة كبيرة سمينة فأتى بها، واصطاد الثعلب أرنبا فأتى به..

فقال الأسد للذئب: أنت تُقَسِّم هذا الصيد علينا..

فقال الذئب: نعم، البقرة لسيدنا الأسد، والغزالة لي، والأرنب

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه «باب علامات النبوة في الإسلام» ح (٣٤٠٨)، ورواه الإمام مسلم في صحيحه «باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول» ح (١٨٤٢).

للثعلب الذي اصطاده، فضربه الأسد بمخلبه ففقأ عينه، وطرحها على الأرض، ثم قال للثعلب قسم أنت الصيد، فإن هذا الذئب لا يعرف القسمة . .

فقال الثعلب: نعم سمعا وطاعة، القسمة الصحيحة هي أن تكون الغزالة لمولانا الأسد يفطر عليها، أما البقرة فلمولانا الأسد أيضًا لوجبة الغداء، فهي بالكاد تكفيه، وأما الأرنب فلمولانا الأسد أيضًا يتعشى به، ليكون أسهل على معدته عند النوم.

فقال له الأسد: أحسنت أيها الثعلب، ولكن من علمك هذه القسمة الطيبة . .

قال الثعلب: يا مولانا الأسد علمني إيَّاها عين هذا الذئب التي فُقئت» انتهى.

أقول: فالحرص على أخذ الحقوق من أصحاب الولايات والسياسات، والمصادمة والمواجهة على ذلك إذا منعوه، فيه وحشة الفتنة والابتلاء، وقد قال ﷺ : «**أدوا إليهم حقوقهم وسلوا الله حقكم**»[1] وقال ﷺ : «**عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم**»[2] «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[3].

فهذه الأحاديث ذكرها النبي ﷺ لإعلام الله ـ عز وجل ـ له بما سوف يصير إليه أحوال الولاة، من حيازة الحقوق دون رعيتهم، وشدة بطشتهم، على ما في الناس من ضعف ووهن، وقلة ذات اليد،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام مسلم «باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق» ح (١٨٤٦).

(٣) رواه الإمام مسلم «باب الأمر بالصبر على ظلم الولاة واستئثارهم» ح (١٨٤٥).

فأحاط أمته ﷺ بسياج الحفاظة من الآلام، وأمرها بالكف والصبر على الأحزان، ولو أطاعت الأمة رسولها ﷺ لوثبت من كبوتها، وأفاقت من غفوتها، وأخذت رايتها، وعادت لمكانتها ورتبتها..

أقول: فإذا غلبت المصالح وتوفرت حصّلناها بأكملها، وإن تعذر تحصيل المصالح كلها حصلنا الأحسن فالأحسن، والأولى فالأولى، وهو ما أورده الإمام العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام ج١ ص٦٢ حيث قال رحمه الله: «إذا اجتمعت المصالح الأخروية الخالصة، فإن أمكن تحصيلها حصلناها، وإن تعذر تحصيلها حصلنا الأصلح فالأصلح والأفضل فالأفضل، لقوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾[1].

وقوله: ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم**﴾[2]، وقوله: ﴿**وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**﴾[3]» انتهى.

أقول: وأفضل الإحسان أن نعلم الناس توحيد العبادة لله ـ عز وجل ـ، بإخراج اليقين الفاسد على الأشياء والمشاهدات، وإدخال اليقين الصحيح على المولى ـ عز وجل ـ وحده، ليكون قصدهم إليه ـ سبحانه ـ، واستعانتهم واستغاثتهم وتوكلهم وإنابتهم عليه وحده ـ عز وجل ـ لا على سواه، أهل الدنيا يتعلقون بالمخلوق والمحسوسات، ونحن واجبنا تجاه هذه الأمة أن نُعلقها بالله ـ عز وجل ـ وحده لا شريك له.

---

(١) سورة الزمر الآية: ١٧، ١٨.

(٢) سورة الزمر الآية: ٥٥.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٤٥.

أقـول: فلابد مع تغيير المنكر من الحكمة المصاحبة للأمر والنهي، وبدون الحكمة قـد يتحرك الإنسان مـن ترك الطاعة وهي معصـية إلى الكفر، أو يتحرك من فعل المعصية إلى الإصرار عليها..

مثال ذلك: إنسان لا يصلي فلما أكثر عليه من يأمره بالصلاة وهو لا يستجيب، قـال له: يا أخي ألست بمسلم؟، «بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة»، لم لا تصلي؟

فكان نتيـجة أمره بمعـروف الصلاة بدون الحكمـة، أن أجابه على كلامـه منفعلا، وهو يرد على اتهـامه، وينتصـر لنفسه أمـامه، وذلك بقوله: نعم أنا لست بمسـلم، ولا أعرف عن الإسلام شيـئًا، ولا أريد أن أعرف عـن الإسلام شـيئـا، ولن أصلي من أجلك وبسببك أبدا، فجعله بسوء فعله، وأمره بالمعـروف ونهيه عن المنكر بعيدا عن الحكمة يتلفظ بألفـاظ الكفر، ونقـله بعدم الحكمـة في أمره ونهـيه من فـعل المعصية وهو ترك الصلاة، إلى الكفر، بالتصريح بالتبرى من الإسلام، وبدون الحكمة نقله من فعل المـعصية إلى الإصرار عليهـا، فقال له لن أصلي بسببك أبدا..

لذلك نرى أهل الدعوة في منهجـهم للتغيير، يتحـركون على أمة النبي ﷺ بالرفق واللين، والشفقة والرحـمة، وعندما يقابلون تارك الصـلاة في الطريق، لا يقـولون له بينـنا وبينك ترك الصـلاة، ولكن يقولون له جمع الإسلام بيننا وبينك بهذه الكلمة «لا إله إلا الله» فنحن أخوة وفـلاحنا ونجاحـنا في هذه الكلمة، ولو تأتي مـعنا إلى المسـجد فنحن نتشـرف بقدومك، ونكون مسرورين لذلك، ولا يذكـرون أمامه المثـالب والمعـايب، بل يذكـرون أمـامه الكمـال، ومع ذكـرهم لهـذا الكمال، فكل واحد على المخالفة يشـعر بالنقص، دون أن يتوجه إليه الكلام، فلا يجلبون بحركتهم على المنكرات منكرا أشد، ولا تتسع مع دعوتهم دائرة الشـر على المسلمين، أو الفتنة والبلاء للمـؤمنين، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا صالحين مصـلحين، راشدين مهديين، جالبين للخير والصلاح، دافعين للسـوء والفساد، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، آمين.

بعض صور إنكار المنكر

قد أورد بعض هذه الصور الإمام السفاريني في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: قصة الإمام شمس الدين مع تيمور قلت: قد سنح في خلدي أن أذكر هنا قصة صدرت من سيدنا الإمام الهمام شمس الدين قاضي القضاة أبي إسحاق إبراهيم ابن قاضي القضاة شمس الدين بن مُفلح الرَّاميني الأصل ثم الدمشقي ولد صاحب الفروع، وذلك أن تيمور كَورْكان ويقال له (تيمورْ لنك) لَمَّا فعل بالشام وأهلها ما فعل، وعم بظلمه البر والبحر والسهل والجبل، وكان قد طلب الصلح، واجتمع به أئمة الإسلام وأظهر الحلم والصفح، وكان عبدالجبار المعتزلي إمامه. فطلب من العلماء كتابة سؤال يتوصل به إلى الإنكار والضلال وهو أن يكتبوا ويختموا الكتاب، بأن فضيلة النسب مقدمة على فضيلة العلم بلا ارتياب، فتقاعسوا وأحجموا، وعلى الجواب وجموا، وعلم كلٌّ منهم أنه قد ابتلي، فابتدر بالجواب الإمام شمس الدين الحنبلي فقال: درجة العلم أعلى من درجة النسب، ومرتبتها عند الخالق والمخلوق أسنى الرتب، والهجين الفاضل يقدم على الهجان الجاهل، والدليل في هذا جلي. وهو إجماع الصحابة على تقديم أبي بكر على علي، وقد أجمعوا أن أبا بكر أعلمهم. وأثبتهم قدما في الإسلام وأقدمهم، وإثبات هذه الدلالة، من قول صاحب الرسالة «لا تجتمع أمتي على ضلالة». ثم أخذ القاضي شمس الدين في نزع ثيابه، مصيخًا لتيمور وما يصدر من جوابه، ففكك أزراره، وقال لنفسه إنما أنت إعارة. وكأس الموت لابد من شربها، فسواء ما بين بعدها وقربها، والموت على الشهادة، من أفضل العبادة، وأفضل أحوالها لمن علم أنه إلى الله صائر، كلمة حق عند سلطان جائر. فقال له تيمور ما حملك على نزع ثيابك؟ فقال له الشيخ بذلا لنفسي في سبيل الله صابراً لعقابك. فقال له

قـد وسعك حلـمنا. فلا تعـدم سلمنا. فـقـال له أيهـا السلطان الجليل: حـيث مننت بالحلم على هذا العـبـد الذليل، فليكن الأمـان مـصحـوبًا بالتفضيل، من صولة بعض العسكر الذي عدة مِلله تفوق على أمم بني إسرائيل. ففيـهم من ابتدعوا بدعًا، وقطعوا في مذاهبـهم قطعًا، ومزقوا دينهم وكانوا شـيعًا. ولا شك أن مجالس حـضرتك تنقل، وتخص في سـريانها وتشـمل، وإذا ثبت هذا الجـواب عني، ووعاه أحـدٌ عن سني خصـوصًا مـن ادعى موالاة عليٍّ، ويسـمى في رفضـه من والى أبا بكر بالناصبي، وتحـقق مني يقـيني، وأنه لا ناصـر لي يقـيني، فـإنه يقـتلني جهارًا، ويريـق دمي نهارًا. وإذا كان كذلك فـأنا أستعد لهـذه السعادة، وأختم أحكام القضـاء بالشهادة. فقال له تيمـور: لله درك ما أفصحك، وأنصرك لمقالتـك، وأنصحك، فأمر بجمـاعة يشيعونـه، ويحرسونه من أعـدائه في ذهابه لداره ويحـفظـونه فـأحـاطت به الجند إحـاطة الهـالة بالقمر، وصاروا حوله كالسور حول المسور. ومع هذا فقد وكزه بعض الطغام، من تـلك العساكـر الرعاع الغـشام، فكان ذلك سببًا لحـصول السعادة. فجرى ما جرى وخـتم الله عمله بالشهادة، وقد أشار إلى هذه القصـة ابن عرب شاه فـي تاريخ تيمور، والشـيخ العليمي في المقـصد الأحمـد، تراجم أصحاب الإمام أحـمد. رضوان الله عليهم أجـمعين.

ولما وعظ الإمام الحافـظ ابن الجوزي الخليفة (المستـضيء بأمر الله) سنة أربع وسبـعين وخمسـمائة قال له رحـمه الله تعالـى: لو أنني مثلت بين يدي السُّدَّة الشريفـة لقلت يا أمير المؤمنين: كن لله سبحـانه مع حاجتك إليه كـما كان لك مع غناه عنك أنـه لم يجعل أحدًا فـوقك، فلا ترضى أن يكون أحد أشـكر له منك. فتصـدق بصدقـات وأطلق محـبوسين.

ووعظ أيضًا في السـنة المذكورة والخليفـة حاضر فـبالغ في وعظ أمـير المؤمنين فما حكاه له أن الرشيد قال لشيبان عظني، فقال يا أمير المؤمنين

لأن تصحب من يخوفك حتى تدرك الأمن، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى تدرك الخوف، قال فسر لي هذا، قال من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول لك أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة رسول الله نبيكم، فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله. فقلت له في كلامي: يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وأنا أقدم خوفي عليك على خوفي منك. انتهى.

وفي (مثير العزم الساكن، إلى أشرف الأماكن) لابن الجوزي، أنه لما حج هارون الرشيد وعظه عبدالله بن عبدالعزيز العمري، قال سعيد ابن سليمان: كنت بمكة في زقاق الشطوي وإلى جنبي عبدالله بن عبدالعزيز العمري وقد حج هارون الرشيد، فقال له إنسان يا عبدالله هو ذا أميرُ المؤمنين يسعى، قد أخلي له المسعى، قال العمري للرجل لا جزاك الله عني خيراً كلفتني أمراً كنت عنه غنيًا. ثم تعلق نعليه وقام فتبعته فأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا، فصاح به يا هارون، فلما نظر إليه قال لبيك يا عم، قال ارق الصفا، فلما رقيه قال ارم بطرفك إلى البيت، قال قد فعلت، قال كم هم؟ قال ومن يحصيهم؟ قال فكم في الناس مثلهم؟ قال خلق كثير لا يحصيهم إلا الله. قال اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه وأنت وحدك مسئول عن الجميع، فانظر كيف تكون. قال فبكى هارون وجلس، وجعلوا يعطونه منديلاً منديلاً للدموع. قال العمري: وأخرى أقولها، قال قل يا عم، قال والله إن الرجل ليسرع في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرع في أموال المسلمين، ثم مضى وهارون يبكي. وذكر في الكتاب المذكور أن هارون الرشيد كان يقول: والله إني لأحب الحج كل سنة ما يمنعني إلا رجل من ولد عمر ثمَّ يسمعني ما أكره، والله أعلم.

في تغيير المنكر نحن
ندفع المحبوب بالمحبوب

في كل المنكرات التي أحبهـا أصحابها، وانغمسوا فـيها، وتعلقوا بها، لابد من استـعمال الحكمة عند تغييرهـا، أنت إذا ذممت محبوب عبد يـغضب عليك، أما إذا قدمت له مـحبوبا أكبـر من محبوبه فـهو يأخذ الكبيـر ويترك الصغير، والنبي ﷺ في تغـييره للمنكرات دفع المحبوب بالمحبوب، وغيَّر المنكرات بصورة هادئة يسيرة، حتى لم يشعر صاحب المنكر أن أمامه قوى تجاذبه، أو أمور تدفعه..

ولقد كانت المنـكرات أمام النبي ﷺ كبيرة وعظـيمة، ومع هذا كانت حـكمة النبـوة تسوق هذه المخالفـات إلى زوالها، وتشـفي هذه الأمراض بترياق دوائها..

وهذه قصة الشاب الذي أتى إلى النبي ﷺ ليأذن له في الزنى، وهو أنكر المنكرات وسـماه الله - تعـالى -: ﴿**فاحشة وساء سبيلا**﴾ يطلب هذه الكبيرة من سيد المرسلين ﷺ، ولم يتحاشى أو يتردد في سؤاله، ورسول الله ﷺ يربـي ويعلم أمته، كيف تكون حكمـتها، وأين يمضي سبيلها، مـا ضربه وما شتمه، وما سـبه وما نهره، ولكن قربه ورفعه وعالجه ونصحه..

وإليك القصـة كاملة قبل أن نشـرع في الاستضاءة من أحكامـها، وهو ما رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «**إن فتى شابـا أتى النبي ﷺ فقـال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا فـأقبل الـقوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه فقـال: ادنه فدنا منه قريبا قال: فجلس قال: أتحبـه لأمك؟ قال: لا والله جـعلني الله فداءك قـال: ولا الناس يحبـونه لأمهـاتهم قال: أفـتحبـه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسـول الله جعلني الله فداءك قـال: ولا الناس يحبونه لبـناتهم قال: أفتـحبه لأخـتك؟ قال: لا والله جعلني الله فدائك قـال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال: أفتـحبه**

لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[1].

فانظر إلى الصحابة ﷺ عندما سمعوا مقالة هذا الشاب طالب الزنى، كيف أقبلوا عليه يزجروه ويُصمِّتوه بقولهم: مه مه، وكانت كلماتهم وزجرهم تدفعه وتُقصيه، ورسول الله ﷺ يُقربه ويدنيه، ويدفع له هذا المنكر المحبوب الذي يطلبه، بمحبوب أجل، ومعروف أوفى، فالشيء المحبوب لابد أن يكون في القلب شيء محبوب يدفعه.

كما أن النبي ﷺ مع صدور المنكر من هذا الشاب الذي طلب منه الترخص في الزنا! لم يأمره بالتزام الحكم، أو التعريف به، بل دفع المحبوب عنده من المعصية والشهوة، بالمحبوب من العفة والشرف والكرامة عند العرب. .

فالأصل في تغيير كل المنكرات أننا نستبدل المحبوب بالمحبوب، لذلك قال له النبي ﷺ أتحبه لأمك، أتحبه لابنتك، أتحبه لأختك. . ، فدفع المحبوب من الشهوة والمعصية، بالمحبوب من تعظيم العرض والشرف والأنساب في نفس كل عربي، فلم يجد هذا الشاب في نفسه بدا من بغض الزنا، لمحبته للشرف والعرض والكرامة والنخوة، وتغير معه المنكر بدون مصادمة أو مجاولة، أو أخذ أو رد، بل أعين بحكمة النبوة في التغيير، فلم يتأثر بقوة الشهوة والمعصية، لغلبة المحبوب الذي دفعها، وتعارض وجوده معها. .

---

(١) سبق تخريجه.

ثم ختم النبي ﷺ هذا الخير لهذا الفتى بأن دعى له بقوله «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء**».

فدعا له ولم يدع عليه، وأرغم شيطانه الذي أسرع إليه، بخلاف الذين يدعون اليوم على عصاة المسلمين، ويُعينون عليهم الأبالسة والشياطين، دفعا للمنكر بزعمهم، وتبرأ من فسقهم وإجرامهم، مع كون هؤلاء هم الجديرون بالنصح والتذكير، المفتقرون للعناية والرعاية من الطائعين.

وهذه قصة أبي محجن الثقفي رضي الله عنه، الذي حُد في الخمر كثيرا حتى أعياهم ويقال أن عمر رضي الله عنه حده في الخمر أكثر من ست مرات، حتى وضعوه في القيود وسجنوه وأوثقوه، وعندما أبلى للمسلمين في القادسية البلاء الحسن، وكان له الأثر الأعظم بفضل الله - تعالى - في نصر المسلمين في القادسية، قام سعد رضي الله عنه فقال مفتخرا به أمام الناس «**لا والله لا أحد اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم**» وخلى سبيله، وفي الرواية الأخرى قال له سعد: **والله لا نجلدك في الخمر أبدا**، فما كان جواب أبي محجن إلا أن قال: **وأنا والله لا أشربها كنت أنف أن أدعها من أجل جلدكم** قال الراوي: «**فلم يشربها بعد**»، فدفع سعد رضي الله عنه المنكر المحبوب، في شرب وادمان الخمر عند أبي محجن رضي الله عنه بالمحبوب المرغوب عنده، وعند كل عربي وكل مسلم، وهو حب الشجاعة والبطولة والتضحية في سبيل الله، والفخر والاعتزاز بذلك، هذه الأوصاف التي أضافها كلها إليه، ونوه بفضلها عنده، فلما شهره سعد رضي الله عنه بالبطولة والشجاعة، والتضحية في سبيل الله، وهي أحب محبوب لديه، دفع هذا المحبوب الأجل الأوفى

المحبـوب المنقوص الأقل وهو حب الخـمر، وأعلن أبو مـحجن رضي الله عنه تغيـره وتبدله، من إدمان الخـمر، إلى الإقـلاع عنها، ومن حبـها إلى بغضها، وتغير المنكر المعتاد في شرب الخمر في حياة أبي محجن رضي الله عنه إلى الإقلاع والتوبة والإنابة..

وكان كل ذلك عن طريق دفع المحـبوب بالمحبوب، وإليك القـصة كاملة كمـا خرجها عبـدالرزاق عن ابن سيرين قال: كـان أبو محجن الثقفي رضي الله عنه لا يزال يجلد في الخمر فلمـا أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه فلما كان يوم القادسية رآهم يقـتتلون فكأنه رأى أن المشركين قد أصابوا من المسلمين فـأرسل إلى أم ولد سعد أو إلى امـرأة سعـد رضي الله عنه يقول لها: إن أبـا محجن يقـول لك: إن خليت سبـيله وحملتـه على هذا الفرس ودفـعت إليه سـلاحا ليكونن أول من يرجع إليـك إلا أن يقتل وأنشأ يقول:

كَفَى حَزَنًا أنْ تَلْتَقِيَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا ... وأُتْرَكَ مَشْـدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِـيَـا

إذا قُمْتُ عَنَّانِي الْحَدِيدُ وغُلِّقت ... مَصَارِعُ دُونِي قَد تصمُّ المنادِيَا

فذهبت الأخـرى فقـالت ذلك لامرأة سعـد، فحلت عنه قـيوده، وحمل عـلى فرس كان في الدار، وأُعْـطِيَ سلاحا، ثم خـرج يركض حـتى لحق بالقوم، فـجعل لا يزال يحـمل على رجل فـيقـتله ويدق صلبه، فنظر إليه سعد فجـعل يتعجب منه ويقول: من ذلك الفارس؟ فلم يلبثوا إلا يسيرا حـتى هزمهم الله، ورجع أبو محجن ورد السلاح وجعل رجليه في القيود كما كان، فجاء سعد رضي الله عنه فقالت له امرأته أو أم ولده: كيف كان قتـالكم؟ فجعل يخبرها ويقول: لقـينا ولقينا حتى بعث الله رجلا على فرس أبلق، لولا أني تركت أبا محجن في القيود لظننت أنها بعض شمائل أبي محـجن، فقالت: والله إنه لأبو محجن

كان من أمره كذا وكذا فقصت عليه قصته، فدعا به وحل قيوده وقال: والله لا نجلدك في الخمر أبدا، قال أبو محجن ﷺ: وأنا والله لا أشربها، كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم، قال: فلم يشربها بعد ذلك، كذا في الاستيعاب (٤/ ١٨٤) وسنده صحيح كما في الإصابة (٤/ ١٧٤)، وأخرجه أيضًا أبو أحمد الحاكم عن محمد بن سعد - بطوله وفي حديثه: وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزمهم الله، فجعل الناس يقولون: هذا مَلَكٌ، وسعدٌ ﷺ ينظر فجعل يقول: الضَّبْرُ ضَبْرُ البَلْقَاءِ، والظَّفْرُ ظَفْرُ أبي محجن، وأبو محجن في القيد، فلما هزم العدو رجع أبو محجن حتى وضع رجله في القيد، فأخْبَرَتْ بنتُ خَصَفَةَ سعدا ﷺ بالذي كان من أمره فقال: لا والله لا أحُدُّ اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على (يده) ما أبلاهم قال: فخلى سبيله فقال أبو محجن: لقد كنت أشربها إذ كان يقام عليَّ الحد وأطهر منها فأما إذ بَهْرَجْتَني فوالله لا أشربها».

وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة بهذا السند وفيها: أنهم ظنوه أنه ملكًا من الملائكة، ومن طريقه أخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/ ١٨٧).

وذكره سيفٌ في الفتوح وساق القصة مطولة، وزاد في الشعر أبياتا أخرى وفي القصة: فقاتل قتالاً عظيمًا، وكان يكبر ويحمل فلا يقف بين يديه أحد، وكان يقصف الناس قصفًا منكرا، فعجب الناس منه وهم لا يعرفونه، كذا في الإصابة.

ومن الفوائد في قصة أبي محجن ﷺ السابقة، كيف أنه مع كونه أقترف كبيرة من الكبائر، وهي شرب الخمر، وجلد فيها أكثر من مرة، ومع ذلك الله - تعالى - يجعله سببا في الفتح لمحبته ﷺ لله - تعالى -

ولرسوله ولنصرة دينه، وحزنه وكمده على مصاب المسلمين، وخوفه من هزيمتهم..

فبهذه المشاعر والنيات، ما حرمه الله ـ تعالى ـ أن يجعل الفتح على يديه، وجعل ثمرة هذه المشاعر والنيات أن تاب عليه من الخمر، فأقلع عنها تماما..

فيا من ترون أن ليس للعصاة مكان في عز ونصرة هذا الدين، هلا راجعتم أنفسكم وتمهلتم في أحكامكم، ونظرتم إلى الله ـ تعالى ـ كيف لم يغلق الباب أمامهم، وما ردهم ودفعهم، بل قبلهم وأدناهم، وأنتم بالمخالفة تدفعونهم وتردونهم، وتلفظونهم من بين أيديكم، تعظما عليهم واستقلالا لمكانهم، وقد يكون في قدم واحد منهم الخير، شرط أن نوسع لها، ونرحم عليها..

فإلى هؤلاء الذين يأكلون العصاة بأعينهم، ويجلدونهم بألسنتهم، ويلعنونهم بقلوبهم رويدا.. وتمهلوا فقد تكون نجاة المسلمين على أيديهم، ونصرهم وظفرهم منهم، خاصة مع صدق نياتهم وشرف مقاصدهم، وهذا ما حدث مع أبي محجن ﷺ، وغير أبي محجن كثير..

وهذا صفوان بن أمية ﷺ الذي تألفه النبي ﷺ بمحبوب عطائه، وبالمال الكثير إلى ترك وهجر الأصنام، التي كان يعبدها ويحبها ويقاتل عنها، وتحول إلى عبادة الله عز وجل وحده ونطق بشهادة الحق، عندما دفع محبوب العطاء، منكر الشرك والكفر ومحبة الأصنام، فأسلم وحسن إسلامه ﷺ، وقال كلمته المشهورة «ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأسلم مكانه»..

أقــول: فدفع النبي ﷺ منكر كـفره وشركه بمحـبوب العطاء، وتحول صفوان رضي الله عنه من منكر محبة الأصنام، والدفاع عنها، والمحاربة من أجلها، وإرسال المبعوثين لقتل النبي ﷺ نصرة لها، إلى معروف الإيمان، وصدق اليقين، وإعلان الشهادة..

واستـبدل النبي ﷺ بمحـبوب العطاء والمال الجـزيل، الذي بلغ واديا مملوءاً من النعم بين جـبلين، والذي وهبه لصـفوان رضي الله عنه، منكر محـبوب الأصنام والكفـر لديه، فلا بأس أن نعرض للـشخص شيـئا محـبوبا إليه لنأتي به، لذلـك نحن ندفع المحبوب بالمحـبوب، وندفع بمحبوب الإيمان وما تفرع منه من معروف، محبوب المعصية والمخالفة، وما تفرع منها من منكر.

فنحمل أمة النبي ﷺ من التعلق بمحبوب المنكرات، إلى التعلق بمحبوب الطاعات، وننقلهم من المحبوب البغيض المعيب، الذي يحيط بالشهـوات واللذات والمنكرات، إلى المحبوب العزيز المحـيط بالمعروف والطاعات، فليس مـفتاح القلوب دائمـا: افعل ولا تفعل، وقـد قال ﷺ عند فتح مكة: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**» لأنه يحب الفخر، فـدفع بهذا المحبوب مـا كان عليه من محـبة الشرك والأصنام والكفر، فأسلم وحسن اسلامه رضي الله عنه، ومع الأنصار عندما غضبوا عند قسـمة الغنائم وتوزيعها على المـؤلفة قلوبهم قال ﷺ موضـحا لهم «**هؤلاء الناس تألفتـهم بلعاعـة من الدنيا**» فدفع العطاء المحـبوب منه ﷺ لهؤلاء، ما كانوا عليه من مـحبوب الشرك والكفر والإعراض، وأسلموا وحسن إسلامهم رضي الله عنهم أجمعين.

الفرق بين قاعدة التوكل وقاعدة ترك الأسباب وما يكتنفها من مخاطر

وها هو الإمام القرافي يبين في الفروق، الفرق بين قاعدة التوكل وبين قاعدة ترك الأسباب، وهل بينهما تلازم، بحيث لا يصح التوكل إلا مع ترك الأسباب والاعتماد على الله ـ تعالى ـ وحده، أو لا ملازمة بين التوكل وترك الأسباب، بل التوكل أعم مطلقا من ترك الأسباب..

ثم وضح ـ رحمه الله تعالى ـ أن الخلائق انقسمت في ذلك إلى ثلاثة أقسام: **(القسم الأول)** عاملوا الله تعالى باعتماد قلوبهم على قدرته، مع إهمال الأسباب والعوائد، فهؤلاء حصل لهم التوكل وفاتهم الأدب مع الله ـ تعالى ـ.

(والقسم الثاني) لاحظوا الأسباب، ونظروا إليها واعتمدوا عليها على أنها هي الفاعلة، فيمموا طريقهم نحوها، وجعلوا قصدهم إيّاها، وأعرضوا عن التوكل على الله ـ تعالى ـ مُقَدِّرها ومُجريها، وهؤلاء هم عامة الخلق، وأكثر الناس، وهم شر الأقسام الثلاثة، وقد حذر الإمام القرافي من منكر ما ذهبوا إليه، وأنهم ربما وصلوا بالنظر إلى الأسباب والاعتماد عليها وحدها، والإعراض عن مسببها ومُقدرها ـ سبحانه وتعالى ـ، إلى أعظم الذنوب وأشد البلايا.

(والقسم الثالث) عاملوا الله تعالى باعتماد قلوبهم على قدرته سبحانه، مع عدم إهمال الأسباب والعوائد، بل طلبوا فضله في عوائده، فانشغلوا بالأسباب بجوارحهم، مع اعتماد قلوبهم على الله عز وجل، ناظرين في تلك الأسباب إلى مُسببها ومُيسرها سبحانه تعالى، فجمعوا بين التوكل والأدب، وهم النبيون والمرسلون والصديقون وخاصة عباد الله ـ تعالى ـ والعارفون بمعاملته، وهم خير الأقسام الثلاثة..

وإليك تحذيره الذي ساقه في هذه القاعدة، من منكر مخاطر القسم الثاني، حيث قال - رحمه الله تعالى -: {الفرق السابع والخمسون والمائتان بين قاعدة التوكل وبين قاعدة ترك الأسباب}

اعلم أنه قد التبس هاتان القاعدتان على كثير من الفقهاء والمحدثين في علم الرقائق، فقال قوم: لا يصح التوكل إلا مع ترك الأسباب، والاعتماد على الله - تعالى - قاله الغزالي في إحياء علوم الدين وغيره وقال آخرون: لا ملازمة بين التوكل وترك الأسباب، ولا هو هو وهذا هو الصحيح، لأن التوكل هو اعتماد القلب على الله - تعالى - فيما يجلبه من خير، أو يدفعه من ضُر، قال المحققون: والأحسن مُلابسة الأسباب مع التوكل للمنقول والمعقول، أما المنقول فقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[1] فأمر بالاستعداد مع الأمر بالتوكل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[3] أي تحرزوا منه فقد أمر باكتساب التحرز من الشيطان كما يُتحرز من الكفار، وأمر - تعالى - بُملابسة أسباب الاحتياط والحذر من الكفار في غير ما موضع من كتابه العزيز، ورسول الله ﷺ سيد المتوكلين وكان يطوف على القبائل ويقول: **من يعصمني حتى أبلغ رسالة ربي**.

وكان له جماعة يحرسونه من العدو حتى نزل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[4] ودخل مكة مظاهرا بين درعين في كتيبة

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٠.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٢٢.

(٣) سورة فاطر الآية: ٦.

(٤) سورة المائدة الآية: ٤.

الخضـراء من الحديد، وكـان في آخر عـمره وأكمل أحـواله مع ربه ـ تعالى ـ يدخر قوت سنة لعياله..

وأما المعـقول فـهو أن الملك العظيم إذا كـانت له جمـاعة، ولهم عوائد في أيام لا يحسنُ إلا فيها، وأبواب لا تخرج إلا منها، أو أمكنةٌ لا يُدفع إلا فيها، فالأدب مـعه أن لا يطلب منه فعل إلا حيث عوده، وأن لا يخالف عـوائده بل يجري عليهـا، والله ـ تعالى ـ ملك الملوك وأعظم العظـمـاء بل أعظم من ذلك رتَّب مُلكـه على عـوائد أرادها، وأسبـاب قدرها، وربط بها آثار قـدرته، ولو شاء لم يربطها، فـجعل الري بالشرب، والشـبع بالأكل، والاحتراق بالنار والحـياة بالتنفس في الهواء، فمن طلب من الله ـ تعالى ـ حـصول هذه الآثار بدون أسبابها فقـد أساء الأدب مـع الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ بل يلتمس فـضله في عوائده، وقد انقـسمت الخلائق في هذا المقام ثلاثة أقسـام قسمٌ عاملوا الله ـ تعالى ـ باعتماد قلوبهم على قدرته ـ تعالى ـ مع إهمال الأسباب والعوائد فلجَّـجوا في البحار في زمن الـهول وسلكوا القفار العظيـمة المهلكة بغير زاد إلى غير ذلك من هذه التـصرفات، فهؤلاء حصل لهم التوكل وفاتهم الأدب مع الله ـ تعالى ـ وهم جماعة من العباد أحوالهم مسطورة في الكتب في الرقـائق، وقسمٌ لاحظوا الأسبـاب، وأعرضوا عن التوكـل، وهم عامة الخلق وشـر الأقسـام، وربما وصلوا بملاحظة الأسباب والإعـراض عن المُسبب إلى الكفر، والقسم الثالث اعـتمدت قلوبهم على قدرة الله ـ تعالى ـ طلبـوا فضله في عوائده مُلاحظين في تلك الأسباب مُـسببها ومُـيسرها فجمـعوا بين التوكل والأدب وهؤلاء النبيون والصديقون، وخاصة عباد الله ـ تعالى ـ.

والعارفون بمعاملته جعلنا الله ـ تعالى ـ منهم بمنه وكرمه فهؤلاء هم خير الأقسام الثلاثة، والعجب ممن يهمل الأسباب ويُفرطُ في التوكل بحيث يجعله عدم الأسباب أو من شرطه عدم الأسباب إذا قيل: الإيمان سبب لدخول الجنة والكفر سبب لدخول النار بالجعل الشرعي كسائر الأسباب فهل هو تاركٌ هذين السببين أو معتبرهما فإن ترك اعتبارهما خسر الدنيا، وإن اعتبرهما فقال: لابد من الإيمان، وترك الكفر فيقال له: ما بال غيرهما من الأسباب إن كان هذان لا ينافيان التوكل فغيرهما كذلك نعم من الأسباب ما هو مُطّرد في مجرى عوائد الله ـ تعالى ـ كالإيمان والكفر والغذاء والتنفس وغير ذلك، ومنها ما هو أكثري غير مُطّرد لكن الله ـ تعالى ـ أجرى فيه عادة من حيث الجملة كالأدوية وأنواع الأسفار للأرباح ونحو ذلك والأدب في الجميع التماس فضل الله ـ تعالى ـ في عوائده) انتهى كلام الإمام القرافي.

أقول: قد بين العلماء أن بعض الناس قد يظنون، أن الأسباب الظاهرية هي التي تحقق الحياة الطيبة، وهذه الظنون مخالفة للحقيقة، فليس من سنن الله ـ تعالى ـ أن الأموال هي التي تحقق الحياة الطيبة دوما، بل أحيانا الأموال تفسد الحياة، وهذه هي أحوال الأسباب الظاهرية، أما الأسباب الغيبية القائمة على موعود الله ـ تعالى ـ، فإنها هي التي تحقق الحياة الصحيحة..

بدليل أن حياة فرعون وهامان فسدت في الملك والمال، وتحققت حياة يوسف عليه السلام في كرسي الوزارة، وخسفت الأرض بقارون، وأنزل الله عليه اللعنة، وصار خاسرا، وتفجرت الأرض بماء زمزم لإسماعيل عليه السلام، ونزلت رحمة الله عليه، وصار ناجيا من الهلاك..

كثير من الناس لا يرى تحقيق الحياة الطيبة بالأسباب الغيبية، لأن الأسباب الظاهرية سوف تتأثر في بعض الأحيان، باختيار الأسباب الغيبية، ولكن هذا يكون مؤقتا، فالذي يطيع الله ويؤمن به ويختار حياة الأعمال الغيبية المرتبطة بأمره تعالى، الله ـ عز وجل ـ يمتحنه في البداية ويختبره، وما تزال هذه الامتحانات تتوالى عليه حتى يترقى ويكون أهلا لنصرة الله عز وجل..

وفي ذلك الأمر كانت حياة الأنبياء مثالا لنا جميعا، نحن مكلفون باختيار الأسباب الظاهرية، ولكن بطريقها الصحيح، حتى لا تخالف أمر الله ـ تعالى ـ، الله ـ عز وجل ـ كلف نوحا عليه السلام بالأسباب الظاهرية وأمره أن يبني السفينة ﴿واصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحْيِنَا﴾[1]، وعلم داود ـ عليه السلام ـ صنع السابغات والدروع وهي من الأسباب الظاهرية، فاختيار الأسباب الظاهرية مع موافقة الأمر ليس مخالفا للقرآن، وإذا وافق ذلك الترتيب الصحيح، مع اليقين الثابت وفقا لحكم الله ـ عز وجل ـ يكون النجاح في حصول المقصود، وتكون النتيجة طيبة والفيصلة موافقة في السماء، وأما إذا لم توافق الطريقة حكم الله ـ عز وجل ـ، فسوف تظهر النتيجة سيئة وتكون الفيصلة في السماء مخالفة..

فنتيجة الأعمال وثمرتها هي بإرادة الله ـ تعالى ـ، وإذا لم يرد الله ـ عز وجل ـ لم تتحقق نتيجة العمل، إخوة يوسف عليه السلام خططوا لتأتي محبتهم في قلب أبيهم، والخطة لمحبة الأب أمر لا بأس به، ولكن خطتهم كانت مخالفة للشريعة في وسائلها، وجاءت النتيجة والفيصلة من السماء مخالفة للترتيب الذي سعوا إليه..

---

(١) سورة هود الآية: ٣٧.

وكل الأعمال تتحقق بارادة الله ـ عـز وجل ـ مهما رتب الإنسان.
والله ـ تعالى ـ يفعل ما يريد، والإنسان مكلف بالـسعي إذا كان موافقـ للشريعـة، وتكون نتيجـة العمل على الله ـ عز وجل ـ وهو يفـعل م يشاء، وإذا كانت الأسباب الظاهرية مع أهل الدين، فسوف تكون بركة ورحمة عليهم، كما كانت مع سليمان ـ عليه السلام ـ، أما إذا كانت الأسـباب الظاهرية مع غـير أهل الديـن، فسـوف تكون مهلة عليـهم واستدراجا، كما كانت مع فرعون وهامان..

وهذه قصة يوسف ـ عليه السلام ـ، سعى فيها عزيز مصر ليدخل يوسف ـ عليـه السلام ـ في السـجن ليحفـظ عزته وملكه، وتحـققت الخطة، ولكن الخطة كانت مخـالفة للشريعة، وصارت فيـصلة السماء مخالفة، وظهرت النتيجة سيئة، وهي إن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ كانوا في فلسطين، وعزيز مصر كان في مصر، وصارت فيصلة السماء مخالفة لهما، وأصابهمـا القحط سبع سنين في مصر وفلسطين، فصار هذا سببا لرفع رأس يوسف ـ عليه السلام ـ.

تغيير المنكر لابد فيه
من تغيير البيئة
وحكمة عمل أهل الدعوة
في ذلك

البيئة من أقوى أسباب الهداية، وللبيئة أثر بالغ في تغيير النفوس. فهي كالموسم لا يترك أحدا، بل يؤثر على جميع الناس، فموسم الشتاء بما فيه من البرودة، يتأثر بها الغني والفقير، والمرأة والرجل. والكبير والصغير، وموسم الصيف بما فيه من حرارة، يتأثر بها الكبير والصغير، والغني والفقير، والرجل والمرأة، ومن أراد سبيل الاصلاح فالبيئة شيخ كبير ومرشد خبير..

وقد كان للبيئة أثر كبير في تغير الصحابة ﷺ بمجالسة النبي ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، أو عند هجرتهم إليه في المدينة المنورة، فتغيرت مقاصدهم من الدنيا إلى الآخرة، وتغير طلبهم من المخلوق إلى الخالق، وعرفوا من خلال كلام الإيمان في هذه البيئة، مقصد وجودهم في هذه الحياة الدنيا، فقالوا معبرين عن ذلك «**إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**» فعرفوا خيريتهم، وقاموا لمسئوليتهم ووظيفتهم، في خلافة النبوة، ونشر الرسالة، وتحقيق العبودية لله ـ تعالى ـ في أنفسهم وفي الناس كافة، وكانت حياتهم بيئة هداية وإيمان، الناظر إليهم فيها يتنور معهم، ويهتدي بهم، ويتحول من الظلمة إلى النور، ومن الشرك إلى الإيمان، والقصص في ذلك كثيرة متعددة، منها إسلام هند بنت عتبة ﷺ تأثرا بالبيئة التي رأتها في الصحابة عند البيت الحرام، حينما فُتحت مكة المكرمة زادها الله ـ تعالى ـ تشريفا وتعظيما..

والناس في هذه الأيام أصبحوا كأخوة يوسف، فأخوة يوسف أرادوا محبة والدهم بمعصية الله - تعالى -: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[1].

كذلك الناس أرادوا محبة الله - تعالى - وهم يكسرون أمره عز وجل ويتقلبون في معصيته: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

يوسف - عليه السلام - في كل المصائب التي وقعت عليه ما ترك أمر الله - تعالى -، وإنما لزم طاعته، واجتنب معصيته، ولاذ بحماه ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

ولانه - عليه السلام - عظم أمر الله - تعالى - في كل حال، صيره الله - تعالى - إلى العزة مآلا وتقلد الملك استقلالا ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[4] أما أخوته فلأنهم عصوا أمر الله - تعالى - صيرهم إلى الذلة مآلا ﴿يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾[5].

---

(١) سورة يوسف الآية: ٩.

(٢) سورة الكهف الآية: ١٠٣، ١٠٤.

(٣) سورة يوسف الآية: ٣٣.

(٤) سورة يوسف الآية: ١٠١.

(٥) سورة يوسف الآية: ٨٨.

وذاقوا الهوان ألوانا، لذلك الذي يريد العزة من الله - تعالى - لابد له من التـزام التقـوى، وإن جاءت الأحـوال المخالفـة أو أصابتـه هذه الأحوال بالضر فعليه بالصبر ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وعليه ببناء بيئة الإيمان التي تحـفظه من المنكرات، ويُعظم فيها رب البريات - سبحانه وتعالى - في مختلف الأحوال ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[2] .. ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[3].

قصة يوسف - عليه السلام - الآن في كل وقت تتكرر، اليوم في كل مكان يذهب الإنسان إليـه يرى البيئة المخالفـة لأمر الله - تعالى -، والتي تقول له «هيت لك» فيـهرب ويقول «معاذ الله»، ويفـر إلى بيئة الإيمان التي تحفظ عليه دينه وتقواه، فينجيه ربه بحسن نيته وقصده، إذا علم - سبحـانه - منه صدق إيمانه وسمع نداءه ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[4]، في كل وقت يجد الإنسان البيئة المخالفة لأمر الله - تعالى - والتي قد تدعوه إلى معصيـته، وتفتح له ذراعيها وتقول «هيت

(١) سورة يوسف الآية: ٩٠.

(٢) سورة يوسف الآية: ٣٧، ٣٨.

(٣) سورة يوسف الآية: ٣٩، ٤٠.

(٤) سورة يوسف الآية: ٣٣، ٣٤.

لك» فيهرب منها ويفر عنها، مسابقة لباب النجاة، وهي تتمسك به وتتعلق بأثوابه، حتى تمزقها عن ظهره، وهو يهرب منها هاتفا ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾[1]، وهكذا مع كل أنواع المعاصي في بيئات المخالفات، كالزنى والخمر وغير ذلك، هي تنادي على كل فرد بحسبه، وتدعوه وحده، فإن كان صادق النية، صحيح القصد راغبا للإيمان، يفر منها ويهتف بها هتاف يوسف الصديق «معاذ الله» ويهرب مسرعا إلى بيئة الإيمان، التي تحفظه وترعاه، ويكون فيها صلاحه وتقواه..

أما لو كان مزعزع النية، فاسد القصد، وليس عنده الرغبة للإيمان، فحينئذ يبسط ذراعه لها، إذا ما دعته بقولها «هيت لك» ويلقى بنفسه بين براثنها، ويغرق في أمواجها، ويرشف سمومها، أما صاحب الإيمان فتحفظه بيئة الإيمان، وتنجيه بيئة التقوى، هذه البيئة التي بها كلام الإيمان، ومنهج الإيمان، وصحبة الإيمان، والتي تحفظ الفار لها، من براثن المخالفات، ويرى الإنسان فيها حلاوة الطاعات والقربات..

فالإنسان بسبب كثرة جلوسه في بيئة المعصية، كذلك المعاصي وبيئتها جلست في قلب الإنسان، مثاله مثل صاحب السباحة، فالسباحة في الماء ليست مشكلة، ولكن كثرة السباحة سببت تعبا لهذا الرجل وسط الماء، والآن بدأ الماء يتسرب لهذا الإنسان، وهنا جاء الخطر، فقد كان هو أولا فوق الماء، فلم يكن هنالك مشكلة، أما الآن فالماء داخل بطنه، وهذا خطر عظيم...

---

(١) سورة يوسف الآية: ٢٣.

الآن المسلمون في بيئة المعصية، ومع هذا هم يفكرون في الصلاة والقرآن والبر والصدقة، وهذا خطر، ولكنه ليس بالخطر الذي يخشى منه، أما لو كان المسلمون في الصلاة والقرآن والطاعة، وهم مع ذلك يفكرون في المعصية، فهذه هي المشكلة، وهذا هو الخطر الحقيقي المخوف..

فالذي يريد أن يساعد هذا الإنسان الذي كان يسبح ودخل الماء في بطنه، لن يستطيع فعل ذلك، وإخراج الماء من بطنه وهو في بيئة الماء، التي كانت سببا في مصائبه، بل لابد من إخراجه من هذه البيئة، ثم ننقله إلى المستشفى، وهناك يكون الأطباء والوسائل المتطورة، والاستطاعة على خروج الماء من بطن هذا الرجل بسهولة..

كذلك مع عموم المسلمين، أهل الدعوة يجتهدون على خروجهم من بيئة المعصية، قبل أن تتسرب هذه المعاصي إلى داخل قلوبهم، فتسبب لهم الهلاك والمصائب الكثيرة..

يجتهدون بالليل والنهار حتى ينقذوهم من هذه البيئة، المملوءة بالمخالفات، والتي كانت سببا في فساد يقينهم، وبعد ذلك مع عمل الدعوة يخرجون في سبيل الله، فكما أن الطبيب عنده الوسائل، للمعالجة وأسباب الشفاء بإذن الله، كذلك في عمل الدعوة هناك الوسائل للاستقامة وبناء الإيمان، من الدعوة إلى عبودية الله وحده، والتعليم والتعلم، والعبادات والذكر، وقضاء الحوائج والخدمة، حتى يخرج أثر بيئة المعصية من قلوب المسلمين، فتتنور وتضيء بالتوبة، ويأتي فيها الامتثال والتطبيق..

وهذا الأثر الذي نراه في بيئة الدعوة وعمل التبليغ، ونجده في المدعو وعموم الأمة، ليس من كمال أهل الدعوة، بل هو من كمال الله - تعالى -: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1]، وهو من توفيق الله أن جعل لهم هذا القبول، فبالدعوة يكون الإيمان، وبالإيمان تكون الأعمال، وعندما تكون بيئة الدعوة والإيمان موجودة، المسلم لا يعمل المعصية، وحتى لو عملها اعترف بها ليتطهر، وقصة ماعز رضي الله عنه في ذلك معلومة معروفة..

إذا فتغيير المنكر لابد فيه من تغيير البيئة، لمن يأتي المنكرات، وإلا لتأثر ببيئة المخالفة، مثل الجوهرة الملقاة في الطين والخبث، كلما ألقيت فوقها الماء لتنظفها مما أصابها، زادت توحلا، لأنها في بيئة التوحل والخبث، فلابد من انتشالها أولا من هذه البيئة، وتحولها إلى بيئة الطهارة والنظافة، ويكفي في كل هذا أن نخرجها من هذا الطين والخبث، ونمسحها بقماش نظيف، ثم نغسلها بالماء، حينئذ تتنظف وتضيء..

لذلك قالوا المسلم في مكان المعصية مثل الجوهرة، التي تلطخت بالطين والأوساخ، مهما ذهبت لطرح الماء عليها، وتنظيفها وهي في هذه البيئة، يزداد اتساخها وتوحلها، وتتسع رقعة الأوساخ فيها، مع طرح الماء في هذه البيئة عليها، ولكن إذا أخرجتها ومسحتها، ونقلتها إلى مكان آخر، وطرحت عليها القليل من الماء، خارج هذه البيئة، فإنها تضيء وتلمع وتتنور وتتنظف..

وهذا هو الحال في تغيير المنكر، لمن يأتيه، بنقله خارج بيئته التي تأثر فيها بالمعصية، إلى بيئة الإيمان والطاعة، التي تكون سببًا في إعانته على الامتثال والتطبيق، وترك المنكرات..

---

(١) سورة الأنفال الآية: ١٧.

أما لو لم تكن بيئة الإيمان حاضرة، ومجالس التقوى غائبة، فإن الإنسان يتأثر بكثرة مشاهدة الفساد في بيئة المخالفة، حتى يصير هذ الفساد هينا على النفوس، فلا تنفر منه نفرتها السابقة، وتذعن الطبائع للميل إليه أو لما هو دونه..

وهو ما ذكره الإمام الغزالي في الإحياء ج٢ ص٢٣٠ حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له وإنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوارعة ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة[1] والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة

---

(١) ومن ذلك قراءة أهل الدعوة لحياة الصحابة ﷺ كل يوم في نهايته، حتى يكون ذلك داعيا إلى بذل الجهد للدين، والاقتداء بهم في تضحياتهم، ورؤية التقصير في الأعمال بالنسبة لما قاموا به.

في الاستكمال واستتماما للاقتداء ومن نظر إلى الأحوال الغالبة في أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته» انتهى.

ثم قال الإمام الغزالي أيضًا في هذا المبحث من الإحياء: ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين فهذا معنى نزول الرحمة والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي واللعنة هي البعد ومبدأ البعد من الله هو المعاصي والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة لا على الوجه المشروع ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم بل قد صرح بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه»[1] فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به وقال «مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه»[2] ولهذا قول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين: إحداهما أنها غيبة والثانية وهي أعظمها

---

(١) رواه الإمام البخاري بنحوه «باب في العطار وبيع المسك» ح (١٩٩٥)، ورواه الإمام مسلم «باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء» ح (٢٦٢٨).

(٢) سبق تخريجه.

أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام فكم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبحها ويزعم أن الصحابة ﷺ لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولوازمها من المعاصي والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكايد الشيطان ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1] وضرب ﷺ لذلك مثلا وقال: «مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعيا فقال له يا راعي اجرر لي شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة فيها فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم»[2] .

---

(١) سورة الزمر الآية: ١٨.

(٢) رواه الإمام ابن ماجه «باب الحكمة» ح (٤١٧٢)، وقال الحافظ العراقي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضًا ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره وقد يشاهدون من يُخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم مع أن صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب ولذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفس واشتد إنكارها وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها فتفطن لهذه الدقائق وفر من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة فإن وجدت جليسا يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد عنه بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلطة بأن أحدهما أولى إذ كل مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف القول محض ولا حق في المفصل إلا التفصيل» انتهى كلام الإمام الغزالي.

أقــــول: إذا فللبيـئة أكثر الأثر في الالتزام بالطـاعات، واجتناب المنكرات، وإذا لم تتغيـر البيئة إلى الصلاح، وتتكون بيئـات التقوى. فإن بيئـة المعصية المخـالفة سوف تؤثر في صـاحبها، الذي ألف فـيه المخالفة واعتادها، فيستكبر ويأبى عند دعائه في هذه البيئة المخالفة، . .

وهذا حال صاحب الجنة مع صاحبه، والتي قصَّها الله تعالى علينا في سورة الكهف، حيث قال لصاحبه وهو يحاوره بعد أن استكبر عن مجالسته في بيئة الإيمان، التي كان يدعوه إليها، وجحد بعقيدة المؤمنين في الخلق والتـدبيـر والبـعث والنشـور، وتعـزز بكثـرة المال والبنين، والجنتين المثمرتين المحفوفتين بالنخيل، المنبسق فيهما الزروع على أكمل ما يكون من التمام والروعة، فاغتر بالثمار والأشجار والأنهار المطردة، المحيطة بها والجارية في أنحائهـا، وظن أنها لا تبيد ولا تفنى، لضعف يقينه وكفره بالله تعالى، وبالدار الآخرة فقـال متعززا مفتخرا: ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾**﴾[1].

فأجابه صاحب الإيمان بدعوة الإيمان، فأمره بأعرف المعروف، وهو الإيمان بالله ـ تعـالى ـ وتوحـيده وحـده، ونهـاه عن أنكر المنكر وهو الشـرك بالله ـ تعالى ـ، وكـفران نعـمه، ورد آلائه وجـحده فقـال له صـاحب الإيمان ﴿**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾**﴾[2].

---

(١) سورة الكهف الآية: ٣٤, ٣٦.   (٢) سورة الكهف الآية: ٣٧، ٤١.

فاستكبر هذا الرجل صاحب الجنتين، واستعظم أن يلبى دعوة الداعي له إلى الله وهو صاحبه، عندما كانت تلك الدعوة داخل بيئته، فتعظمت البيئة وشوشت على كلام الإيمان ودعوة الهداية، وأثرت فيه بيئته التي صدته عن الله تعالى في قبول الإيمان والإذعان له، وأحاط به غرور البيئة وقيود المعصية والمخالفة، فلم تنطلق له قدم، ولم ينبعث من قلبه إلى الله تعالى عزم، لأن كلام الإيمان لم يواكبه ويصاحبه تغيير بيئة المخالفة، ومكان المعصية، وكان أن نزل به العذاب ﴿ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾** ﴾[1].

أقول: في بيئة الدنيا صعب علينا التوجه إلى الله تعالى، فنحن لابد لنا أن نكون في بيئة الإيمان، حتى يأتي في قلوبنا الخوف من الله تعالى، الصحابة ﷺ كانوا دائمًا خائفين ونحن مطمئنين، والمؤمن لا يكون مطمئنا عند ارتكاب المعاصي..

في قصة ماعز ﷺ عندما ارتكب جريمة الزنا، كيف حزن وجاء ليقر أمام النبي ﷺ حتى رجم، وانظر إلى هذا الصحابي الذي أتى أمام النبي ﷺ وهو يقول «**واذنوباه واذنوباه**، فقال هذا القول مرتين أو ثلاثا فقال النبي ﷺ قل: «**اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي فقالها ثم قال عد فعاد ثم قال عد فعاد فقال قم فقد غفر الله لك**»[2] هذا من خوفهم ﷺ وصفاء قلوبهم وتزكيتهم في بيئة الإيمان، ونحن لا نبالي..

---

(١) سورة الكهف الآية: ٤٢، ٤٤.

(٢) أخرجه الإمام البيهقي في الشعب ٥/ ٤٢٠، وقال الإمام الحاكم ١/ ٧٢٨ رواته عن آخرهم مدنيون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح ولم يخرجاه.

لذلك نقول بسبب بيئة الدعوة والإيمان تأتي الهداية والاستقامة في حياتنا، وتتحول البيئة الفاسدة إلى صالحة، فالذي يدعو الناس إلى الإيمان والهداية، يلهمه الله تعالى طرق الهداية وسبلها ويكون في الهداية ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ وبيئة الهداية التي يفزع لها الحائرون التائهون يجعلها الله تعالى سببا في زيادة الإيمان والهدى..

وهي قصة أصحاب الكهف الذين فروا من بيئة المخالفة، وعبادة ما دون الله - تعالى - والسجود للأصنام، فانخلعوا من بيئة الأوثان وتعظيمها، وانسحبوا بفطرتهم النقية الطاهرة منها، وأبوا أن يعبدوا غير الله - تعالى - أو يدعوا سواه، فتسللوا من بيئة المعصية ودعاء غير الله تعالى وتعظيم الأصنام، وتوجهوا بقلوبهم إلى الله - تعالى - وحده، الذي شرح صدورهم للإيمان، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[1].

فربط الله - تعالى - على قلوبهم، وآواهم إلى كهف الإيمان وبيئة الإيمان، وزادهم بخروجهم من بيئة المخالفة والمعصية، إلى بيئة الإيمان والتقوى، إيمانا على إيمانهم، وهدى على هداهم ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[2] وجعلهم الله - تعالى آية تتلى، وقرآنا يرتل إلى قيام الساعة، لأهل الإيمان أن يحرصوا على بيئة الهدى، وأماكن التقوى، وأن يسارعوا بمفارقة بيئة المعصيات، وأصحاب المخالفات **«والمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**[3].

---

(١) سورة الكهف الآية: ١٤.

(٢) سورة الكهف الآية: ١٣.

(٣) رواه الإمام الترمذي كتاب الزهد «باب ما جاء في أخذ المال بحقه» ح٢٣٠٠، وقال الترمذي حديث حسن غريب، ورواه الإمام أبو داود كتاب الأدب باب «من يؤمر أن يجالس» ح٤١٩٣، ورواه الإمام أحمد في المسند ح٧٦٨٥.

وها هي قصتهم كاملة كما أوردها الحافظ ابن كثير ج٣ ص٧٤ فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: وقوله ﴿**إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ يقول ـ تعالى ـ وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون في ظاهر البلد وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع أبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية فكان أول من جلس منهم أحدهم جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقا من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[1] وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ والناس يقولون الجنسية علة الضم: والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفا منهم ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: **تعلمون والله يا قوم إنه ما**

---

(١) رواه الإمام البخاري ح (٣١٥٨) «باب الأرواح جنود مجندة»، ورواه الإمام مسلم «باب الأرواح جنود مجندة» ح (٢٦٣٨).

أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئًا هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك حتى تواقعوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يدًا واحدة وإخوان صدق فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله - عز وجل - ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ ولن لنفي التأبيد أي لا يقع منا هذا أبدًا لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا ولهذا قال عنهم ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي باطلا وكذبا وبهتانا ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾[1] أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا واضحا صحيحا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون بل هم ظالون كاذبون في قولهم ذلك فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم وأجّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفا على دينه كما جاء في الحديث «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[2].

---

(١) سورة الكهف الآية: ١٥.

(٢) رواه الإمام البخاري كتاب بدء الخلق «باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال».

قلت: فانظر إلى الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - وهو يقول في النص السابق عنه: «فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية فكان أول من جلس منهم أحدهم جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم صاحبه وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقا من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة ﵂ قالت قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1] وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ والناس يقولون الجنسية علة الضم» انتهى كلام الإمام ابن كثير..

وكأني أرى أهل الدعوة، الذين يجمعون عموم المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، ومن كل أقطارها وبلدانها، من البيئات المختلفة في كل مكان، كل منهم على حده، ولا يعرف بعضهم بعضا، عربا أو عجما، من آسيا أو أفريقيا، ولكنهم اجتمعوا على التقوى وعلى دعوة الإيمان، تجانسوا فيها وانضم بعضهم إلى بعض بها..

تعارفت على الإيمان أرواحهم فتآلفوا، ولم ير بعضهم بعضا قبل ذلك، ولكن بعد وقت قصير وكأنهم العمر متلازمين، أو كأنهم الدهر مجتمعين متواصلين، المحبة شأنهم، والإقبال على بناء الإيمان، في بيئة الإيمان ديدنهم..

حملوا معهم العصاة من أمة النبي ﷺ من بيئة المخالفات إلى بيئة الطاعات والقربات، فتنوروا بها، وانصلحوا معها، وزاد الله تعالى المصاحبين لهم هدى، فتركوا المعاصي والمنكرات وأقبلوا على

---

(١) سبق تخريجه.

الطاعات، وربط الله على قلوبهم لسعيهم إلى الإيمان، وتحصيل التقوى، وهي سنة الله - تعالى - في كل من أقبل على بيئة الهداية، وسعى نحو نور الإيمان.

قلت: وقد مر هؤلاء الفتية أصحاب الكهف، في طريق هربهم ليلاً براعٍ معه كلب، فدعوه إلى الإيمان، والفرار إلى بيئة التقوى والإحسان، فاتبعهم على دينهم، ونفع الله تعالى هذا الراعي بدعوة الإيمان، وبصحبة هؤلاء الفتية المؤمنين حتى صار منهم، وناله ما نالهم من رحمة الله - تعالى - لهم، وصار آية من الآيات معهم، حتى كلبه أصابه الخير العميم من محبة أهل الخير والإيمان وصحبتهم..

وهو ما أورده الإمام القرطبي في تفسيره ج٦ ص٣٩٨٨ فقال - رحمه الله تعالى -: «الرابعة قال ابن عطية: وحدثني أبي ﷺ قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله..

قلت [أي الإمام القرطبي]: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين! بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل. روي الصحيح عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سُدّة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها» قال: فكأن الرجل

استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله قال: «فأنت مع من أحببت» في رواية قال أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم»[1].

قلت [أي الإمام القرطبي]: وهذا الذي تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحب قوما فذكره الله معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2] انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: وقد أمر الله تعالى حبيبه وخليله وصفيه محمدا ﷺ بأن يُصبِّر نفسه في بيئات الإيمان، مع الذين يجلسون يذكرون الله تعالى ويعظمونه ويكبرونه، وأن لا يجاوز هذه المجالس وأصحابها إلى غيرها، لما في هذه البيئات الإيمانية غدوة وعشية، من أثر في إيمان الأمة، بها ينتشر المعروف ويرتفع المنكر، وتُعظم الأوامر.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره ج٣ ص٨٠: (يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل. وقوله

---

(١) رواه الإمام البخاري «باب مناقب عمر بن الخطاب» ح (٣٤٨٥)، ورواه الإمام مسلم «باب المرء مع من أحب» ح (٢٦٣٩).

(٢) سورة الإسراء الآية: ٧٠.

﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾[1] عن مجاهد ملتحدا قال ملجأ وعن قتادة وليا ولا مولى قال ابن جرير يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[2] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾.[3] أي سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة. وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[4] أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء، يقال إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده لا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود وليفرد أولئك بمجلس على حده فنهاه الله عن ذلك فقال ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾[5] الآية وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ الآية. وقال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن عبدالله الأسدي عن إسرائيل عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ

---

(١) سورة الكهف آية: ٢٦.
(٢) سورة المائدة آية: ٦٧.
(٣) سورة القصص آية: ٨٥.
(٤) سورة الكهف آية: ٢٧.
(٥) سورة الأنعام آية: ٥٢.

الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[1] انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري. وقال أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي النياح قال سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص فأمسك فقال رسول الله ﷺ، قص فلان لأن أقعد عنده إلى أن تشرق الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب[2] وقال أحمد أيضًا حدثنا هاشم ثنا شعبة عن عبدالملك بن ميسرة قال سمعت كردوس بن قيس وكان قاص العامة بالكوفة يقول أخبرني رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب[3]. قال شعبة فقلت أي مجلس قال كان قاصا وقال أبو داود والطيالسي في مسنده حدثنا محمد حدثنا يزيد بن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ، لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلي من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم أثنا عشر ألفا، فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفا وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل والله ما قال إلا ثمانية دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفا[4]] انتهى كلام الإمام ابن كثير.

---

(١) رواه الإمام مسلم «باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه» ح (٢٤١٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٦١، ورواه الإمام الطبراني في الكبير ح (٨٠١٣).

(٣) رواه أحمد في المسند ٣/ ٤٧٤، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٨٨، ورواه الدارمي «باب في الرخصة في القصص» ح (٢٧٨٠)، وأورده الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٩٠، وقال رواه أحمد وفيه كردوس بن قيس وثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٧٩، ورواه في شعب الإيمان ١/ ٤١٠.

ولذلك كان عمل أهل الدعوة يرتكز على نشر بيئات الطاعة والإيمان، على مدار الليل والنهار في عموم الأمة، والانتقال بالمخالفين، من بيئة المعصية والمخالفة، إلى بيئة الإيمان والتقوى، مع كلام الله ـ تعالى ـ وأحاديث رسوله ﷺ وصحبة الإيمان، فعند ذلك في هذه البيئات المعقمة بالطاعة، والمحفوفة بالهدى، مع أقل الكلمات، وأضعف العبارات، يتلألأ الإيمان في قلوب المخالفين، ويقبل على الهدى التائهون والحائرون والشاردون، ولا يكون منهم الدفع والرد، بل الإذعان والقبول لأثر بيئة الإيمان وكلام الإيمان فيهم.

وقد كان من دعوات سيدنا داود ـ عليه السلام ـ: **«يارب إن رأيتني أخرج من مجلس الذاكرين إلى مجلس الغافلين فاكسر رجلي»**.

وأورد الإمام ابن حبان في صحيحه «باب ذكر ما يكرم الله ـ جل وعلا ـ به في القيامة من ذكره في دار الدنيا».

عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ـ جل وعلا ـ: سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم، فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال أهل مجالس الذكر في المساجد»[1].

فاتبع أهل الدعوة المنهج الصحيح في التغيير، من انتقال العاصي عن مكان معصيته، والاجتهاد عليه بالإيمان خارج بيئته التي اعتاد فيها المخالفة، حتى يثمر هذا الجهد إيمانا في قلبه، يقلع به عن المخالفات والمعصيات..

وهو ما شرعه الله ـ تعالى ـ في الزانى غير المحصن، حيث جعل الشرع عقوبته جلد مائة وتغريب عام، حتى يفارق بيئة المعصية التي دأب على المخالفة فيها، وينتقل إلى بيئة أخرى تساعده على طاعة وعبادة ربه، وأن يبرأ من ذنبه..

---

(١) ورواه أحمد في المسند ٣/ ٦٨، وأورده الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٧٦، وقال رواه أحمد بإسنادين وأحدهما حسن وأبو يعلى كذلك.

وهذا الحافظ ابن حجر في شرح حديث قاتل التسعة والتسعين نفسا يقرر كل ذلك من تأثير بيئة الإيمان على صاحب المعصية والغفلة، وأن لها أبلغ الأثر في مساعدة التائب على توبته، والإقلاع عن معصيته، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ في فتح الباري ج٦ ص٥٩٧: وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك إما لتذكرة لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضه عليه، ولهذا قال له الأخير: ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها والاشتغال بغيرها، وفيه فضل العالم على العابد لأن الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير، وأما الثاني فغلب عليه العلم فأفتاه بالصواب ودله على طريق النجاة، قال عياض: وفيه أن التوبة تنفع وفي الاحتجاج به خلاف لكن ليس هذا من موضع الخلاف لأن موضع الخلاف إذا لم يرد في شرعنا تقريره وموافقته أما إذا ورد فهو شرع لنا بلا خلاف ومن الوارد في ذلك قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وحديث عبادة بن الصامت ففيه بعد قوله ولا تقتلوا النفس وغير ذلك من المنبهات «فمن أصاب من ذلك شيئًا فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه» متفق عليه. قلت: ويؤخذ ذلك أيضًا من جهة تخفيف الإصار عن هذه الأمة بالنسبة إلى من قبلهم من الأمم، فإذا شرع لهم قبول توبة القاتل فمشروعيتها لنا بطريق الأولى» انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

أقـــول: الله أخرج هذه الأمـة لنفع الناس، حتى الفـرار لا يستطيع الإنسان الفرار مع وجود بيئة الدعوة، فليس هنالك سبيل إلا الدخول فيها.

عكرمـة رضي الله عنه عندما أراد أن يفـر من الإسـلام، ما اسـتطاع ذلك لوجـود بيئـة الدعوة، وعندمـا ركب في السـفينة كـان الداعي له هو ملاحـها، حيث قال له «أخلص» أي اترك الشـرك بالله، قال أي شيء أقول قال: قل «لا إله إلا الله».

قال عـكرمة: ما هـربت إلا من هذا، ولكنه لم يستطع الـهروب كثيـرا، لوجود بيئة الدعوة والإيمان، التـي أحاطته برعايتهـا، وشملته بحفظها، فأسلم وحسن إسلامـه رضي الله عنه ومات شهيدا، على الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم له..

مما أورده الحـافظ ابن حجـر في الإصـابة قال: وروينا في فـوائد يعـقوب بن الجـصاص من حـديث أم سلمة قـالت: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «**رأيت لأبي جهل عذقا في الجنة**» فلما أسلم عكرمة قال: «**يا أم سلمة هذا هو**» ولم يعقب كذا في الإصابة ج٢ ص٤٩١..

وإليك مختصـر قصته وأثر بيئة الإيمان في إسلامه، حـتى مع رغبته في الفرار منه، كما وردت في كتب السيرة في سبب إسلامه:

«فركب البحر فجـعل نوتي السفينة يقول له: أخلص قال أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله.

قال عكرمـة ما هربت إلا من هذا. فجـاءت أم حكيم على هذا من الأمـر فـجعـلت تليح إليـه وتقـول: يابن عم! جـئـتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخـير الناس، لا تهـلك نفسك. فـوقف لها حـتى أدركـته، فـقالـت: إني قد اسـتأمـنت لك رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: أنت فعلت؟ قالت: نعم! أنا كلمته فآمنك. فرجع معها»، وروي الدارقطني

والحاكم وابن مردويه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ـ فذكر الحديث وفيه: «وأما عكرمة فركب البحر فأصابهم عاصف فقال أصحاب السفينة: أخلص فإن آلهتكم لا تغني عنكم ههنا شيئا، فقال عكرمة: والله! لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص، ولا ينجني في البر غيره، اللهم إن لك على عهدا إن عافيتني مما أنا فيه أن آتى محمدا، حتى أضع يدي في يده فلا أجدنه إلا عفوا كريما. قال فجاء فأسلم» انتهى.

أقول: الإسلام الآن صار صعبا على المسلمين، مع أن الدين يسر ولكن ذلك لفساد المزاج الإيماني، مثل المعدة عند مرضها، كل شيء يصل إليها يزيد ألمها، لأن الفساد في المعدة وليس في المأكول..

لذلك مع أعمال الدعوة، وبيئة الدعوة، يأتي الصلاح في المزاج الإيماني، وهذا الصلاح يتدرج شيئًا فشيئًا.

فالنفس لا تقبل الصلاح مباشرة، فمثلا التواضع لا يأتي إلا بعد فترة، أما الكبر فيأتي فورا، وهذه مصيبة كبيرة، لأن الكبر إذا دخل في القلب يكون الحجاب من الله ـ تعالى ـ، والحجاب من الناس فلا يقبل من أحد شيئا ﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾[1].

فالإصرار على ما هو فيه من البعد والمخالفة حجاب، والاستكبار عن الامتثال والطاعة حجاب آخر، فمع وجود الإصرار لا يقبل إلا عمله، وبالاستكبار يحسب نفسه من خلاله أنه كبير، وليس عنده شيء «أبى واستكبر».

نسأل الله ـ تعالى ـ التوفيق والسداد، وحسن الرشاد بمنه وفضله تعالى.. آمين.

---

(١) سورة نوح الآية: ٧.

تقرير الإمام الغزالي لمقاصد عمل أهل الدعوة ووصفها بالتفصيل

أقـول: وقد قام الإمام الغزالي في الإحياء بتـأكيد وتقرير مقاصد عـمل أهل الدعـوة، حـيث قـال ـ رحـمـه الله تعـالى ـ تحت عنوان «المنكرات العامة»: اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان عـن منكر من حيث التـقاعد عن إرشـاد الناس وتعليـمهم وحـملهم على المعـروف فـأكثـر الناس جـاهلون بالشـرع في شـروط الصلاة في البلاد فكيف في القـرى والبوادي ومنهم الأعراب والأكراد والتـركمـانية وسـائر أصناف الخلق.وواجب أن يكون في كل مـسجـد ومـحلة من البلد فقيه يُعلـم الناس دينهم وكذا في كل قـرية وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عـينه وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم فيعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ويستـصحب مع نفسه زادًا يأكله ولا يأكل من أطعمتـهم فإن أكثرها مغـصوب فإن قام بهذا الأمر واحـد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عم الحـرج الكافة أجمعين، أمـا العالم فلتقصـيره في الخروج وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم وكل عامي عرف شروط الصـلاة فعليـه أن يعرف غـيـره وإلا فهـو شريك في الإثم ومـعلوم أن الإنسـان لا يولد عالما بالشـرع وإنما يجب التبـليغ على أهل العلم فكل من تعلم مسـألة واحدة فـهو مـن أهل العلم بها ولـعمـري الإثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيـه أظهر وهو بصناعتهم أليق، لأن المحترفين لو تركـوا حرفتـهم لبطلت المعـايش فهم قـد تقلدوا أمـرًا لابد منه في صـلاح الخلق وشـأن الفـقـيه وحـرفـتـه تبليغ مـا بلغـه عن رسـول الله ﷺ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء وليس للإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة بل إذا علم ذلك وجب عليه الخـروج للتعليم والنهي وكذا كل من يتيـقن أن في السوق منكرًا يجري عـلى الدوام أو في وقت بعينه وهو قادر عـلى تغيـيـره فلا

يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت بل يلزمه الخروج فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ثم يعلم ذلك أهل بيته ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم إلى أهل محلته ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم وهكذا إلى أقصى العالم فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا خرج به على كل قادر عليه قريبًا كان أو بعيداً ولا يسقط الحرج مادام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه» انتهى كلام الإمام الغزالي.

نقول: الله ـ عز وجل ـ أعطي هذه الأمة مسئولية الهداية، ولقد أرشدت النقول من كلام الله ـ تعالى ـ وسنة الرسول ﷺ إلى وظيفة هذه الأمة عن الدين، فمنذ سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ إلى عصر سيدنا محمد ﷺ نرى الدعوة كلها لإصلاح الإنسانية، وإلى هدايتها، ولم يأتي زمان يخلو من الأنبياء، وذلك لنشر الروحانية ولهداية الإنسانية، قال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1] فالرجل العاقل

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٤٤.

يتفكر هذا هو النظام الذي جاء إلى الرسول ﷺ، ولكن بعد وفاته من يقوم به؟، وكيف تنصلح هذه الأمة إلى يوم القيامة، يعني ما هو النظام الذي يصلح الإنسانية بعد وفاة الرسول ﷺ . .

الله ـ عز وجل ـ أجابنا على هذا السؤال وذلك عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾[1] فالله تعالى كان يرسل في كل فترة نبيا لهداية الناس، ولما جعل الله هذه الأمة آخر الأمم، أمرها بوظيفة اصلاح الإنسانية، بدلا من الأنبياء الذين كان يرسلهم إلى الأقوام الآخرين، وذلك إلى قيام الساعة تشريفا لهذه الأمة، حتى تقوم على مقصد وجودها، وشرف وظيفتها وأساس اصطفائها . .

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١١٠.

تغيير المنكر وخطأ البراءة من المخالفين

وقد كان أكثر اللائمين على أهل الدعوة، يعيبون عليهم عدم تبرئهم من الظالمين، وقالوا عنهم أنهم قصروا ونكلوا عن لعنهم والعداوة معهم، والحديث عن منكرهم، وقد فصلنا الكلام في موضوع الولاء والبراء في **كتابنا نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة الجزء الثالث «مفهوم الولاء والبراء»**..

على أننا نُذكِّر الآن بما كان من أمر أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، مع جماعة الخوارج الذين نقموا عليه في حكمه، وخالفوه في أمره، لعدم تبرئه من الظالمين من أهل بيته، وإعلان العداوة لهم والنقمة عليهم، وإشاعة ذلك عنهم، وهو ما ورد في كتب التاريخ عن محمد بن الزبير قال: «بعثني عمر بن عبدالعزيز مع عون بن عبدالله ابن مسعود إلى شوذب الخارجي وأصحابه إذ خرجوا بالجزيرة، وكتب معنا كتابا، فقدمنا عليهم، ودفعنا كتابه إليهم، فبعثوا معنا رجلا من بني شيبان ورجلا فيه حبشية، يقال له شوذب فقدم معنا على عمر وهو بحاضرته، فصعدنا إليه وكان في غرفة، ومعه ابنه عبدالملك، وحاجبه مزاحم، فأخبرنا بمكان الخارجيين..

قال عمر: فتشوهما لا يكن معهما حديدا وأدخلوهما، فلما دخلا قالا: السلام عليكم، ثم جلسا..

فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم عن حكمي هذا؟ وما نقمتم؟ فتكلم الأسود منهما، فقال: إنا والله ما نقمنا عليك في سيرتك، وتحريك العدل والإحسان إلى من وُلِّيتَ، ولكن بيننا وبينك أمر إن أعطيناه فنحن منك وأنت منا، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك..

قال عـمر مـا هو؟ قال: رأيناك خـالفت أهل بيـتك، وسمـيتـها مظالم، وسلكت غـير طريقـهم، فان زعـمت أنك على هدى، وهم على ضـلال فالعنهم، وابرأ منهم، فـهذا الذي يجـمع بيننا وبينك أو يُفرق..

فتكلم عـمر فحـمد الله وأثنى عليه، ثم قـال: إني قد علمت أو ظننت، أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيـا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، وإني سائـلكما عن أمر فبالله اصدقاني فيه مبلغ علمكما، قالا: نعم..

قـال: أخبـراني عن أبي بكر وعـمر أليـس من أسلافكمـا؟ ومن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالا اللهم: نعم، قال: فهل علمتما أن أبا بكر حين قُبض رسول الله ﷺ فارتدت العـرب، قاتلهم، فسفك الدماء، وأخذ الأموال وسبى الذراري؟ قـالا: نعم، قال: فهل علمتم أن عمر قـام بعد أبي بكر فردَّ تلك السبايا إلى عـشائرها، قالا: نعم، قال: فهل برئ عمر من أبي بكر أو تبرأون أنتم من أحد منهما؟

قالا: لا، قال: فـأخبراني عن أهل النهروان، أليـسوا من صالحي أسلافكما؟ وممن تشـهدون له بالنجاة؟ قالا: نعم، قـال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كَفُّوا أيديهم، فلم يسفكوا دما ولم يخيفوا أمنا؟ ولم يأخذوا مالا؟ قالا: نعم، قال: فـهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسـعر بن فُديك استعرضوا يقـتلونهم، ولقوا عبدالله ابن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النـساء والأطفال حـتى جعلوا يُلقونـهم في قدور الأقط وهي تفور؛ قالا: قد كان ذلك..

قال: فهل برئ أهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالا: لا، قال: فهل تبرأون أنتم من إحدى اثنتين؟ قالا: لا، قال: أفرأيتم الدين أليس هو واحد أم الدين اثنان؟ قالا: بل واحد، قال: فهل يَسَعُكم منه شيء يعجزني؟ قالا: لا..

قال: فكيف يَسَعُكم إن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى كل واحد منهما صاحبه، وتوليتم أهل الكوفة والبصرة وتولى بعضهم بعضا، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء والدماء والفروج والأموال، ولا يسعني إلا لعنُ أهل بيتي، والتبرء منهم؟ ورأيت لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها فإن كان ذلك فمتى عهدك بلعن فرعون؟ وقد قال: أنا ربكم، قال: ما أذكر أني لعنته..

قال: ويحك، أيَسَعك أن لا تلعن فرعون، وهو أخبث الخلق ولا يَسَعني أن لا ألعن أهل بيتي، والبراءة منهم؟

ويحكم إنك قوم جهال، أردتم أمرا فأخطأتموه فأنتم تردُّون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلى أن يخلوا الأوثان وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فمن قال ذلك حقن بذلك دمه، وأحرز ماله ووجبت حرمته، وأمن به عند رسول الله ﷺ كان أسوة المسلمين، وكان حسابه على الله، أفلستم تلقون من خلع الأوثان ورفض الأديان وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله تستحلون دمه وماله ويُلعن عندكم، ومن ترك ذلك وأتاكم من اليهود والنصارى وأهل الأديان، فتحرمون دمه وماله!..

فقال الأسود: ما سمعت كاليوم أحدا أبين حجة، ولا أقرب مأخذا، أما أنا فأشهد أنك على الحق، وإني بريء ممن برئ منك، فقال عمر لصاحبه: يا أخا بني شيبان ما تقول أنت؟

قال: ما أحسن ما قلت ووصفت، غير أني لا أفتات على الناس بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت، وأنظر ما حجتهم، قال: أنت وذاك فأقام الحبشي مع عمر وأمر له بالعطاء فلم يلبث أن مات، ولحق الشيباني بأصحابه فقتل معهم بعد وفاة عمر»انتهى.

أقول: فما أبين مقالة سيدنا عمر بن عبدالعزيز ﵁، وما أحسن ما دلل وأسس لهدي الإسلام، وأحكام الشريعة، أمام من لا يحسنون النظر في الأحكام، وليس معهم الأدوات والأهلية والاجتهاد، ولو استيقظ المتأخرون من غفوتهم، على ما أرشد إليه أئمة الدين، لكفوا المسلمين الكبوات، وكثير من المواجهات والصدامات، التي أدمت بلونها وجه الإسلام، وخريطة ديار المسلمين..

وقد بين الأئمة ﵃ أساس التعامل لمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم من الولاة، جلبا لأعلى المصالح التي لا تتم إلا بذلك، ودفعا لأرزل المفاسد، فقال الإمام الشوكاني - رحمه الله تعالى - في فتح القدير ج٢ ص٥٣٠:

«وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح أطيعوا السلطان وإن كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة وما لم يظهر منهم الكفر البواح وما لم يأمروا بمعصية الله وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله ومن جملة ما يأمرون به الجهاد وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا وإقامة الشريعة بين

المتخاصمين منهم وإقامة الحدود على من وجبت عليه وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله، ولابد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لابد منه، ولا محيص عن هذا الذي ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة؛ لتواتر الأدلة الواردة به بل قد ورد به الكتاب العزيز ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الأحاديث الصحيحة «أعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم»[2] بل ورد الأمر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي ﷺ حتى قال: «وإن أخذ مالك وضرب ظهرك»[3] فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر لأمر يقتضي ذلك شرعا كالطاعة أو التقية ومخافة الضرر منهم أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن ولا محبة ولا رضا بأفعالهم. قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدمنا الإشارة إليها ولا شك في هذا ولا ريب فكل من أمروه ابتداءً أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية

---

(١) سورة النساء الآية: ٥٩. (٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الإمام مسلم «باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة» ح (١٤٨٧).

ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائز له وأما ما ورد من النهي عن الدخـول في الإمارة فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمـة والسلاطين والأمراء جمعا بين الأدلة أو مع ضعف المأمـور عن القيـام بما أمر به كمـا ورد تعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيـحة، وأما مخالطتهم والدخول عليـهم لجلب مصلحـة عامة أو خـاصة أو دفع مـفسدة عـامة أو خاصـة مع كراهة ما هم عليـه من الظلم وعدم ميل النفس إليـهم ومحبتـها لهم وكـراهة المواصلة لهم لولا جلب تلـك المصلحة أو دفع تـلك المفسـدة فعلى فـرض صدق مسـمى الركون على هذا فـهو مخـصص بالأدلة الدالة على مشـروعية جـلب المصالح ودفع المفاسـد والأعمال بالـنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، ولا تخـفى على الله خافية، وبالجملة فـمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع فإن زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني ومـن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهـتهم بأمر يجب عليه طاعـته فهـو الأولى له والأليق به، يا مالك يوم الدين إياك نعـبـد وإياك نسـتـعين اجعلـنا من عبـادك الصـالحين، الآمـرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الذين لا يخافـون فيك لومة لائم، وقونّا على ذلك ويسّره لنا وأعنا عليـه قال القرطبي في تفسيره «وصحبة الظالم على التـقيـة مسـتثناة مـن النهي بحال الاضطرار» انتـهى وقـال النيسـابوري في تفـسيره «قـال المحقـقون الركـون المنهي عنه هو الرضـا بما عليه الظلـمة أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مـداخلتهم لرفع ضرر واجتـلاب منفعة عاجلة في الركـون قال وأقول هذا من طريق المعـاش والرخصـة ومـقتـضى التقـوى هو الاجـتناب عنهم بالكلية أليس الله بكاف عبده» انتهى.

أقـــول: وقـد بين الإمام الشـوكاني أيضـا في السيل الجرار ج٤ ص٥٧٠ أن الظالم قد يقوم في بعض الأحيان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فـإن كـان منه ذلك واحـتاج إلى من يـعينه علـى إقامـة هذا الحق، فـالواجب في هذه الحـالة إعـانته لأجل قـيـام الحق، لا من أجل الظالم نفسه..

وفي هذا يقول ـ رحمـه الله تعالى ـ: «قد قررنا فيمـا سبق أن الأمر بالمعـروف والـنهي عن المنكر من أعـظم الفـرائض الإسـلامـيـة وأهم الواجبات الدينية، والظالم إذا قام بذلك فـقد قام بحق، وإذا احتاج إلى من يُعـينه على ذلك كانت إعـانته واجـبة لأنهـا إعانه على حق، وقـيام لأجل الحق لا لأجل الظالم نفـسـه، ومعلوم أن الحق لا يـخفي»انتـهى كلام الإمام الشوكاني.

أقـــول: وقد يجتـمع ظالمان،. وأحدهما ظلمه أكـثر وأعظم من الآخر، فـفي هذه الحالة، تكون إعـانة الأقل ظلما، على اندفـاع شر وفساد الأعظم ظلما، داخل تحت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

وهو ما قرره الإمام الشوكاني أيضًا في السيل الجرار ج٤ ص٥٧٠ حيث قـال ـ رحمه الله تعـالى ـ ص٥٧٠ «ومن هذا القبيل إعانه الأقل ظلمـا من الفسقـة على الأكثـر ظلما إذا كـان يندفع بهذه الإعـانة ظلم الأكثر ظلما أو بعضـه، فإن هذا داخل تحت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» انتهى.

نقـــول: الله ـ عز وجل ـ بيَّن في قـصص الأنبياء، كيف السـبيل للنجاة أمام عموم الناس، ففي قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمام النمرود الظـالم المتكبر، الناس كـانوا يقولون له ـ عليـه السلام ـ لماذا تهلك نفسك؟، أفلا تكون مثل الآخرين؟ لماذا أنت تختلف عن الناس

كلهم؟ لكنه - عليه السلام - كان متيقنا أن الله معه، ولو كان كل الناس خلافه ولذلك الله نجاه من النار، وأهلك النمرود أمامه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

الله - عز وجل - يريد من الإنسان أن يكون إنسانا، بمعنى أن يعيش بنظام الإنسان لا بنظام غيره من الحيوان، ولكن الإنسان يرى نفسه أنه يحيا بصعوبة كإنسان، لأن في الإنسانية مشقات ومتاعب لا توجد في حياة غير الإنسان، مثل المتعة والرذيلة والفحشاء وغير ذلك، والله جعل هذا الإنسان محل اختياره وتفضيله وتكريمه، حتى تكلمت الملائكة فيه، واعترض الشيطان عليه، ولكن الله - عز وجل - رد عليهم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠] فالله أعطى نموذجًا للإنسان الصحيح بآدم - عليه السلام - والأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وآخرهم سيدنا محمد ﷺ فلماذا أرسل الله - تعالى - هؤلاء الرسل، حتى يكونوا نموذجا أمثل للإنسان الصحيح، الذي يجب أن تكون عليه الإنسانية، فلابد من العودة إلى تعظيم الأوامر، حتى يعود نظام الدين مرة ثانية في حياة الإنسان؛ فيحيا على مقصد وجوده وهو معرفة الله - تعالى - وتوحيده وعبادته والدعوة إليه، فيفوز وينجح في الدنيا ويتحصل على رضى الله - تعالى - في الآخرة.

رد عمر رضي الله عنه الذين قاموا بفكر تغيير الأحوال عن غير طريق الأعمال والإيمان

الحكم بما أنزل الله تعالى «عام» يشمل ويعم جميع الأمة وكل من له ولاية شرعية كلٌّ بحسبه، مادام قد رضي بالله ربا والإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

و«مَنْ» هنا للعموم تشمل جميع الأمة حكاما ومحكومين كل بحسبه.

والدليل من السنة قول النبي ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها»**[2].

فأخبر إمام المرسلين ﷺ أن كل أحد من الأمة له نسبة من ولاية، عليه في هذه الولاية أحكام للشرع، يرعاها ويقيمها، ويُظهرها ويُحكِّمها في الرعية التي استرعاه الله تعالى إياها، فمن قام في هذه الولاية بحق الله - تعالى - فيها، كانت له المثوبة وكان موفيا عدلا كريما، وهو أمين على القيام بحقوق الله تعالى في حدود ولايته، وبين من استرعاه الله - تعالى -، فيحكم فيهم أمره جل وعلا، وهدي نبيه ﷺ، فلا يُقدِّم على أمر الله تعالى وهدي رسوله ﷺ أمر أحدٍ من الناس ولم يكن يسعه مع ظهور حكم الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ وهو من أهل التوفيق والإيمان الكامل، إلا أن يكون ممتثلا موفيا محمودا، فإذا كان من أهل الغفلة والتفريط، أصابه التخليط، فأخذ

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٤.

(٢) رواه الإمام البخاري «باب الجمعة في القرى والمدن» ح (٨٥٣)، ورواه الإمام أحمد في المسند ٢/ ١٢١، ورواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٨٧.

وترك، فأخذه ممدوح، وتركه مذموم، إن أقر ابتداء بالحكم، وكان الدافع في تركه لأمر الله تعالى وحكمه ضعف وخلل الإيمان في قلبه، فالإمام راع، ومسئول عن إقامة الاحكام الشرعية المرتبطة بالإمامة والتي لا تقوم إلا بها، من إقامة الحدود، وحفظ الثغور، وقبض الخراج ورده على مستحقيه وتدبير الأمور وحماية البيضة... الخ.

والرجل راع ومسئول عن رعيته الممثلة في زوجه وأبنائه، فيطعمهم الحلال، ويقيمهم على أوامر الله - تعالى - الخاصة بهم، فُيلزم النساء العفة والصيانة والتستر، ويُعلم الأبناء آداء أركان الديانة، من صلاة وصيام... الخ.

والمرأة راعية ومسئولة عن مال زوجها وولده، وحفظها لعرضه وصيانتها لغيبة زوجها في نفسها وماله..

فإذا تخلف صنف من الأمة عن الحكم بشريعة الله - تعالى - هوى ومعصية، وترك المعروف ولم يعرفه، وأمر بالمنكر ونشره، وتعذر دعوته إلى ترك ذلك..

وتيسر دعوة بقية الأصناف للقيام على أمر الله - تعالى - وإجتناب نهيه وتطبيق شريعته، فلا يكون الحكم الشامل أن أهل الدعوة لا يرغبون في نشر المعروف والقيام لتغيير المنكر، حيث إن السواد الأعظم الذي عرف الإيمان عن طريق أهل الدعوة، طبقوا الكتاب والسنة وأحكام الشريعة في أنفسهم، وفي زويهم، وفي أحيائهم وبلادهم، والعالم أجمع.

وقد شذ قوم، فذهبوا إلى أن الحكم بما أنزل الله تعالى خاص بالحكام، وما علينا لإقامة الدين في الأمة إلا تغيير وتبديل حكامها.

فإذا الأرض تزهر بالأزهار، والسماء تبرق بالأنوار، ويسبح الناس ربهم بالعشي والإبكار، كل هذا بالحصول على الملك، وتبديل الحكام..

ونحن لاننكر ما للحاكم من فاعلية في الأمة، يقيمها على تعاليم دينها، ويسوقها إلى أمر ربها، ونسأل الله ـ تعالى ـ أن يولي علينا خيارنا، ويوفق ولاة أمورنا لما فيه صلاح المسلمين، وتعظيم الدين.

ولكن ننكر أن يكون إصلاح الأمة، وإقامة الدين بتغيير وتبديل أسماء، فهذا هو الطريق المختصر للتمكين والاستخلاف في الأرض، وهو الطريق الذي شقه فكر غير المسلمين في أذهان المسلمين، فأضرموا به النار في الأمة، وأظلمت الأرض، وأرعدت السماء، بالخصومات والثأرات المستمرة، بين الحكام والمحكومين، في ديار المسلمين، ودار الدولاب الجهنمي بنزيف الدماء، ولم تكن مصادفة أن هذه الخصومة بين الحكام والمحكومين، على ظهر البسيطة والمعمورة، لا تكاد تلمحها، وتطلع عليها، إلا في بلاد المسلمين عربهم وعجمهم، وكأنه ميراث نبيهم، أو نصوص كتابهم، والكتاب المعظم، والسنة المشرفة من هذا براء، ولكنها المفاهيم والآراء، عندما تتقدم على وحي السماء، وكم من قول معسول، يطول الأمر في كشف شبهته، ويحار البنان في مس دائه، ووصف دوائه، وما أظلم الشبهات، لو تغلفت بلباس تقوى، أو بحروف هوى، أو كلمة حق وصدق في لفظ مُفترى، ومن الشبهات من يبقى ويقوي، وتمر السنون والقرون، وتفنى الأيام، وسم الشبهة في القلوب لا يفنى..

ولقد بدأت هذه الشبهة من العصر الأول، على عهد الفاروق عمر ابن الخطاب ﷺ، ولم تتوقف بل ظلت تزحف حتى وصلت إلى

القرن الخامس عشر الهجري، بنفس العبارات والألفاظ، وعلى ذات الإتجاه..

وهو ما أورده الإمام ابن كثير ﷺ في تفسيره في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1].

فقال: قال ابن جرير عن الحسن «إن أناسا سألوا عبدالله بن عمرو بمصر فقالوا نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها،لا يعمل بها فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك، فقدم وقدموا معه، فلقى عمر ﷺ فقال: متى قدمت؟ فقال: كذا وكذا قال: أبإذن قدمت؟ قلت: فلا أدري كيف رد عليه، فقال: يا أمير المؤمنين إن ناسا لقوني بمصر فقالوا إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها فأحبوا أن يلقوك في ذلك. قال فاجمعهم لي، قال فجمعتهم له قال ابن عون أظنه قال في بهو فأخذ أدناهم رجلا فقال أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله؟ قال نعم قال فهل أحصيته في نفسك؟ فقال اللهم لا؟ قال ولو قال نعم لخصمه. قال فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أثرك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال، ثكلت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات قال وتلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية. ثم قال هل علم أهل المدينة، أو قال: هل علم أحد بما قدمتم قالوا لا، قال لو علموا لو عظت بكم» قال الإمام ابن كثير إسناد صحيح ومتن حسن وإن كان من رواية الحسن عن عمر وفيها انقطاع إلا أن مثل هذا اشتهر فتكفي شهرته. أنتهى.

---

(١) سورة النساء الآية: ٣١.

أقول: فلم يستقص عمر ﷺ عن الأوامر والاحكام التي أمر بها الله ـ عز وجل ـ في الكتاب ولم يعمل بها متولي الأمر في مصر، في ذلك العهد، وهو عمرو بن العاص ﷺ، ولا ناقشهم فيها، ولم يسأل عنها، بل بادر ﷺ إلى سؤالهم هم، عن أوامر الله ـ تعالى ـ في أبصارهم، وهل حكموا القرآن في الأبصار، وفي آثارهم، وهل حكموا القرآن في الآثار، وفي ألسنتهم، وهل نطقوا بالحق، واتبعوا الصدق، فكان ما يخص المأمورين في نظر عمر ﷺ هو الشأن والأمر، وهو الأولى والمقدم، به تقوم الأوامر في الولاة، وتنصلح الحياة، ويزول المنكر منهم.

فرد عمر ﷺ الذين قاموا بفكر إصلاح الأحوال والمجتمعات الإسلامية، عن غير طريق إصلاح الأعمال والإيمان، فهؤلاء الصفوة من أهل مصر، الذين كلموا عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ، رأوا أشياء في كتاب الله ـ تعالى ـ، أُمر أن يعمل بها ولا يعمل بها، بمعنى أنهم ينكرون على عمرو بن العاص ﷺ كونه لا يطبق حكم القرآن في بعض الأشياء في المجتمع، وشكوا ذلك إلى ابنه عبدالله بن عمرو ابن العاص، وسألوه أن يساعدهم في إيصال هذه الشكوى، بعدم تطبيق أحكام القرآن كاملة في الناس، ورفع هذا المنكر من الأمة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فأخذ عمر ﷺ بأدناهم رجلا، فقال له أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله؟؟»، فاستوثق ﷺ أنهم أحاطوا بأحكامه كلها كاملة، وليسوا من الذين يقرأون صفحة من القرآن، أو آية، فيستدلون بها على حكم، تاركين

عموم القرآن، الذي هو مبين لمجملها، أو مخصص لعمومها، أو مقيد لمطلقها، أو ناسخ للفظها أو معناها..

فلما اطمئن إلى ذلك، وأنهم ليسوا من المبتدئين، ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾[1]، بدأ يؤكد فيهم أصول أهل السنة في إصلاح مجتمعهم وقيام دينهم، وتبديل ما يظهر من منكرهم، فبدأ بسؤالهم عن الأعمال والإيمان وقيامها في حياتهم، وعن تطبيق آيات القرآن، الآمرة والناهية، في أنفسهم وأبصارهم، وآثارهم، وألفاظهم، وهل هذا القرآن يحيا في القلوب، وتتلوه الألسنة، وتتحرك به الجوارح، هل القرآن في المحراب وفي السوق بيعا وشراءً، وهل القرآن شعار ألسنة، أم ومضة في العيون، فلا تنظر إلا فيما أحل، وعبادة جارحة فلا قيام ولا جلوس، ولا سير ولا وقوف، ولا حركة ولا سكون إلا وفق أمره، وتجسيد لسطورة وصفحاته.

فأكد عمر ﷺ بهذا على المسئولية الذاتية لتطبيق الأحكام، على كل أفراد الأمة، وأنها عينية على كل أحد، قبل أن تكون كفائية بالنسبة للآخرين.

ولقد كان من الغرائب أن هؤلاء النفر، الذين هم صفوة الغيورين على القرآن وأحكامه، القائمين لتغيير منكر تركه، الطالبين لإقامته في الناس وفي مجتمعهم، غابت أوامره في أنفسهم، وتراجعت نصوصه في أبصارهم، وسقطت بعض تعاليمه من آثارهم، وكلهم قد أقر بذلك، وشهد بما هنالك، لما استقصى عمر ﷺ عن حقيقة الأعمال، وروح الإيمان..

---

(١) سورة الحجر الآية: ٩١.

لذلك قام أهل الدعوة بأصول أهل السنة والجماعة، في تغيير الأحوال وعودة وظهور الدين، وذلك عن طريق نشر الإيمان والأعمال الصالحة، في كل الأمة، إحياءً للسنة، وتعظيما للإله، حتى يتحقق فينا شرط الإيمان الذي هو أساس رفع المنكر من الأمة، فمع الدعوة لا خوف ولا حزن، وفي الدلالة على الله ـ تعالى ـ وقيام الإيمان، أساس العزة والامتثال والطاعة، فأعل هذا الدين في نفسك، وفي بيتك وفي عملك، يعلو في بلدك وفي وطنك وفي العالم، أظهر الشريعة فيك باطنا وظاهرا، أخذا وعطاءً بيعا وشراءً، خلقا ومعاملة، دعوة ودعاءً، تظهر هذه الشريعة على ما حولها، وتسمو أنت بها، فلا هروب ولا خطوب، ولا دفع ولا اندفاع، بل أمن وأمان، ورضى وأطمئنان، لذلك قال عمر ﷺ ثكلت عمرً أمه، اتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله، علم الله أن ستكون لنا سيئات، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم**﴾.

فتعجب عمر ﷺ، من هذه النظم والأفكار التي تقصر الأمانة العامة على أحد أفرادها، وأكد أن مسئولية إقامة كتاب الله ـ تعالى ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الناس، إنما هي لازمة لكل فرد في الأمة، ولو قصَّر أحد أفرادها في هذه الأمانة، فأشاح الوجه عنها، ونفض اليد منها، وأعطى الظهر لها، فمن المحال بحال، أن يستطيع رأس الأمة، ومتقلد الأمر، وصاحب الولاية العامة، أن يسد الثلم في هذا التقصير بمفرده، أو أن يكون بديلا عن هذه المسئولية العامة على كل أحد من الأمة، في نفسه وبصره وأثره. . . .

فلو سقطت مسئولية إقامة أحكام القرآن في النفوس، وأنكرتها الأبصار، وتغيرت لها الوجوه فأنى لولي أمر، أو حاكم أن يقيمها وحده، مع تأخر الأمة عن ذلك، واشتداد الظلمة، وبُعد الإيمان من حياة الناس..

فقرر ﷺ أن التطبيق للأوامر هو بالالتزام بالأعمال، ولا يتعلق بتبديل الأعيان، فدعوى التطبيق ليست للغير فقط، بل هي أولا ذاتية على التعيين، ثم تكون بعد ذلك متعدية في العموم، بعد قيامها في الخصوص.

كما أكد عمر ﷺ على طريق إقامة أحكام القرآن في الأمة، إذا لم يكن ذلك حال ولي الأمر لظلم منه، أو معصية فيه، أو غفلة له فترك بعض الأحكام والأوامر، فلم يقيمها، أو أمر بضدها، وحول الفاروق ﷺ أنظار المعترضين، من الإنكار على الحكام، كطريق لاقامة الأحكام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى سبيل الأنبياء، ودرب الأصفياء، ومحجة الأمة، أولها وآخرها، وهو نشر الإيمان والأعمال الصالحة في الأمة بمجملها، مسئولية عامة لكل فرد فيها، وسبيلاً لتمكين الدين لها ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾[1].

فعلى هذا قام أهل الدعوة، لينيروا الظلمة، ويبعثوا الايمان في الأمة، ليتحقق فيها معالم النصرة، وأسس العزة، فيمنّ الله ـ تعالى ـ عليها كما منّ على من قبلها، ويرفع ذكرها، ويعلى شأنها..

---

(١) سورة النور الآية: ٥٦.

فأساس تمكين الدين في الأرض، هو هذه المسئولية العامة على عموم الأمة، رجالها ونسائها، كبيرها وصغيرها، حكاما ومحكومين، وهي وحدها أساس إقامة الدين، وإن غفل عنها المسلمون، إلقاءً بالتبعات على الولاة وحدهم، وقصرًا للظلم والفساد عليهم، وما هم إلا لبنة في رأس بناء، وعن بقية اللبنات وعموم البناء، سأل عمر ﷺ، وفتش وأرشد، ولما وجد الفاروق ﷺ وهو أحرص الناس على القرآن، وعلى أقامة أحكامه في الأمة، أن الإجابة من هؤلاء الداعين، لإقامة أوامر الله ـ تعالى ـ بأكملها في مجتمعهم، المنكرين لحاكمهم، أنه لم يفعل ذلك، كانت من جميعهم «بلا»، فلم يكن القرآن مطبقا فيهم هم أولا كاملا، لا في أنفسهم ولا في أبصارهم، ولا في آثارهم، ومع ذلك أرادوا أن يُكلفوا ولي الأمر بأقامة الأوامر في الناس، منكرين له عدم فعل هذا، ولم يُكلفوا أنفسهم هم أن يقيموا أوامر القرآن تامة فيها، فسقطت فيهم الأحكام والاوامر، وأرادوا حمل الحاكم على اقامتها كاملة في من ولاه الله عليهم.

لا يتخلف من ذلك أمر من الأوامر، ولا حكم من الأحكام، بمعنى أن يكونوا قرأنيين يمشون في الناس، كما كان النبي ﷺ حين وصفته عائشة: «كان خلقه القرآن»، وحين وصفه أصحابه ﷺ: **«كان قرآنا يمشي بين الناس»**.

لذلك فمقصد أهل الدعوة دائما واضح، وهو اصلاح أنفسهم وإيمانهم، الذي هو أساس رفع المنكرات، وازاحة الفواحش والمخالفات فأصل سعيهم هو للمطلوب منهم، وليس للموعود لهم، وبدون قيامنا على هذا المطلوب منا، وهو الإيمان والاعمال الصالحة، وتمام الامتثال والطاعة، فلن نعرف المعروف وندعو إليه، ولن نكره المنكر وننتهي عنه، ولن يتحقق الموعود لنا بالاستخلاف والخيرية..

وقد ضرب العلماء لذلك مثلا، عن ملك أحضر أحد عبيده، فقال له: اني عارض عليك أمر، هو أفضل ما سمعت طول عمرك، وأيام حياتك، أذهب إلى البلدة المجاورة، ومعك هذه الألف درهم، فأحضر لي بها متاعًا منها، على أن تعود قبل صلاة المغرب، فإن فعلت ذلك، على ما أمرتك، وأصغيت لما أخبرتك، زوجتك أفضل الجواري، وجعلتك حُرًّا، وإن عصيتني، ورددت أمري، وأتيتني بعد الموعد الذي حددته، والوقت الذي وقته، جردت سيفي عليك، ونالك مني العذاب الأليم..

فسار هذا العبد إلى هذه البلدة، وهو يمني نفسه في طريقه إليها، الآن أصل إلى البلدة المجاورة، وأسلم النقود فيها، وأحصل على متاع سيدي ومولاي، فأصير بعدها حرا، ويزوجني أفضل جواريه، وأسكن في مزرعته..

وهو على هذا الحال، يحلم مع أمانيه، مرَّ على فاتنة في كوخها، فقالت له: إلى أين؟، قال إلى بلدة كذا، قالت له: ولماذا؟ قال: لأشتري بهذه النقود متاعا لسيدي، وأعود قبل صلاة المغرب، فإن فعلت هذا حررني، وزوجني أفضل جواريه، وأسكنني في مزرعته، وإن لم أفعل ذلك، مزقني سيفه ونالني عذابه..

قالت الفاتنة: أفلا تجلس فتستريح، من عناء وتعب الطريق..

قال العبد: أخشى أن أتأخر على سيدي..

قالت الفاتنة: الشمس ما زالت في وسط السماء، والوقت بعد طويل فاجلس، فما زالت به حتى جلس، ثم قالت له: أراك في عطش وشدة، فما تقول في كأس من الخمر، يجدد نشاطك، وينعش أعضاءك، ويذهب عنك ما أرى..

قال العبد لها: أخاف أن أسكر فيضيع وقتي، ولم أصل بعد إلى البلدة الأخرى، ولم أحصل على متاع سيدي..

قالت له الفاتنة: إنما هي كأس واحدة، ولن يحدث منها كل ذلك، وهي سوف تقويك على سفرك، وطاعة أمر سيدك، بيسر وسهولة، وتعينك على ذلك..

قال لها العبد: كأس واحدة فقط..

فقالت له: نعم..

قال العبد: فأتيني بها، فقدمت له كأس الخمر، فوضعها على فمه فشربها، ثم نظر إليها فقال: لو شربت كأسا أخرى، فهل تأخرني عن موعدي..

قالت له الفاتنة: كلا والوقت ما زال طويلا..

قال العبد: فعليَّ بها..

قالت له الفاتنة: هي بعشرة دراهم..

قال العبد: علي بها فمعي ألف درهم، ومتاع سيدي لن يكون بألف درهم، فأتت بها فشربها، ثم سألها عن الثالثة، والرابعة، والخامسة... إلخ..

كل ذلك تقول الفاتنة له: لا تخف لن تتأخر عن موعدك، ولن تعصى سيدك، والوقت طويل، حتى مال قرص الشمس للغروب، وأسدل ظلامه الليل، والعبد ممدد على الأرض، من أثر الخمر، قد أنفق الألف درهم عليها، وأصاب الفاتنة معها، وهو بين ذراعيها يفتح عينا ويغلق أخرى، ويعلو صوته: الآن أذهب إلى البلدة الأخرى، فأشتري متاع سيدي، وأعود قبل المغرب، فيكافئني على ذلك سيدي ومولاي، فيحررني ويزوجني أفضل جواريه، ويسكنني الكوخ في

مزرعته، يقول ذلك بعد العشاء وقد حل الظلام، ثم يغط في نوم عميق، يفيق بعدها للحظات فيردد ما سبق. . . ، الآن أعود إلى سيدي قبل المغرب، بالمتاع الذي طلبه، فيحررني ويزوجني أفضل جواريه. . . إلخ. .

فكيف الحال مع هذا العبد إذا أفاق في صباح اليوم التالي، بعد ذهاب أثر الخمر، وعودته إلى سيده ومولاه، وقد فقد ماله، وعصى أمره هل سيحرره ويزوجه ويكافئه، أم سيجرد له سيفه ويذيقه سوط العذاب كما توعده، بعد أن عصى أمره وأضاع ماله، رغم أنه ما زال يمني نفسه بموعود سيده، من التحرر والزواج، والسكن والمتعة. .

وهذا مثال لحال كثير ممن يطلبون ويجتهدون، على تحصيل الموعود، وهو الاستخلاف في الأرض والتمكين مع عدم قيام الأمة على المطلوب منها، وتخدرها بالملذات والشهوات، ومعصيتها لرب الأرض والسماوات، ومع ذلك نطلب النصرة والتمكين، رغم غياب تحقق الأوامر فينا، من الإيمان والأعمال الصالحة. .

صلاة الفجر غائبة في الأمة، لا يصليها إلا نادر النادرين، وأركان الإسلام تشتكي إلى الله ـ تعالى ـ العابثين بها واللاهين، وترتفع الأصوات من هنا حينا ومن هناك أخرى، بأن هذا أوان التمكين ووقت الاستخلاف والنصرة، وأنى لأمة أضاعت مجدها، وزهدت في طهارتها، وتنكرت لإيمانها وتركت عفتها، أن يكافئها بتمكينه أو يمدها بنصرة. .

فالوعد لا يطلب وإنما يجتهد الناس على تحصيل أسبابه، وهو عمل أهل الدعوة ليلهم ونهارهم، على تحقيق المطلوب من الأمة، بنشر الإيمان والمعروف والأعمال الصالحة فيها، وهجر الفواحش

والمنكرات منها، حتى نكون محلا لصدق الوعد، وتحقيق العهد من الله ـ تعالى ـ، وأهلا للنصرة..

فالخير كل الخير في الطاعة ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[1].

ومن ثمرة الطاعة لولاة الأمور، وعدم الخروج والتشغيب عليهم، والمصادمة لهم، أن يجعلها الله سببا، في توفيق العبد لطاعة الرسول التي هي سبب للتوفيق لطاعة الله ـ تعالى ـ، وهذه المعاني مأخوذة من قول النبي ﷺ: «**من أطاع أميري فقد أطاعني ومن أطاعني فقد أطاع الله**»[2].

فالتطبيق في الواقع من الآخر إلى الأول، والأمر قد جاء من الأول إلى الآخر، فالمأمور به أولا طاعة الله ـ تعالى ـ وطاعة رسوله ﷺ ثم طاعة ولاة الأمر، وعند التطبيق طاعة ولاة الأمر وعدم الخروج عليهم ومصادمتهم، يجعلها الله ـ تعالى ـ سببا للتوفيق لطاعة رسوله ﷺ وسببا للتوفيق لطاعته.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا أبدًا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا.

---

(١) سورة النساء الآية: ٥٩.

(٢) رواه الإمام البخاري كتاب الأحكام «باب قول الله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾» ح ٦٦٠٤، ورواه الإمام مسلم كتاب البيعة «باب الترغيب في طاعة الإيمان» ح٤١٢٢.

عمارة دار الإسلام
مسئولية كل الأمة

وجاء عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، فتكرر هذا المسلك ممن كانوا على عصره، الذين كانوا يُسمون المحكمية، والذين اعتزلوه لكونه لا يحكم بالكتاب، وحكموا عليه ومن معه وهم جمهور المهاجرين والأنصار بالكفر، فأرسل إليهم ـ كرم الله وجهه ـ عبدالله ابن عباس ﷺ ليبصرهم بالحق والصواب..

وقد أوردت كتب التاريخ هذه المقابلة كالآتي: «فبينا علي ـ كرم الله وجهه ـ مقيم بالكوفة، ينتظر انقضاء المدة التي كانت بينه وبين معاوية ﷺ ثم يرجع إلى محاربة أهل الشام، اذ تحركت طائفة من خاصة أصحابه في أربعة آلاف فارس، وهم من النساك العباد أصحاب البرانس، فخرجوا عن الكوفة وتحزّبوا وخالفوا عليا ـ كرم الله وجهه ـ وقالوا: لا حكم إلا لله ولا طاعة لمن عصى الله. قال: وانحاز إليهم نيف عن ثمانية آلاف رجل ممن يرى رأيهم، قال: فصار القوم في اثنى عشر ألفا وساروا حتى نزلوا بحروراء وأمَّروا عليهم عبدالله بن الكواء.

قال: فدعا سيدنا علي ﷺ بعبدالله بن عباس ﷺ فأرسله إليهم وقال: يا ابن عباس امض إلى هؤلاء القوم فانظر ما هم عليه ولماذا اجتمعوا.

قال: فأقبل عليهم ابن عباس ﷺ حتى إذا أشرف عليهم ونظروا إليه ناداه بعضهم وقال: ويلك يا ابن عباس! أكفرت بربك كما كفر صاحبك علي بن أبي طالب؟

فقال ابن عباس ﷺ: إني لا أستطيع أن أكلمكم كلكم، ولكن انظروا أيكم أعلم بما يأتي ويذر فليخرج إليَّ حتى أكلمه.

قال: فخرج إليه رجل منهم يقال له عتاب بن الأعور الثعلبي حتى وقف قبالته، وكأن القرآن إنما كان ممثلا بين عينيه، فجعل يقول ويحتج

ويتكلم بما يريد، وابن عباس رضي الله عنه ساكت لا يكلمه بشيء، حتى إذا فرغ من كلامه أقبل عليه ابن عباس رضي الله عنه فقال: إني أريد أن أضرب لك مثلا، فان كنت عاقلا فافهم!.

فقال الخارجي: قل ما بدا لك.

فقال له ابن عباس رضي الله عنه: خبرني عن دار الإسلام هذه هل تعلم لمن هي ومن بناها؟..

فقال الخارجي: نعم، هي لله ـ عز وجل ـ، وهو الذي بناها على أيدي أنبيائه وأهل طاعته، ثم أمر من بعثه إليها من الأنبياء أن يأمروا الأمم أن لا يعبدوا إلا إياه، فآمن قوم وكفر قوم، وآخر من بعثه إليها من الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال ابن عباس رضي الله عنه: صدقت ولكن خبرني عن محمد صلى الله عليه وسلم حين بُعث إلى دار الإسلام، فبناها كما بناها غيره من الأنبياء، هل أحكم عمارتها وبين حدودها؟، وأوقف الأمة على سبلها وعملها؟ وشرائع أحكامها ومعالم دينها؟

قال الخارجي: نعم قد فعل محمد صلى الله عليه وسلم ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فخبرني الآن عن محمد صلى الله عليه وسلم هل بقى فيها أو رحل عنها؟

قال الخارجي: بل رحل عنها.

قال ابن عباس رضي الله عنه: فخبرني رحل عنها وهي كاملة العمارة بينة الحدود، أم رحل عنها وهي خربة لا عمران فيها؟

قال الخارجي: بل رحل عنها وهي كاملة العمارة، بينة الحدود، قائمة المنار.

قال ابن عباس ﷺ: صدقت، الآن فأخبرني هل كان لمحمد ﷺ أحد يقوم بعمارة هذه الدار من بعده أم لا؟

قال الخارجي: بلى، قد كان له صحابة وأهل بيت وذرية يقومون بعمارة هذه الدار من بعده.

قال ابن عباس: ففعلوا أم لم يفعلوا؟

قال الخارجي: بلى، قد فعلوا وعمروا هذه الدار من بعده.

قال ابن عباس ﷺ: فخبرني الآن عن هذه الدار من بعده، هل هي اليوم على ما تركها محمد ﷺ من كمال عمارتها وقوام حدودها أم هي خربة عاطلة الحدود؟

قال الخارجي: بل هي عاطلة الحدود خربة.

قال ابن عباس ﷺ: أفذريته وليت هذا الخراب أم أمته؟

قال: بل أمته.

قال ابن عباس: أفأنت من الأمة أو من الذرية؟

قال: أنا من الأمة.

قال ابن عباس ﷺ: يا عتاب! فخبرني الآن عنك كيف ترجو النجاة من النار، وأنت من أمة قد أخربت دار الإسلام وعطلت حدودها؟

فقال الخارجي: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويحك يا ابن عباس! احتلت والله حتى أوقعتني في أمر عظيم، وألزمتني الحجة حتى جعلتني ممن أخرب دار الإسلام. ولكن ويحك يا ابن عباس! فكيف الحيلة في التخلص مما أنا فيه؟

قال ابن عباس ﷺ: الحيلة في ذلك أن تسعى في عمارة ما أخربته الأمة من دار الإسلام»انتهى.

قلت: فترك هذا الخارجي ما كان عليه وانضم إلى علي - رضي الله عنه - وأصحابه، فانظر - رحمك الله - إلى هذه النعرة، وتلك الصولة، من هؤلاء الناس، كيف حكموا على حبر الأمة، وترجمان القرآن، بالكفر والخروج من الملة، وكيف تجاوزوا الحد ونقضوا العهد، فكفروا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وانظر كيف تتحول الأمة في نظرهم، من دار الإيمان والإسلام إلى دار الكفر والعصيان، بين عشية وضحاها، وهو ما أخبر به النبي ﷺ: **«بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافراً، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا»**[1] قال الحسن البصري أي يصبح الرجل محرما ما حرمه الله ويمسي مستحلا إياه وهذا ما وقع من هؤلاء، وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر، وآمنا يقينا بما قال..

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١٢ ص٣١٤ نقلا عن الإمام القرطبي في (المفهم) في كلامه عن الخوارج وصولتهم على الأمة وعلى مخالفيهم ورميهم للمسلمين بالكفر فقال - رحمه الله -: قال وباب التكفير باب خطر ولا نعدل بالسلامة شيئا، قال وفي الحديث علم من أعلام النبوة حيث أخبر بما وقع قبل أن يقع، وذلك أن الخوارج لما حكموا بكفر من خالفهم واستباحوا دماءهم وتركوا أهل الذمة فقالوا نفي لهم بعهدهم، وتركوا قتال المشركين واشتغلوا بقتال المسلمين، وهذا كله من آثار عبادة الجهال الذين لم تنشرح صدورهم بنور العلم ولم يتمسكوا بحبل وثيق من العلم، وكفى أن رأسهم رد على رسول الله ﷺ أمره ونسبه إلى الجور نسأل الله السلامة» انتهى.

---

(١) رواه الإمام الترمذي في السنن «باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم» ح (٢١٩٥) وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

ثم انظر إلى الحجة البالغة، التي أقامها ابن عباس ﷺ، على هذا الرجل الخارجي، **في أن خراب دار الإسلام والإيمان هو جناية كل الأمة، وهو جريمة كل أفرادها**، نسائها ورجالها، صغيرها وكبيرها، ذكرها وأنثاها، وأن قيام دار الإسلام والإيمان، وعمارة هذه الدار إنما يكون بقيام كل الأمة، على تعاليم دينها، وبناء صرح إسلامها، لا إلقاء التبعات على حكامها، والتنصل من المسئولية العامة فيها، بهذا يعلو صرح الإسلام، ويقوي داعي الإيمان؟ وتعود الأمة كما كانت خير أمه أخرجت للناس، تقود الأمم والأجناس إلى العدل والخير والإيمان..

فهذه الحياة الدنيا هي للاختبار والابتلاء، ولكن الحياة الحقيقية في الآخرة، فكيف تكون حياتنا الدنيا تابعة لأمر الله - تعالى -؟ إنما يتحقق ذلك بالدعوة، حينما يكون الإنسان عبداً لله - تعالى -، ويحيى نظام العبودية في نفسه وفي الناس، في جميع شئون الحياة، وليس في أشياء مخصوصة فقط، فبالدعوة إلى الله - تعالى - تكون معية الله - عز وجل - معنا..

الصحابة ﷺ كانوا يقولون للناس ما جئنا لنقتلكم، ولكن «**أسلموا تسلموا**»[1]، وبينوا للناس أنهم جاءوا إليهم بالنصح والحرص والرحمة، وكان شعارهم الذي رفعوه أمام الناس «**إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة**»[2].

---

(١) أورده الإمام الهيثمي ٥/ ٣٠٥ وقال رواه أحمد ورجال رجال الصحيح.

(٢) أورده الإمام الطبري في تاريخه ٢/ ٤٠١.

ونحن الآن علينا أن نوضح لغير المسلمين في عصرنا أنهم على هذا الحال في خطر شديد، كما كانت مقاصد الصحابة ﷺ مع من كان على عهدهم، غير المسلمين الآن يفهمون الإسلام على أنه دين القتل، وليس دين العدل والبر والإحسان.

أقول: والرسول ﷺ كم تجول على الكفار ألما وحزنا عليهم، وكادت نفسه الشريفة تفوت حرصا على نجاتهم، وشفقة لهم، حتى عاتبه الله - عز وجل - في ذلك ﴿**لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين**﴾ أي قاتل نفسك حرصا على إيمانهم، ثم عندما كان منهم الإيذاء والصد، دعى دعوته المشهورة «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1] وقال - صلوات ربي وتسليماته عليه - بعد أن أدموا قدميه في الطائف، معترضا على ملك الجبال في إهلاكهم: «**إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا**»[2].

لذلك الله - عز وجل - لم يُعطِ الخلافة لهذه الأمة إلا بعد التربية والتزكية، وقيامهم على الدين الكامل، وعلى مقاصد النبوة والرسالة، في هداية الإنسانية كافة، وحتى لا تكون هذه الخلافة كلها خلافات، وحروب داخلية بين المسلمين..

فإصلاح العلاقة بين العباد ورب العباد، هي أولى الوظائف والمسئوليات التي حرص عليها الصحابة ﷺ، والتي عبر عنها قولهم «**إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده**»،

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه «باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم» ح (٣٢٩٠)، وأخرجه الإمام مسلم «باب غزوة أحد» ح (١٧٨٩).

(٢) رواه الإمام البخاري «باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه»، ورواه الإمام مسلم «باب ما لقى النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين» ح (١٧٩٥).

وحتى ندعو غير المسلمين لهذا الدين، لابد من تعلم جهد وتضحية النبي ﷺ لنشر الهداية، وكيف كان فكرة وحلمه، وخلقه ومعاملاته، ومعاشراته ونياته ومقاصده، حتى نجعل حياتنا تابعة لحياة النبي ﷺ، وحتى نقيم الأمة على هذه الحياة..

وهو دأب أهل الدعوة الذين ينبعثون بصفات التقوى، وآيات الهدى في أنحاء المعمورة، لتتلاشى تلك السُّبّة، وهذه النقيصة، التي أُلصقت بالأمة، وتُخمد نار الفتنة حولها، فيرى الناس في الإسلام اليوم، واحة الأمان، وزاد الإيمان، وسعة الدنيا والآخرة.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يوفق أمة الإسلام لإسلام الوجه لله ـ تعالى ـ، واتباع سنة المصطفى ﷺ، ولزوم غرزها، ففي ذلك النجاة، وطيب الحياة، ورضى الإله، في الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1].

---

(١) سورة النحل آية: ٩٧.

آداب الآمر بالمعروف
والناهي عن المنكر

للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر آداب، مع التحلي بها تؤتي هذه الشعيرة ثمارها، وتتحقق المصالح المرجوة لها، وتندفع المفاسد الواقعة كلها، مع صدق النيَّات، وعزم المساعي والإرادات، وحتى لا يكون النهي عن المنكر والاحتساب، خطرا على الناهي والمحتسب نفسه..

فإذا استجمع الآمر والناهي نيته وقصده، وبرأ نفسه من دغلها، وشططها وجموحها، وعرف عيوب نفسه فتوقاها، وفتح بصيرته لنور الهداية يراها، ولم يقصد عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذل غيره بالجهل، واجتنب الرياء وطلب الجاه، وهو الشهوة الخفية، فإنه يكون بذلك قد وضع قدمه، على أول طريق السابقين، أئمة الهدى المصلحين، الذين أخذوا بجموع الأمة، إلى واحة الطاعة والدين، على أنه يلزمه مع ذلك الآداب الواجب توافرها، لأداء هذه الوظيفة، ولتحمل تلك المسئولية..

ومن هذه الآداب الرفق والحلم وسعة الصدر أمام المخالفين، وفي هذا يقول الإمام ابن كثير في تفسيره ج١ ص١٢١: «وقولوا للناس حسنا أي كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنا كما قال الله وهو كل خلق حسن رضيه الله. وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا أبو عامر الخزاز عن أبي عمران الجوني عن عبدالله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا وإن لم تجد

(١) سورة النساء الآية: ٥٩.

فالق أخاك بوجه منطلق» وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وصححه من حديث أبي عامر الخزار واسمه صالح بن رستم به»انتهى.

أقول: ومن الرفق والحلم وسعة الصدر أمام المخالفين، دعوتهم ونصحهم والحرص عليهم، وإن خالفوه وعصوه..

وهو ما أورده الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ ج٢ ص١١١:

«عن سوار بن شبيب قال كنت عند ابن عمر إذا أتاه رجل جليد العين شديد اللسان فقال يا أبا عبدالرحمن نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه وكلهم مجتهد لا يألو وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة إلا الخير وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك فقال رجل من القوم وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك فقال الرجل إني لست إياك أسأل إنما أسأل الشيخ فأعاد على عبدالله الحديث فقال عبدالله لعلك ترى لا أبالك أني سآمرك أن تذهب فتقتلهم عظهم وانههم وإن عصوك فعليك بنفسك فإن الله ـ عز وجل ـ يقول ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ الآية» انتهى.

أقول: على أن القائم بالنصيحة أمام عيوب المخالفين لابد له من مراقبة نيته وقصده، فلا يفرح بالاطلاع على عيوب العاصين، أو يقصد الترفع على صاحب الذنب، وإلا لكانت غيبة محرمة، بخلاف ما لو كان ذكره للعيب لتغيير المنكر، أو الاستفتاء، أو للتحذير من شره، أو التعريف به فليس ذلك بغيبة وفي هذا يقول العلماء:

«فذكر العيب لتغيير المنكر أو للاستفتاء أو للتحذير من شره أو التعريف كالأعرج ونحوها ليس بغيبة، ولا غيبة للمجاهر بالفسق والظلم، وتكون الغيبة أيضًا بالقلب وهي ظن السوء كما يُعبَّر عنه

بتحقيق الظن في قوله ﷺ: «إذا ظننت فلا تحقق»[1] أي: لا تحقق بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فبتغيره إلى النفرة والكراهة فإن أمارة عقد الظن أن يتغير القلب منه عما كان فينفر نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه.

وأما في الجوارح فالعمل بموجبه، فالواجب أن تكف عن ذلك وتقول: هو رجل مستور الحال ولا يعلم الغيب إلا الله، فما دمت لم تشاهد مشاهدة لا تحتمل التأويل فالأمر مستور، وَدَعْهُ في الستر وأعرض عما يلقيه الشيطان فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ بل لو حكى عدل واحد لكان الستر باقيا أيضًا، فلو كذّبت هذا العدل أيضا لكنت أحسنت الظن بواحد وأسأته بآخر، بل إن احتمل العدل التأويل فاحمله عليه ولكن إن كان خبر العدل مما يوجب البراءة تبرأت منه لا من المحكي عنه إلا عند من زعم أنه يتبرأ بخبر الواحد، ويناسب أن الغيبة تكون بالقلب، أن عابدا سأل عالما عن شيء من الحلال على التورع فقال العالم في قلبه: أبقى من يسأل عن مثل هذا؟ فقال العابد: الغيبة حرام، وإذا نصحت إنسانا بعيبه فاحذر أن تفرح باطلاعك عليه وأن تقصد الترفع عليه وتذلله لك وإلا فذلك غيبة، واحذر أن يغرك الشيطان في الظن فيقول: إنك شديد التيقظ للأحوال، سريع الفهم وإن المؤمن بنور الله يبصر فإن ذلك منه غرور بل الإذعان للظن ظلمة من الشيطان وغرور، فقد بان لك أن الغيبة تكون بالجارحة واللسان والقلب وبالكتب والرمز والسكوت مع القدرة على الإنكار فلم ينكر أو على القيام فلم يقم أو على القطع بكلام آخر فلم يقطع فهذه مراتب بحسب الطاقة، ولو قلت اقطع فلانا

---

(١) المعجم الكبير ح (٣٢٢٧)، الآحاد والمثاني ح (١٩٦٢).

أو ارجم تشير إلى أنه سارق أو زان لكان غيبة ولو كان أمرا لا إخبارا ففي المستطرف إذا حاكى إنسانٌ إنسانا بأن يمشي متعارجا أو مطأطأ أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام، وبعض المتفقهة والمتعبدة يُعرِّضون بالغيبة تعريضا تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا الله يغفر لنا، الله يصلحه، نسأل الله العافية، نحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الكبر، يعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا وما أشبه ذلك مما يُنقصُهُ، فكل ذلك غيبة محرمة.

قال الغزالي: اعلم أن الذكر باللسان إنما حُرِّم، لأن فيه تنقيص الغير فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والرمز والكتابة والحركة وكل ما يُفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام، فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها: دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال عليه الصلاة والسلام «اغتبتيها»[1] والمحاكاة مثل أن يمشي متعارجا أشد من غيبة اللسان في نوع ما يُحاكي لو اغتابه فيه باللسان لأن المحاكاة أعظم في التصوير والتفهيم.

ولما «رآها» صلى الله عليه وسلم حاكت قال: «ما يسرني أني حاكيت ولي كذا أو كذا» ويدل لما ذكرنا من الغيبة بالكتاب ما ثبت أن الكتابة كلام لحديث «القلم أحد اللسانين» فالمؤلف مغتاب إذا عين أحدا وقدح في كلامه لقصد تنقيصه لا لرد البدعة إن ابتدع ومن كتب أو تكلم بلا تصريح لكن ذكر ما يفهم منه المغتاب فقد اغتاب مثل أن يقول: بعض من مر

---

(١) أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣١٣، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٤٦٩، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الغيبة وابن مردوية في التفسير.

بنا اليوم، إذا كان المخاطب يفهم المراد، وكان ﷺ يقول «ما بال أقوام» ولا يُعين، وأخبث الغيبة غيبة قارئ أو عابد يغتاب غيره مزكيا لنفسه مرائيا، مثل أن يفهم المراد بلا تصريح مدعيا التعفف عن الغيبة يقول: ما أحفظ فلانًا للقرآن لكن فلان لا يجوده كما ابتلينا أو كما نحن أهل التقصير فيذم نفسه تشبها بالصالحين، وقصده ذم المذكور وربما غفل السامع فيقول المغتاب: سبحان الله ما أعجب هذا، فتوصل بذكر الله إلى تيقظ العاقل ويستخرج منه بمعجبه أن يدخله معه في الغيبة، وقد كان يدخل فيها بالسكوت كما مر أن المستمع شريك المغتاب كما مر في حديث قول أحد الرجلين في ماعز أنه أقعص كما يُقعص الكلب فجمعهما ﷺ في قوله «انهشا من هذه الجيفة[1] إلخ» انتهى.

أقول: وها هو الإمام السفاريني في غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ج١ يبين الآداب التي يلزم للقائم بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتحلى بها فقال ـ رحمه الله ـ: «**مطلبٌ: يجب على الآمر بالمعروف أن يبدأ بالرفق**».

وبالأسهل ابدأ ثم زد قدر حاجة فإن لم يزل بالنافذ الأمر فاصدد

(وبالأسهل) أي الألين من السهل ضد الحزن (ابدأ) أيها الآمر الناهي لتفوز بفضيلة ما قمت به وفضيلة الاتباع في سهولة الأخلاق والانطباع فإن الإنسان ينفعل للرفق ما لا ينفعل للعنف، يعني أنه يجب على الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يبدأ بالرفق ولين الجانب، سواءٌ كان المُنكرُ عليه مسلما أو ذميا.

---

(١) رواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ١٠٧.

قال في الآداب: وينبغي أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر متواضعا رفيقا فيما يدعو إليه، رحيما شفوقا غير فظ ولا غليظ القلب ولا متعنت، دينا نزها عفيفا ذا رأي وحزامة وشدة في الدين، كما تقدم في كلام الناظم في قوله الفتى الجلد، قاصدا بذلك وجه الله ـ عز وجل ـ وإقامة دينه ونصرة شرعه وامتثال أمره، وإحياء سنة نبيه ﷺ بلا رياء ولا منافقة ولا مداهنة غير منافس ولا مفاخر، ولا ممن يخالف قوله فعله ويسن له العمل بالنوافل والمندوبات والرفق وطلاقة الوجه وحسن الخلق عند إنكاره، والتثبت والمسامحة بالهفوة عند أول مرة.

قال سيدنا الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس يحتاجون إلى مداراة ورفق الآمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بالفسق فقد وجب عليك نهيه وإعلامه لأنه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهؤلاء لا حرمة لهم.

وسأله مهنا هل يستقيم أن يكون ضربا باليد إذا أمر بالمعروف؟ قال الرفق ونقل يعقوب أنه سُئل عن الأمر بالمعروف؛ قال كان أصحاب ابن مسعود يقولون مهلا رحمكم الله. ونقل مهنا: ينبغي أن يأمر بالرفق والخضوع. قلت كيف؟ قال إن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيريد أن ينتصر لنفسه.

قال القاضي: ويجب أن يبدأ بالأسهل، وعبر بعضهم كالناظم، ويبدأ بإسقاط ويجب ويعمل بظنه في ذلك (ثم) إن لم يزُل المنكر الواجب إنكاره (زد) على الأسهل بأن تغلظ له القول (قدر) أي بقدر (حاجة) إزالته، فإن لم ينفع أغلظ فيه بالزجر والتهديد، فإن زال فقد حصل المقصود الذي هو إقامة الدين، ونصرة الشرع المبين، وزوال المنكر والشين، وإحياء سنة سيد المرسلين» انتهى.

قلت: وقد قرر الإمام السفاريني الحنبلي في منظومة الآداب في موضع آخر آداب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر حيث قال ـ رحمه الله ـ: «**فالبدعة صارت مألوفة، والسنن منكرة غير معروفة فيحتاج الآمر الناهي إلى مزيد صبر وتسليم واستعانة بالعزيز الحليم. قال الإمام أحمد ﷺ في رواية جماعة: إذا أمرت أو نهيت فلم ينته فلا ترفعه إلى السلطان ليُعدى عليه. فقد نهى عن ذلك.**

وقال أيضًا: من شرطه أن يأمن على نفسه وماله خوف التلف، وكذا قال جمهور العلماء. وفي الحديث الشريف: «**لا ينبغي لمسلم أن يُذل نفسه، قيل: كيف يُذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء ما لا يطيق**» رواه الإمام أحمد وابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح من حديث حذيفة مرفوعا» انتهى.

قلت: وقد بين الإمام ابن تيمية أن الصبر عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من ألزم الآداب، فإن لم يوجد ترتب على ذلك مفاسد، إما تعطيل الأمر والنهي، وإما الوقوع في منكر أعظم ومفسدة أشد من ترك الأمر والنهي.

فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: «**الصبر على أذى الخلق عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن لم يستعمل لزم أحد أمرين، إما تعطيل الأمر والنهي، وإما حصول فتنة ومفسدة أعظم من مفسدة ترك الأمر والنهي أو مثلها أو قريبا منها، وكلاهما معصية وفساد. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1] فمن أمر ولم يصبر، أو صبر ولم يأمر، أو لم يأمر ولم**

---

(١) سورة لقمان الآية: ١٧.

يصبر، حصل من هذه الأقسام الثلاثة مفسدة، وإنما الصلاح في أن يأمر ويصبر. وفي الصحيحين عن عُبادة رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في يسرنا وعسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»انتهى.

أقول: قد يتبادر إلى الذهن سؤال مهم في أحكام هذا الباب، وهو هل من حضر في موضع أو مكان، وأحاط به فيه المنكر، هل يبتعد عنه بحيث لا يراه أو يسمعه، أم يبقى للقيام بالحق الواجب عليه، وعن هذا السؤال يجيب الإمام أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن ج٣ ص٢٧٨ فقال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فإن قيل فهل يلزم من كان بحضرته منكر أن يتباعد عنه وأن يصير بحيث لا يراه ولا يسمعه قيل له قد قيل في هذا أنه ينبغي له أن يفعل ذلك إذا لم يكن في تباعده وترك سماعه ترك الحق عليه من نحو ترك الصلاة في الجماعة لأجل ما يسمع من صوت الغناء والملاهي وترك حضور الجنازة لما معها من النوح وترك حضور الوليمة لما هناك من اللهو واللعب فإذا لم يكن هناك شيء من ذلك فالتباعد عنهم أولى» انتهى.

أقول: ولقد أحسن الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يستعرض الفوائد الخمسة في آداب الناهي عن المنكر في قوله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ وأولها أن لا يخاف ثانيها أن لا يحزن عليهم ولا يجزع، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى، والفائدة الثالثة ألا يركن إليهم، ولا يمد عينيه نحوهم، وما

---

(١) متفق عليه.

أحاطوا به أنفسهم من الزينة والجاه والملذات والدنيا، والفائدة الرابعة ألا يعتدي على أهل المعاصي بالزيادة في بغضهم أو ذمهم والتجاوز على المشروع، أو عقوبتهم أو هجرهم، والفائدة الخامسة أن يقوم بهذه الشعيرة من الأمر والنهي، وفق المشروع من قواعد الدين وأصوله، وأن يكون الدافع في ذلك كله هو إقبال المرء على مصلحة نفسه علما وعملا، وهو ما يعبر عنه أهل الدعوة عند قيامهم لنشر الخير والمعروف في الأمة، ولرفع الشر والفساد عنها بقولهم «**نحن نخرج في سبيل الله لإصلاح أنفسنا**» فكان الأساس في قيامهم هو إقبالهم على إصلاح أنفسهم علما وعملا، ظاهرًا وباطنا، فعندما قصدوا في نيتهم ذلك حسن عملهم، وأقبل الناس عليهم وانتفعوا بهم، عندما رفقوا بالأمة ونصحوا لها وأشفقوا عليها..

وإليك الفوائد التي ذكرها الإمام ابن تيمية في هذه الآية ج١٤ ص٤٨١ قال ـ رحمه الله ـ: ولكن في الآية فوائد عظيمة..

«**أحدها**» أن لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين فإنهم لن يضروه إذا كان مهتديا.

«**الثاني**» أن لا يحزن عليهم ولا يخرج عليهم، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى، والحزن على ما لا يضر عبث، وهذان المعنيان مذكوران في قوله: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**﴾[1].

«**الثالث**» أن لا يركن إليهم، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات، كقوله: ﴿**لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾[2] فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما

---

(١) سورة النحل الآية: ١٢٧. (٢) سورة الحجر الآية: ٨٨.

عندهم في آية، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية، فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم إما راغبا وإما راهبا.

«**الرابع**» ألا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم أو عقوبتهم، بل يقال لمن اعتدى عليهم عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت، كما قال: ﴿**وَلا يجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ**﴾[1] الآية. وقال ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[2] وقال: ﴿**فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[3] فإن كثيرا من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين.

«**الخامس**» أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع، من العلم والرفق والصبر، وحسن القصد، وسلوك السبيل القصد، فإن ذلك داخل في قوله: ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ وفي قوله: ﴿**إذا اهتديتم**﴾.

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها المعنى الآخر، وهو إقبال المرء على مصلحة نفسه علما وعملا، وإعراضه عما لا يعنيه، كما قال صاحب الشريعة: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[4] ولاسيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه، لاسيما إن كان التكلم لحسد أو رئاسة.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٢. (٢) سورة البقرة الآية: ١٩٠.

(٣) سورة البقرة الآية: ١٩٣.

(٤) رواه الإمام الترمذي كتاب الزهد «باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس» وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، ورواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الإمام ابن ماجه كتاب الفتن «باب كف اللسان عن الفتنة».

وكذلك العمل فصاحبه إما معتد ظالم، وإما سفيه عابث، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ويكون من باب الظلم والعدوان.

فتأمل الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء، وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل» انتهى كلام الإمام ابن تيمية.

أقول: ومن أهم آداب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أيضا، ألا يأتي ما ينهاهم عنه ليستبد به دونهم، وأن يكون قصده الإصلاح في أمره ونهيه..

وهو ما أورده الإمام البيضاوي في تفسيره ج٢ ص٢٥٤ حيث قال - رحمه الله -: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[١] أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم فلو كان صوابا لآثرته ولم أعرض عنه فضلا عن أن أنهي عنه يقال خالفت زيدا إلى كذا إذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ما أريد إلا أن أصلحكم بأمري بالمعروف ونهي عن المنكر ما دمت أستطيع الإصلاح فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه ولهذه الثلاثة على هذا النسق شأن وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعى في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها حق الله - تعالى - وثانيها حق النفس وثالثها حق الناس» انتهى.

---

(١) سورة هود الآية: ٨٨.

أقول: وقد بين العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ آداب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، مـا يتعلق منهـا بالظاهر وما يتـعلق منها بالـباطن فقالوا ـ رحمهم الله تعالى ـ مـرشدين من قام لذلك: أن يكون تعليمه بالرفق والشفقة والتخويف بذكر وعيد ذنبه وما يترتب على معصيته من العقـوبة وأن يتدرج معه بغـاية اللين والبشاشة إذ كل شيء بـقضاء الله وقدره ويلاحظ لطف الله به ومنته عليـه إذ حفظه من ذلك وصانه عن هذا ولو شـاء لعكس فكان هو صـاحب المعصـية والعـاصي هو الذي يأمره وينهاه بل ليس هو آمنا من ذلك.

كما أن لكل من قام للأمر والنهي، أن يحذر من الغضب النفسي، الذي ينشأ من النظر إلى الذات، بخلاف الغـضب الشرعي المقصود به أمر الله ـ تعالى ـ، أو أمر رسوله ﷺ فإن لم يحذر من ذلك، يبقى إنكاره لنصـرة نفـسـه، لا لنصـرة الدين، كـذلك على كل من يأمـر وينهى، أن يحـذر من الاسـترسـال والتـجاوز، بحـيث ينقلب أمـره بالمعروف إلى منكـر، أو نهيه عن المنكر إلى منكر أعظم مـنه، فينقلب الثواب عقابا، كل ذلك بعد الإحـاطة بعلم هذا الباب، حدودًا وأركانًا وسننا وشرائط، حـتى لا يرى القائم لهذه الشعيـرة، المعروف منكرا، والمنكر معروفا، أو يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف..

وبهـذا نكون قـد بلـغنا نهاية الغـاية، في أسس المـعـروف والنهي عن المنكر، وطرق الدعوة وسبل الهداية..

التي بدأناها بما بدأ به الوحي في تغيير المنكر، وأن كل المنكرات في أمـة النبي ﷺ سـببـهـا نقص الإيمان، ثم الفـرق بين الداعي المتطوع والمحتسب صاحب الـولايات، وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في الدعوة أم لا، ثم حكـم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه

واجب وهو فرض كفاية، ثم مراتب إنكار المنكر، وتأخير العالم والداعي لإنكار أشياء لحين وقتها وبيان الشروط المعتبرة في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وبيان أن النبي ﷺ في تغييره للمنكر كان على أربعة أقسام، ثم الفرق بين المداهنة والمداراة، وتأكيد عدم جواز تغيير المنكر عند توقع اتساع دائرة الشر، وبيان أقوال الأئمة في أنه لا يجوز تغيير المنكر بما هو أنكر منه سدا لذرائع الفساد، ثم تقرير العلماء أنه في تغيير المنكر لابد من الحكمة المصاحبة للأمر والنهي، وبيان بعض صور إنكار المنكر، ثم في تغيير المنكر نحن ندفع المحبوب بالمحبوب، والفرق بين قاعدة التوكل وقاعدة ترك الأسباب وما يكتنفها من مخاطر، وأن تغيير المنكر لابد فيه من تغيير البيئة، وحكمة عمل أهل الدعوة في ذلك، ثم تقرير الإمام الغزالي لمقاصد عمل أهل الدعوة ووصفها بالتفصيل، ثم كيفية تغيير المنكر وخطأ البراءة من المخالفين، ورد عمر رضي الله عنه للذين قاموا بفكر تغيير الأحوال عن غير طريق الأعمال والإيمان، وبيان كيفية عمارة دار الإسلام وأنها مسئولية كل الأمة، ثم بيان آداب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

وعلى ذلك حططنا الرحال، وبلغنا في الكلام نهاية المقال..

آملين ممن قرأه أو نظر فيه، أن لا ينسانا بدعوة صالحة، ينفعنا الله - عز وجل - بها يوم عوزنا وفاقتنا، ويتجاوز بها عن تقصيرنا وغفلتنا..

ونسأل المولى عز وجل أن يهدينا إلى الأقرب إليه، والأزكى عنده، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلا ويرزقنا اجتنا به، فلا يلتبس علينا فنضل، إنه ولي ذلك والقادر عليه... آمين.

أيمن أبو شادي

إلهي وما كان من توفيق فمنك

وما كان من هدى فمن عندك

فتقبل منا إنك أنت السميع العليم

وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم

وانتخبنا وسلالتنا وذريتنا وأحبابنا

ومشايخنا وعلمائنا وإخواننا للدعوة إليك

وللسير نحوك، متجردين للسنة، ناصحين للأمة

يا هادي من استهداه

يا راعي من استرعاه، يا شافي من استشفاه

يا من هو أعلم بمن ضل عن سبيله

وهو أعلم بمن اهتدى

اللهم اجعلني أعظم شكرك وأكثر ذكرك وأتبع نصيحتك

ووجه نواصينا إليك

وثبت أقدامنا معك، واشرح صدورنا لك

وعظم جلالك في قلوبنا،

وسدد مقاصدنا ونياتنا إلى محبتك ورضوانك

وحسن اتباع حبيبك وخليلك

سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

واغفر لآبائنا وأمهاتنا ومشايخنا وعلمائنا

ومن له حق لازم علينا،

وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات

إنك سبحانك سميع قريب مجيب الدعوات

وبهذا ختم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس بإذن الله تعالى

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ملحق لفتاوى ورسائل كبار العلماء في العالم الإسلامي في أهل التبليغ والدعوة

﴿فضيلة الأستاذ وحيد الدين خان﴾

حيث قال رحمه الله[1]:

«لاشك أن منهج الشيخ/ محمد إلياس أثبت فاعليته القوية في التأثير على الناس وتربيتهم الروحية الخالصة المؤدية إلى التمسك بالكتاب والسنة والتضحية في سبيل الدين كما يؤدي إلى المحاربة ضد الجهالة والبدعات المتفشية في الأمة ويقوى مجابهة أهواء النفس.

ولست مغاليا في القول بأن مئات الألوف من الناس الذين عاشوا عيشة فاسدة أصبحوا زهادا، والذين كانوا يسخرون بالدين وأهله أصبحوا متمسكين به محبِّين له والذين خرجوا ـ مع الجماعة ـ مُحَلِّقين لحاهم فقد رجعوا ووجوههم مزينة بسنة محمد ﷺ والذين خرجوا بالزي الإفرنجي رجعوا وهم متمسكون بزي إسلامي.

والذين كان لا يقربون الصلاة ولا يؤدون الزكاة وكانوا يقضون حياتهم في المحرمات، صعب التعرف عليهم لدى عودتهم بعد قضاة فترة مع الجماعة، تجدهم صائمين النهار وقائمين الليل» انتهى.

---

(١) وحيد الدين خان: مولانا محمد إلياس أوران كي ديني تحريك: ص ٥٦ ـ ٦١.

﴿فضيلة الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي﴾

حيث قال رحمه الله تحت عنوان: مجتمعاتنا الإسلامية فقيرة في مجال الدعوة بمقدار ما هي غنية بالأنشطة الحركية:

إذن بوسعنا أن نتبيَّن الحقيقة التالية:

«وهي أن مجتمعاتنا العربية والإسلامية، بمقدار ما تفور بأنشطة الجماعات الإسلامية المتكاثرة، تعاني من الفقر الشديد والركود الخطير في مجال أعمال الدعوة إلى الله!..

وما قد نراه من بوارق الدعوة إلى الله والتعريف بالإسلام، هنا وهناك، ومتابعة بعض التائهين والجانحين بالنصح والحوار، لا يعدو أن يكون حالات أو تصرفات فردية، لا تسدّ من الحاجة الكبيرة أي مسدّ.

وإنا لنعلم أن من هذه الصور النادرة جداً ما تنهض به (جماعة التبليغ) من اتصال بعامة الناس واجتماع إليهم في بيوتهم وقراهم وأماكن تجمعاتهم أيًا كانت، حيث يذكرونهم بالإسلام وحقه الثابت في أعناقهم، ويدعونهم بلطف وتحبب إلى التوبة عن الموبقات، ثم التوجه إلى تطبيق أوامر الله..

ولكنه عمل جزئي ونادر إلى درجة الغربة، وقد تكون عدَّتهم إلى ذلك من العلم والثقافة محدودة ويسيرة. والمهم أنك لا تكاد تجد أيًا من الجماعات الإسلامية، تقبل معهم إلى شيء من هذا الاتجاه» انتهى.

﴿ فضيلة الأستاذ الدكتور سعد الدين السيد صالح أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة وعميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالزقازيق سابقًا ﴾

حيث بين رحمه الله تعالى المعالم الفكرية والحركية لعمل الدعوة والتبليغ تحت عنوان (الحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية) في كتابه «الفرق والجماعات الإسلامية المعاصرة وجذورها التاريخية».

فقال حفظه الله تعالى ص ٣٦٣: لقد تعرفت على جماعة التبليغ منذ ما يزيد على عشرين سنة، حيث كان الشيخ إبراهيم عزت أمير الجماعة في مصر يجوب البلاد طولاً وعرضًا من أجل الدعوة إلى الله، كما تعرفت عليها بصورة أشمل من خلال أحد أصدقائي وزملائي في الدراسة، الذين أحبهم في الله، والذي كان قد اندرج في سلك الجماعة وتمرس على العمل فيها، وقد تعرضت على بعض معالمها من خلال سلوكه وأخلاقه ومظهره، خصوصًا وأن الجماعة لا تعتمد على تأليف الكتب وإصدار النشرات، وإنما تنتشر بين الناس من خلال الحركة والمعايشة والمعاملة، فالمجتمع العالمي كله هو المدرسة التي ينتقل فيها أعضاء الحركة لكي ينقلوا فكرهم وسلوكهم، وحركتهم إلى الناس، فهم لا يقبعون داخل مؤسسات خاصة بهم، تعليمية أو تثقيفية، ولا يعقدون الندوات والمحاضرات في مؤسسات المجتمع الرسمية، ولا يقيمون في الفنادق أو المنازل، وإنما مكانهم هو المسجد والمجتمع، فالمسجد للوعظ والتوجيه، والعبادة والتصفية الروحية، والمجتمع للحركة والتطبيق.

هذه الجماعة هي من أكثر الجماعات إثارة للجدل والأخذ والرد بين مادح وبين قادح، وبين محب غالٍ وبين مبغضٍ قالٍ.

وهذا ما يدعونا إلى الحذر في عرض معالم هذه الحركة، والموضوعية في تقويمها وبيان ما لها وما عليها.

فمتى نشأت هذه الجماعة؟ وما معالمها الفكرية وخططها التنظيمية؟

تاريخ الجماعة:

نشأت جماعة التبليغ والدعوة في شبه القارة الهندية على يد الشيخ إلياس بن إسماعيل الكاندهلوي سنة ١٣٠٢هـ وقد نشأ في بيت علم وفقه وتتلمذ على يد والده وأخيه، وكانت نشأته في وقت انتشرت فيه ظاهرة الردة في الهند، فأقبل الشيخ على إنشاء المدارس الدينية، ولكن ظروف الفقر والحاجة صرفت الناس عن هذه المدارس.

فاتجه الشيخ إلى البحث عن طريقة أخرى، للاتصال بطبقات الشعب المختلفة بصورة مباشرة؛ لإثارة مشاعرهم الدينية وإشعارهم بخطر الردة، فرأى أن يبدأ مسلكه الجديد بالانتقال إلى الناس في بيوتهم، وأماكن تجمعاتهم، لتحريك الإيمان في قلوبهم من خلال العلماء المتطوعين بالفائض من وقتهم ومالهم للإنفاق على أنفسهم، واشترط عليهم أن يمتنعوا عن الدخول في السياسة، والأحزاب.

وقد توفي الشيخ محمد إلياس سنة ١٣٦٣هـ، ١٩٤٤م بعد أن أرسى الأسس التي ترتكز عليها الجماعة، فتولى أمرها من بعده ولده الشيخ محمد يوسف المولود سنة ١٣٣٥هـ، الموافق ٢٠ مارس سنة ١٩١٧م، والذي نشر الدعوة في مختف بلدان العالم وخصوصًا أرض الحجاز، وهو مؤلف كتاب حياة الصحابة الذي جمع فيه ما كان يفعله الرسول والصحابة في شأن الدعوة من خلال كتب الحديث وكتب السيرة. وقد توفي الشيخ سنة ١٩٦٥ فتولى أمر الجماعة من بعده الشيخ (محمد إنعام الحسن)، والآن يتولى أمر الجماعة مجلس شورى» انتهى.

ثم قال رحمه الله: المعالم الفكرية والحركية للجماعة:

هذه المعالم التي سنتحدث عنها، لم تكتبها الجماعة في كتاب، أو تنص عليها في منشورات، وإنما حاولنا أن نستقيها من خلال مجالستنا لبعض الأخوة من أعضاء الجماعة، ومن خلال بعض الزيارات القليلة لمراكز الجماعة، فقد زرت مركز مسجد أنس بن مالك في القاهرة، ومركز المصفح بأبي ظبي، كما جلست مع أمير الجماعة في مصر الشيخ فريد العراقي، والتقيت به في العشر الأواخر من رمضان في الحرم المكي حينما ذهبت للعمرة في رمضان ١٩٨٦م وكان معه مجموعة من رجال الجماعة، فكنت أتابع أقوالهم ونشاطهم وحركتهم في اليوم والليلة.

وأستطيع أن أحدد هذه المعالم فيما يأتي:

١ ـ هدف الجماعة: هو نقل المسلم من بيئة الغفلة والمعصية إلى بيئة الطاعة لله ولرسوله ﷺ، ونقل الكافر من بيئة الكفر إلى بيئة الإيمان، وتعويدهم على ترك المعاصي، وتسيير حياتهم وفقًا لسنة رسول الله ﷺ من حيث أداء الفرائض والنوافل، والالتزام بالسنة في المأكل والمشرب، والملبس والنوم، وسائر شئون الحياة.

٢ ـ ليس من مهمة الجماعة شرح الإسلام بمفهومه الشمولي من حيث العقيدة والشريعة، فهم لا يتحدثون عن النظم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية في الإسلام، حتى لا تتصادم دعوتهم مع النظم القائمة على غير شرع الله.

٣ ـ ليس للجماعة نظام مكتوب أو برنامج محدد، أو سجل ثابت للأعضاء، أو رسم عضوية، شأن الجماعات والأحزاب الأخرى، وبالتالي فليس لها ميزانية؛ لأن كل العاملين فيها من المتطوعين سواء كانوا من القيادات أو الأفراد، حيث يتحمل كل فرد نفقاته الخاصة من مأكل ومشرب، وفراش ومصاريف انتقال، ولا تجمع الجماعة تبرعات من أحد، وبالتالي فهي ليست في حاجة إلى ميزانية ونظام مالي، وتلك هي أهم ميزة في الجماعة، فلا محاسبة ولا مراجعة ولا اختلاسات

ولا شكوك كما نلاحظ في الجماعات والأحزاب الأخرى، كما أنه لا مجال هنا لاتهام الجماعة بأنها تتلقى أموالاً من خارج الدولة، كما هي التهمة الموجهة إلى بعض الجماعات الإسلامية.

٤ ـ وللجماعة أمير عام على مستوى العالم، وهو لا يأخذ على الناس بيعة إمام المسلمين، وإنما بيعة السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ ويوجد الآن (مجلس شورى) هو الذي حل محل الأمير العام. ولكل دولة في دول العالم أمير يختار من خلال مجلس شورى الجماعة، ولكل محافظة أو ولاية أو إمارة في داخل الدولة أمير، ولكل حي من أحياء المحافظة أو مركز من مراكزها أمير، ولكل جماعة خارجة في سبيل الله أمير.

٥ ـ نظام الحركة: يسمون حركتهم بالخروج في سبيل الله، ولهذا الخروج نظام فكل من يجد في نفسه الاستعداد للخروج عليه أن يخرج ثلاثة أيام في الشهر، وأربعين يومًا في السنة، وأربعة أشهر في العمر كله، وهذا التحديد هو للترتيب والتنظيم فقط، وليس أمرًا مفروضًا فهو مجرد اجتهاد منهم لتحقيق مقصد أساسي وهو الدعوة إلى الله وتبليغ الناس الإسلام عملاً بقول رسول الله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»، ولكن من استطاع أن يخرج يومًا واحداً فلا بأس، من خرج عشرة أيام، فلا بأس.

٦ ـ منهج الجماعة هو الموعظة الحسنة التي يطلقون عليها اسم (البيان) وموضوع هذه الموعظة دائمًا هو أصول الدعوة الست هي:

ـ تحقيق شهادة التوحيد عمليًا في حياة المسلم بطاعة الله واتباع أوامره، ولذلك يصدرون إعلانهم عن البيان بهذه العبارة: «إن نجاحنا وفلاحنا في الدنيا والآخرة هو في امتثال أوامر الله على طريق النبي محمد ﷺ» ثم يقوم واحد منهم بإلقاء البيان بعد صلاة سنة المغرب ويضمنه موعظة عامة وتذكيرًا بالله وباليوم الآخر

وبدعوة الناس إلى الخروج في سبيل الله.

- الصلاة ذات الخشوع والخضوع.
- العلم مع الذكر، والمراد بالعلم هو علم الفضائل والأخلاق لا علم الأحكام.
- إكرام المسلمين.
- تصحيح النية وإخلاصها لله والعمل على طريقة رسول الله ﷺ.
- الدعوة إلى الله والخروج في سبيل الله.

برنامج الخروج في سبيل الله:

يتحدد برنامج الخروج في سبيل الله من خلال المركز العام في الإقليم، حيث يُعْلن كل عضو رغبته في الخروج ومدته، ثلاثة أيام أو أربعين يومًا على حسب إمكاناته، ثم تنظم الجماعات الخارجة إلى الأماكن المختلفة، سواء القرى أو النجوع، أو دول العالم الخارجي.

وتكون مهمة الجماعة نقل الناس من البيئات الفاسدة إلى البيئة الإيمانية، لذلك تراهم في خروجهم من بعد صلاة العصر يخرجون فيما يسمى بالجولة، يطرقون أبواب المنازل ويعرفون بأنفسهم ويدعون أهلها إلى الصلاة في المساجد لسماع الموعظة، ويتحدثون مع الجالسين على المقاهي والسائرين في الطرقات، يدعونهم إلى المسجد، ويقوم فريق آخر منهم بنصرة القائمين في الجولة من خلال الدعاء، وبعد ذهاب الناس إلى المساجد وسماعهم للموعظة، واقتناعهم بها، يُكونون منهم جماعات للخروج لمدة ثلاثة أيام، وهنا تكون الفرصة لهذا الخروج حتى يغير الخارج في سبيل الله نمط حياته وأسلوب معيشته من خلال معايشته لمن معه من القدامى في الجماعة خلال الأيام الثلاثة، حيث يتعود على الصلاة في وقتها، وعلى الخشوع في الصلاة، وعلى الزهد في الدنيا، وعلى ذكر الله وقراءة القرآن والتهجد وغير ذلك مما يعايشه خلال خروجه، وهذه الجماعة التي خرجت هي

التي تتحمل أعباء الدعوة فيما بعد وتدفع غيرها إلى الخروج.

كما أن لهم في أيام الخروج نظام ثابت حيث يوزعون وقتهم بين إعداد الطعام وزيارة عالم من علماء الحي، أو إمام المسجد، وقد يأخذون له هدية من باب إكرام المسلمين واحترام علمائهم، وحلقات التعليم في المسجد، والجولة بالحي، والتعريف بالجماعة بعد صلاة العصر، والبيان بعد المغرب، وقراءة القرآن والتهجد بالليل، وفي الصباح تلقى (الهدايات) أي النصائح على الخارجين في سبيل الله.

آداب الجماعة:

هي الهدايات التي يزود بها أفراد الجماعة دائمًا وهي:

١ ـ الالتزام بأربع: الدعوة، العبادات، حلقة التعليم، الخدمة.

٢ ـ التقليل من أربع: الطعام، المنام، الكلام، وقت قضاء الحاجة.

٣ ـ تجنب أربع: الإسراف، الإشراف، السؤال، استعمال أغراض الغير بغير إذن منه.

٤ ـ عدم الخوض في أربع: المسائل الفقهية، المسائل السياسية، أوضاع الجماعات الأخرى، الجدل.

ولذا فإنه من مميزات هذه الجماعة أنها لا تعادي أحدًا ولا توجه نقدًا لأي جماعة من الجماعات على الرغم من النقد اللاذع الذي توجهه لها سائر الجماعات.

ومن خصائص هذه الجماعة أيضًا أنهم يجعلون لكل مقام مقال، فالحديث مع العلماء يختلف عن الحديث مع العامة، والحديث مع أصحاب السلطان، يختلف عن الحديث مع الرعية.

موقف الجماعة من الحضارة الحديثة:

ينظر أتباع الجماعة إلى منتجات الحضارة الحديثة على أنها حذاء ينتعله المسلم لقضاء حاجته، فإذا انتهت خلعه، قد يحتاجون ما أنتجته الحضارة من أدوات ووسائل، فيأخذون منها على قدر الضرورة ويتخففون على قدر الاستطاعة من المنتجات التي يستطيعون العيش بدونها، مثل التلفاز والفيديو والفرش والسراير وغيرها من أنواع المتع التي يتنعم بها الناس، ويقولون: إن هذه الأشياء قد يحتاجها من ينظر إلى الدنيا على أنها جنته، أما المسلم الحقيقي فالدينا سجنه الضيق، وكل همه أن يخرج منه إلى فضاء نعيم الآخرة.

أثر الجماعة:

كان للحركة آثاراً كبيرة على الحركة الإسلامية في العالم الإسلامي وخصوصًا في المغرب، والجزائر وتونس، ومصر، وكثير من شباب الجماعات الإسلامية عرف الاستقامة والالتزام عن طريق جماعة التبليغ، ثم تطور أمره بعد ذلك.

يقول الشيخ عبدالسلام يس أمير جماعة العدل والإحسان بالمغرب: «وكانت جماعة التبليغ توجه رسالتها إلى الجميع ابتداء من العامل اليدوي، وحتى الدكتور، وكانت تتحدث إليهم بنفس اللغة بدون مواربة وبدون أن يكون لها بعد سياسي، أو اقتصادي وكان لهم، وما زال حتى الآن، أفضل تأثير صحي على الجماعات الإسلامية، ومن فضائلهم التي تذكر أنهم لا علاقة لهم بالسياسة، الأمر الذي كان يسمح لهم بالسفر بكل حرية بدون مشكلات، وحتى في دول أوروبا كان الناس يعجبون ببساطتهم، ويتوجهون إليهم»انتهى.

ثم قال رحمه الله تعالى بعد ذلك ص٣٧٠: ومن هنا نقول: إن هذه الجماعة تسد فراغًا كبيراً، وتقف على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام، فاتركوها تتحرك، ولا تشوشوا عليها بالشبهات والأباطيل، وإن كانت هناك أخطاء فانصحوا

قادتها، وأتباعها ونبهوهم، وأعتقد أنهم يتقبلون النصح.

ـ وأما تأثيرها على مستوى العالم الخارجي فهو تأثير بالغ فعن طريقها انتشر الإسلام بين العمال المسلمين الذين كانوا قد انسلخوا عن دينهم، فبنيت المساجد، وأقيمت الصلاة وظهر الزي الإسلامي، ودخل العديد من النصارى في الإسلام الأمر الذي ما كان يتم إلا بفتح إسلامي قوامه السلاح والقتال.

لقد مضت عشرات السنين والمسلم لا يستطيع أن يظهر إسلامه في أوروبا وأمريكا، وكان أكثر العمال سكيرون تاركون للصلاة، متغربون خلقًا وسلوكًا، حتى وصلت هذه الجماعة إلى هناك في صمت ويسر فوجد الإسلام طريقه في أوروبا وأمريكا، بل تحولت بفضل الله بعض الكنائس إلى مساجد في فرنسا، حيث اشتراها العمال المسلمون بأموالهم وجعلوها مساجد.

ومعظم هؤلاء الذين أسلموا من النصارى لم يكن إسلامهم عن طريق الكتب والمحاضرات، والندوات أو أي جماعة إسلامية أخرى من الجماعات المنتشرة، أو أي هيئة من الهيئات الرسمية للدعوة مثل المراكز الإسلامية، وما أكثرها، ووزارات الأوقاف ولكنهم عرفوا الإسلام من خلال جماعة التبليغ الذين يذهبون إلى هناك على نفقتهم الخاصة، ويحملون أمتعتهم على ظهورهم، لم يذهبوا إلى هناك من أجل البحث عن عمل، ولا من أجل الحصول على الإقامة أو من أجل النزهة والسياحة، كما هي الأغراض الدنيوية التي تحرك كل من يذهب إلى أوروبا وأمريكا، ذهبوا لا لكي يأخذوا، وإنما لكي يعطوا، ويحملون الخير للناس ويرجون لهم الهداية، وهذا ما استلفت أنظار الأوروبيين» انتهى.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الذين يريدون الآن للأمة الاستقامة على أوامر الله تعالى، ويبدأون بما انتهى به التنزيل، لا بما بدأ به الوحي، هم يرتكبون أخطاءً كثيرة.	١٥
نص أئمة الإسلام على أهمية وجود هذا الإيمان في الأمة، الذي هو الأساس في صلاح النفوس، والمؤدي إلى الانقياد وامتثال الأوامر.	١٦
لا يتصور وجود الأوامر والنواهي قبل وجود هذا الإيمان، فهو سابق لها وجودا ورتبة، ومتقدم عليها لا متأخر عنها، حتى لا تخطئ الأمة في آخر عهدها.	١٦
تقرير الإمام البيضاوي لذلك بقوله: «وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيمانا بالله وتصديقا به.	١٦
قول الإمام الآلوسي: «وإنما أخر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة كما هو الظاهر لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم.	١٧
قول سلطان العلماء: «وإنما تأخر الإيمان بالكتب والرسل، إذ لا يمكن أن يؤمن بالرسول والرسالة من لا يعرف المُرسل، فقد تأخر لقصور رتبته عن رتبة الإيمان».	١٨
قول سلطان العلماء العز بن عبدالسلام: فلفضل الإيمان تأخرت الواجبات عند ابتداء الإسلام ترغيبا فيه، فإنها لو وجبت في الابتداء لنفروا من الإيمان لثقل تكاليفه.	١٨
أمثلة على ذلك من كلام سلطان العلماء العز بن عبدالسلام.	١٨
ما صلح به قيام الواجبات في الأولين، من إشاعة الإيمان أولا والوعد والوعيد، هو الصالح لإقامة هذه الواجبات في الآخرين.	٢١
أنت ترى المعصيات، ولم تر كسر تقوية المعروف في قلبك، وتقوية بغض المنكر ونشر الإيمان في نفسك وأهلك والعالم أجمع، والذي هو الأساس لرفع المنكرات.	٢١
الدين جاء من الإيمان، ويخرج الدين وينتشر المنكر بفقد هذا الإيمان، والله ربط الهداية والإيمان بجهد رسول الله ﷺ في الدعوة والرسالة.	٢٢
إذا قامت الأمة على جهد نبيها، ومقاصد رسالتها، فالله سبحانه وتعالى ينُزل على قدر هذا الجهد، إيمانًا في القلوب.	٢٢
إذا ما حدث العكس، وقل الجهد للدعوة والإيمان والرسالة، ارتفعت الهداية من الأرض، ويخرج الحكم والقضاء، وتخرب العبادات..	٢٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفقا لتعريفات العلماء منهم الإمام الطبري.	٦٨
مراتب إنكار المنكر.	٧٠
قول الإمام القرافي نجد أعظم الناس إيمانا يعجز عن الإنكار، وعجزه لا ينافي تعظيمه لله ـ تعالى ـ وقوة الإيمان.	٧١
ما قرره العلامة الأمير في حاشيته أن معنى ضعف الإيمان دلالاته على غربة الإسلام.	٧٢
النبي ﷺ أرسل رحمة للعالمين وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وليس بخاتم للرحمة، فالرحمة ممتدة إلى يوم القيامة بدعوة أمته..	٧٤
الله تعالى اصطفى هذه الأمة على بقية الأمم، واختارها لرسوله ﷺ، ولكن لماذا جعل الله هذه الأمة هي خير الأمم ولأي غرض؟	٧٤
شرائط تغيير المنكر	٧٥
الناظر في المنكرات لتغييرها، لابد له من أركان وشرائط يقيمها، علاوة على نظر سديد، واجتهاد لمعرفة المصالح الخفية، والمفاسد المستترة.	٧٦
قول الإمام الغزالي: «ما فيه الحسبة» وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد.	٧٦
شروط تغيير المنكر كما ذكرها الإمام القرافي في الفروق وقوله فَعَدَمُ أحد الشرطين الأولين يُوجب التحريم وعَدَمُ الشرط الثالث يُسقط الوجوب ويُبقى الجواز والندب.	٧٨
المفاسد الموجودة الآن في العالم، مشاهدة لا تحتاج إلى بيان، والسبب الأساسي أن الإنسان بنفسه لم يبق على مقصد حياته.	٨٠
قول العلامة الخرشي المالكي في شرح مختصر خليل: ويُشترط ظهور المنكر من غير تجسس ولا استراق سمع ولا استنشاق ريح..	٨٠
قول العلامة الخرشي من شروط تغيير المنكر أن يكون مجمعا على تحريمه أو يكون مدرك عدم التحريم فيه ضعيفا.	٨٠
قول الشيخ زرّوق في شرح الإرشاد الفرع الثالث من فَعَلَ فعلا مختلفا في تحريمه وهو يعتقد التحريم أنكر عليه....	٨٠
صورة الأعمال ليس عليها وعد الله بالعلو والنصرة، وأخطر الأشياء أن يكون عند المسلمين صورة الأعمال، وليس حقيقتها، ويظنون أن عندهم الحقيقة.	٨١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
كم من قول معسول، يطول الأمر في كشف شبهته، وبحار البنان في مس دائه، ووصف دوائه.	٢٥٤
أكد عمر ﷺ بهذا على المسئولية الذاتية لتطبيق الأحكام، على كل أفراد الأمة، وأنها عينية على كل أحد، قبل أن تكون كفائية بالنسبة للآخرين.	٢٥٧
ما قرره عمر ﷺ أن التطبيق للأوامر هو بالالتزام بالأعمال، ولا يتعلق بتبديل الأعيان، فدعوى التطبيق ليست للغير فقط، بل هي أولا ذاتية على التعين.	٢٥٩
بدون قيامنا على هذا المطلوب منا، فلن نعرف المعروف وندعو إليه، ولن نكره المنكر وننتهي عنه، ولن يتحقق الموعود لنا بالاستخلاف والخيرية..	٢٦٠
ضرب العلماء لذلك مثلا، عن ملك أحضر أحد عبيده، فقال له..	٢٦١
صلاة الفجر غائبة في الأمة، لا يصليها إلا نادر النادرين، وأركان الإسلام تشتكي إلى الله تعالى العابثين بها واللاهين.	٢٦٣
وأنى لأمة أضاعت مجدها، وزهدت في طهارتها، وتنكرت لإيمانها وتركت عفتها، أن يكافئها بتمكينه أو يمدها بنصره..	٢٦٣
فالوعد لا يطلب وإنما يجتهد الناس على تحصيل أسبابه، وهو عمل أهل الدعوة ليلهم ونهارهم، على تحقيق المطلوب من الأمة.	٢٦٣
عمارة دار الإسلام مسئولية كل الأمة.	٢٦٥
وقد تكرر هذا المسلك على عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ممن كانوا على عصره.	٢٦٦
قول ابن عباس: إني لا أستطيع أن أكلمكم كلكم، ولكن انظروا أيكم أعلم بما يأتي ويذر فليخرج الي حتى أكلمه.	٢٦٦
عندما خرج إليه رجل منهم، جعل يقول ويحتج، وابن عباس ساكت لا يكلمه بشيء.	٢٦٦
قول ابن عباس: خبرني عن دار الإسلام هذه هل تعلم لمن هي ومن بناها؟..	٢٦٧
قول الخارجي: ويحك يا ابن عباس! احتلت والله حتى أوقعتني في أمر عظيم، وألزمتني الحجة حتى جعلتني ممن أخرب دار الإسلام.	٢٦٨

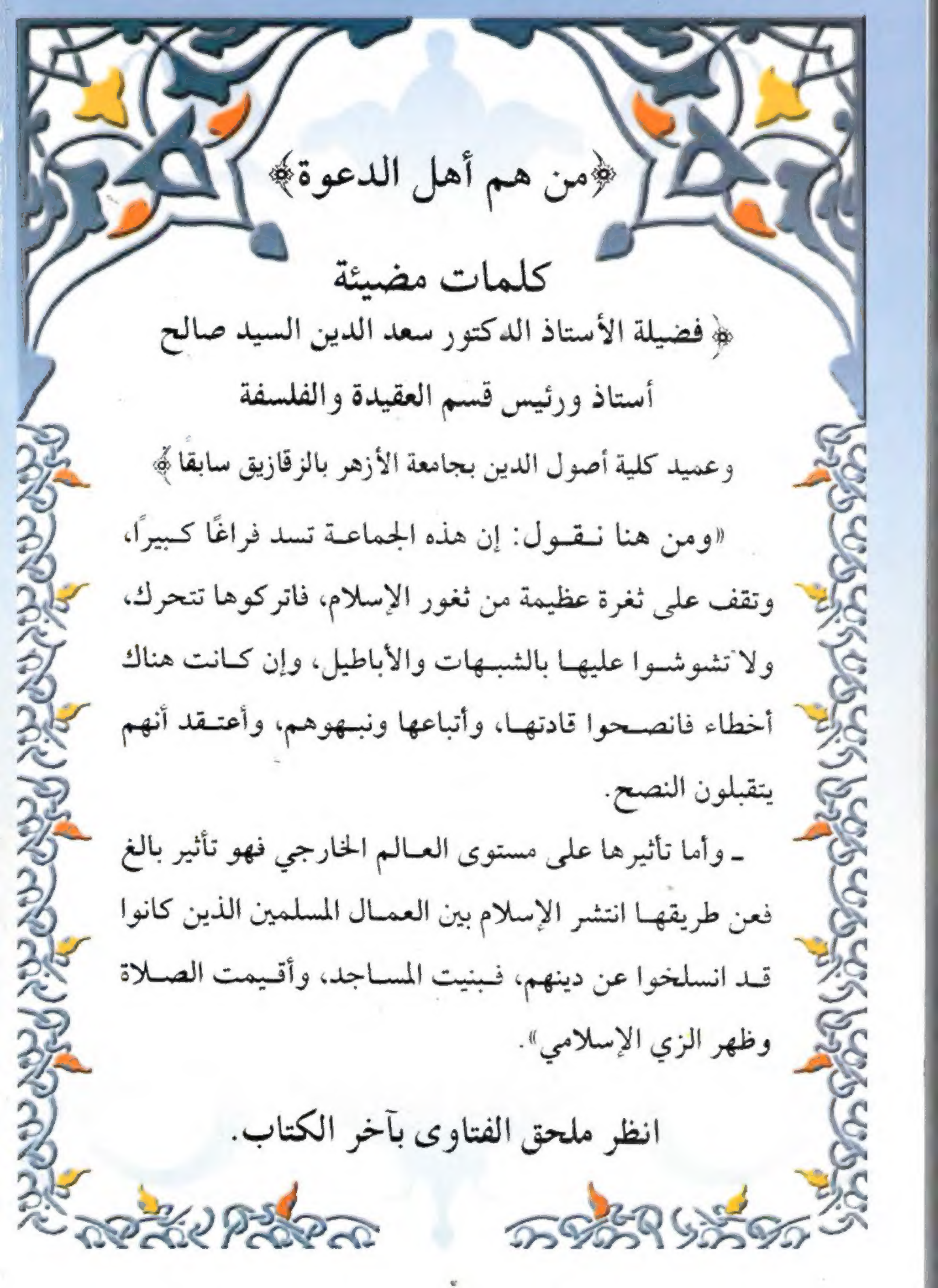
الموضوع	الصفحة

عنوان المراسلة : ١٣ ش بركات

طومان باي – الزيتون – القاهرة

يُطلب من المكتبات بجوار مركز الدعوة بالجيزة

ت : ٠١٠٦٥٣٣٢٧٦٨



﴿من هم أهل الدعوة﴾

كلمات مضيئة

﴿ فضيلة الأستاذ الدكتور سعد الدين السيد صالح

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

وعميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالزقازيق سابقا ﴾

«ومن هنا نقول: إن هذه الجماعة تسد فراغًا كبيرًا، وتقف على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام، فاتركوها تتحرك، ولا تشوشوا عليها بالشبهات والأباطيل، وإن كانت هناك أخطاء فانصحوا قادتها، وأتباعها ونبهوهم، وأعتقد أنهم يتقبلون النصح.

ـ وأما تأثيرها على مستوى العالم الخارجي فهو تأثير بالغ فعن طريقها انتشر الإسلام بين العمال المسلمين الذين كانوا قد انسلخوا عن دينهم، فبنيت المساجد، وأقيمت الصلاة وظهر الزي الإسلامي».

انظر ملحق الفتاوى بآخر الكتاب.